اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ حافظ يوسف
الإسكندرية

دكتور سعد الدين السيد صالح
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
وعميد كلية أصول الدين بالزقازيق

المعجزة والإعجاز
فى القرآن الكريم

الطبعة الثانية
١٩٩٣



دار المعارف



الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد، -

فهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب الذي نفدت طبعته الأولى في زمن قياسي، نظراً لأنه يعالج موضوعا من أهم موضوعات الساعة إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وهو موضوع (إعجاز القرآن الكريم) الذى يتعرض لحملات شرسة من العلمانيين، والشيوعيين والتغريبيين وسائر الفصائل الشاردة عن طريق القرآن ذلك أنه حين يقر الجميع بإعجاز القرآن الكريم على اختلاف وجوهه. فإنهم لاشك ملزمون باتباع كل ماورد فيه من عقائد وآداب وشرائع ونظم، ولهذا يشنون على القرآن وشرائعه هذه الحملات الظالمة، بينما يعترف العلماء التجريبيون الغربيون بعظمة القرآن الذى بشر بكثير من الحقائق العلمية التى لم يصل إليها العلماء فى القرن العشرين إلا بعد جهد جهيد وحسبنا فى ذلك ماقاله العالم الفرنسى «موريس بوكاى»:

«إن ما جاء به القرآن من بيان أصل الإنسان يثير دهشة كثير من الناس لاريب، تماماً كما ادهشنى أنا أيضاً حين اكتشفته لأول مرة (..) فالقرآن يحتوى حقاً على آيات بينات عن خلق الإنسان تدعو إلى العجب وإعمال المنطق ويستحيل تفسير وجود هذه الآيات البينات بالمنطق البشرى – اذا وضعنا في اعتبارنا مستوى المعارف السائدة وقت نزول القرآن أما بالنسبة إلى الغرب فلم يسبق له أن تناول هذه الآيات البينات التناول العلمى حتى التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٦ وذلك حين قدمت إلى الأكاديمية الطبية الفرنسية بحثاً عن المعطيات فى كل من علم وظائف الأعضاء .. وعلم الأجنة التى عرض لها القرآن منذ اربعة عشر قرناً سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة»[١].

---

(١) راجع ص ٢١ من كتاب «ما أصل الإنسان» موريس بوكاى ط الرياض.

فهل آن لهؤلاء الشاردين أن يعودوا إلى القرآن الكريم ويقدروه حق قدره – بعد أن اعترف علماء الغرب بحقائقه العلمية وهل آن لنا أن نعود إلى القرآن الكريم كمنهج للحياة؟ إن هذا هو مايحتمه المنطق العقلى علينا، وإلا وقعنا فى تناقض صارخ حيث نؤمن بإعجاز القرآن ونصدق أنه من عند الله ونتباهى بما ورد فيه من حقائق علمية – ولكننا لانخضع سلوكنا لمتطلبات تشريعاته ونظمه وأخلاقه – مع أن الذى قرر الحقائق العلمية فى القرآن هو الذى قرر الحقائق التشريعية والأخلاقية. إنه الله رب العالمين الذى خاطب الإنسانية بقوله «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم».

أ.د. سعد الدين السيد صالح

الزقازيق فى ١/ ٢/ ١٩٩٣

مقدمـة الطبعة الأولى

الحمد لله صانع المعجزات، والشكر لمن هدى البشرية بالنبوات - سبحانه وتعالى - والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد ابن عبد الله الذى أعجز الإنسانية بكتابه الخالد والذى شهد بإعجازه الأعداء مع الأصدقاء.

وبعد:

فإن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر فى كتابهم الكريم، كى يستخرجوا منه وجوهاً جديدة فى إعجاز القرآن، يواجهون بها الحراب التى توجه إلى القرآن من مختلف معسكرات الأعداء.

فقد اشتدت الحملة على القرآن، وانبرت أقلام العلمانيين والشيوعيين واليهود والنصارى - تحاول إلقاء الشبه والتهم عليه.

- فمن قائل: إن القرآن قد انتهى عصره فالعصر عصر العلم ولا مكان للقرآن فيه.

- ومن قائل : إن تشريعات القرآن قد كانت صالحة لعصور مضت ولكنها لم تعد صالحة للتطبيق اليوم.

- ومن قائل : إن القرآن أعجز العرب ببلاغته وفصاحته ولكنه لا يوجد اليوم من يتذوق القرآن فكيف حكم بإعجازه.

ومن هنا كان على المسلمين أن يهبوا للدفاع عن إعجاز القرآن ويحاولوا من جديد تجليته للناس، وحبذا لو كان هؤلاء المدافعون ممن حصلوا قدرا وافيا من صنوف العلم الطبيعى من كيمياء وفيزياء وفلك وغيرها، مع تمكنهم من علوم القرآن الكريم والعقيدة والفلسفة الإسلامية، حتى يجلو للإنسانية مافى القرآن الكريم من حقائق علمية، وحتى يستطيعوا أن يجادلوا هؤلاء الحاقدين بأسلوبهم ومنطقهم، فتكون الدعوة إلى الله على بصيرة، ذلك أن الإنسانية اليوم فى الشرق

والغرب أحوج ما تكون إلى القرآن هاديا ومرشداً بعد أن سلكت كل السبل فى محاولة لعلاج مشكلاتها النفسية والروحية ولم تفلح، فليت من يقوم من المسلمين بهذه المهمة الكبرى، فى محاولة لمخاطبة هؤلاء الضالين بأسلوبهم.

فالقرآن معجزة علمية ضخمة تكفى لأن ينتشر الإسلام بها فى أوساط العلم والعلماء، وفى كل مكان لا يعرف أهله لغة القرآن. وسوف نحاول فى هذا البحث أن نلقى ضوءاً جديداً على إعجاز القرآن، وليس معنى هذا أننا سوف نصل إلى كل وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، فقد جهد العلماء قديما وحديثا فى الوقوف على سر إعجازه، واستخرجوا وجوها عديدة، ومع ذلك لم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يبلغه المخيط إذا وضع فى بحر خضم، ذلك أن القرآن الكريم عطاء متجدد لكل عقل، ولكل عصر وذلك طبقا لطبيعته الخالده على مدى العصور والدهور والأحداث والناس.

يقول الرافعى «القرآن كتاب كل عصر وله فى كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز، ونحن قد قلنا فى غير الجهات التى كتب فيها من قبلنا وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله»[1].

وبحق، فإن قضية إعجاز القرآن على الرغم من تعدد زواياها وثراء جوانبها، فإن البحث فيها شيق وجذاب ولن يقضى العالم منها نهمه وإن أنفق عمره سابحا فى بحارها، لأنها تتعلق بمعرفة سر الجلال والروعة فى كلام الله سبحانه وتعالى[2].

وكيف يصلون إلى نهاية ما لا يتناهى، أو حد ما لا يحد وهو كلام رب العالمين، الذى هو صفة من صفاته، وإذا كانت الصفة تتبع الموصوف كمالا وجلالاً، فإن كلام الله لابد أن يكون جميلاً كجماله كاملا ككماله، جليلا كجلاله، ولهذا فإن النفس البشرية مهما أدركت بعض مظاهر الاعجاز فيه، فإن حقيقته سوف تظل حديث الدهور والعصور، أو على حد تعبير الامام الزركشى «إن كتاب

---

(١) إعجاز القرآن الكريم للرافعى صـ ١٧٣.

(٢) صبرى المتولى – منهج ابن تيمية فى تفسير القرآن صـ ٢٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٨١.

الله بحر عميق لايصل عمقه إلا من تبحر فى العلوم وعامل الله بتقواه، أو وصل روحه بهذا الجناب الأقدس»[١].

وهكذا «فمن إعجاز القرآن أن يظل مطروحا على الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى سخى الموارد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح عاليا يفوق طاقة الدارسين»[٢].

وإذاً فإن ما نقوم به فى هذا البحث هو مجرد خطوة فى طريق طويل، يحتاج إلى جهود العلماء المخلصين للإسلام من مختلف التخصصات وأخص بالذكر أساتذة العقيدة والفلسفة الذين يتميزون بملكاتهم العقلية القادرة على التحليل والتركيب والنقد والاستنتاج والبناء.

ولقد لفت نظرى أن ما كتبه علماء الكلام قديما عن إعجاز القرآن لم يتعد الصفحات القليلة العدد بالإضافة إلى ما كتبوه فى المباحث العقدية الأخرى، وهو أمر لا يليق بمعجزة القرآن التى تمثل أساس نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

بل إن ماكتبه صاحب المواقف والمقاصد والمطالب العالية وغيرها من الكتب الأساسية فى المذهب الأشعرى فى موضوع الوجود والماهية والجواهر والأعراض والكمون والظهور وغيرها كان أضعاف ما كتبوه عن إعجاز القرآن الكريم.

ولم يكتب فى إعجاز القرآن كتابا مستقلاً من أساتذة المذهب الأشعرى اللهم إلا الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتابه القيم «إعجاز القرآن».

وربما حدث ذلك تحت الظن السائد بأن الإعجاز مبحث بلاغى صرف، مع أن الواقع أن فكرة الإعجاز فكرة عقدية بحتة. نشأت فى رحابه العقيدة أولا كمبحث من مباحث النبوات فى علم الكلام ثم أثرت بعد ذلك فى المباحث البلاغية وحفزت علماء البلاغة إلى البحث فى كثير من الموضوعات.

---

(١) قارن صـ ١ من كتاب الإعجاز البلاغى للقرآن» د. صباح عبيد دراز القاهرة.

(٢) د. عائشة عبد الرحمن الإعجاز البيانى للقرآن صـ ١٥، القاهرة دار المعارف.

يقول الدكتور مهدى صالح السامرائي: «فالوجه الجمالى للبلاغة، نشأ أول ما نشأ فى مباحث الإعجاز، ومن هذه المباحث استمدت مباحث البلاغيين وجودها الجمالى»(١).

ومن هنا أحاول فى هذا البحث المتواضع أن أفصل موضوع إعجاز القرآن الكريم تفصيلاً يليق بمقامه كأساس أول من أسس نبوة سيدنا محمد - ﷺ.

وقد بدا لى من خلال القراءة والبحث أن موضوع «إعجاز القرآن الكريم» ليس مجرد مبحث من مباحث العقيدة أو البلاغة، بل إنه من الممكن أن يكون علماً قائما بذاته يضاف إلى علوم العقيدة والفلسفة.

نعم : هو علم له مفهومه وتاريخه وموضوعه وهذا ما سوف أقوم به فى هذا البحث حيث أعالجه كعلم عقدى مستقل.

ولقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى تمهيد وبابين تحدثت من خلالهما عن كثير من القضايا الهامة ومنها:

- قضية الإعجاز كعلم مستقل له مفهومه ومنهجه وتاريخه.
- قضية امكان وقوع المعجزات فى ضوء القوانين العلمية ومناقشة الالحاد المعاصر حول المعجزات احتجاجا بقوانين الحتمية.
- حدود التحدى بالقرآن الكريم وهل يخص العرب وحدهم أم يشمل العجم وغيرهم من فاقدى الذوق البيانى.
- قضية الإعجاز البيانى قديما وحديثا وبيان قيمتها فى ضوء انحطاط أذواق الناس فى العصر الحاضر.
- موضوع الإعجاز النفسى والقلبى.
- مشكلة الإعجاز العلمى بين المؤيدين والمعارضين فى ضوء آخر المعلومات والمؤتمرات العلمية التى عقدت لبحث هذا الموضوع.

---

(١) تاثير الفكر الدينى فى البلاغة العربية صـ ٢٨١ بغداد.

- قضية الإعجاز التشريعى لكى تكون رداً على الشيوعيين والعلمانيين الذين يوجهون حرابهم إلى القرآن اليوم مدعين أنه قد انتهى عصره.

وهانحن نثبت إعجاز القرآن واستمراريته وننادى بأعلى صوتنا:

يا أعداء القرآن. هاهو القرآن أمامكم وكما نزل منذ أربعة عشر قرنا يتحداكم بوجوه إعجازه وينادى عليكم.

«قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»(١).

وختاما نحمد الله على نعمة الإسلام، ونشكره أن قد هدانا إلى القرآن ونسأله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفع بما كتبنا إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

المؤلف
د. سعد الدين السيد صالح
رئيس قسم العقيدة والفلسفة وعميد كلية أصول الدين بالزقازيق

السعودية - تبوك فى ١٠/ ١١/ ١٩٨٦.

---

(١) الإسراء ٨٨.

تمهيـــــد

سوف نحاول فى هذا التمهيد أن نتحدث عن النقاط التالية:

- تعريف علم إعجاز القرآن.
- موضوعه وأهميته
- تاريخه ومناهج التأليف فيه مع بيان أهم الكتب المؤلفة فى هذا العلم.

١ - تعريف علم إعجاز القرآن :

إعجاز القرآن مركب إضافى معناه بحسب اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به.

وعلى هذا فالمعنى الاصطلاحى لإعجاز القرآن هو: العلم الذى يبين كيف أعجز القرآن الخلق. وأقام عليهم الحجة وذلك بتفصيل وجوه الإعجاز والتحدى فى الكتاب الكريم، ودلالة ذلك على صدق الرسول - ﷺ.

٢ - موضوعه وأهميته :

أما موضوع هذا العلم فهو القرآن الكريم من حيث توضيح وجوه الإعجاز فيه.

وأما أهميته: فهو من أهم العلوم وأشرفها، لأن نبوة سيدنا محمد ﷺ قد بنيت على إعجاز القرآن، ومع أن الرسول قد أيده الله بمعجزات كثيرة غير القرآن إلا أن معظم تلك المعجزات كانت من المعجزات الحسيه التى ظهرت فى أوقات خاصه، ولم يشاهدها إلا أفراد معينون، وبعضها نقل إلينا عن طريق (التواتر) وبعضها نقل إلينا عن طريق الآحاد. خلافاً للقرآن الكريم فهو معجزة

عقلية عامة للناس جميعاً منذ نزل على رسول الله ﷺ وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها. فقد تحدى العرب وسحر ألبابهم ببلاغته وفصاحته وبيانه وحلو حديثه، وما زال يتحدى البشرية كلها بوجوه إعجازه التى كشف بعضها العلماء القدامى، وما زال يكشف عنها العلماء المحدثون يوما بعد يوم.

ومن هنا تبدو أهمية هذا العلم:

– فهو يزيد المؤمن إيماناً فوق إيمانه.

– ويقيم الحجة على المعاند والمستكبر ومن فى قلبه مرض.

– ويلزم العقلاء بصدق هذا الكتاب، وصدق النبى الذى جاء به ووجوب أتباعه.

تاريخ علم إعجاز القرآن ومناهج الكتابة فيه.

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مصدقا له فى دعوى النبوة حيث تحدى العرب بالشىء الذى برعوا فيه وهو قوة الفصاحة والبيان، ولكن القرآن أدهشهم وحير ألبابهم بسحر بيانه، وروعة معانيه، ودقة تركيب ألفاظه وبيانه، فمنهم من آمن بالقرآن، ومنهم من عاند واستكبر واتبع هواه ولكن المعاندين اختلفوا وتضاربت أقوالهم، وافترقت كلمتهم فى وصفه.

فقال بعضهم هو شعر، وقال الآخر هو سحر، وزعمت طائفة أنه أساطير الأولين تعلمها محمد ﷺ، وذهبوا فى ضروب الباطل كل مذهب يحاولون تفسير هذه الظاهرة الغريبة التى حيرت عقولهم، وجعلتهم يتضاربون فى أقوالهم ضده، وأقامت عليهم الحجة تلو الحجة على أنه كتاب رب العالمين، فقد عجزوا عن معارضته، أو الإتيان بمثله، أو حتى بسورة من حجم سورة الكوثر ذات الثلاث آيات وهم أساتذة الفصاحة والبلاغة، فلم يجدوا مناصا من الإيمان بأن القرآن كتاب الله ومعجزة رسول الله ﷺ إليهم.

ولم يلحق الرسول ﷺ برب العالمين إلا بعد أن سلم جمهور العرب بإعجاز القرآن الكريم.

وجاء عصر الخلفاء الراشدين الذين نشروا الإسلام على ربوع الدنيا فدخل فيه أقوام من الحاقدين والحاسدين الذين أذل الإسلام كرامتهم، وفضح عقائدهم الباطلة، وأدال دولهم الظالمة من اليهود والنصارى والفرس والمجوس والهنود وغيرهم.

ولكن كثيراً من هؤلاء لم يدخلوا الإسلام حبا فيه بل من أجل القضاء عليه من الداخل، ومن هنا راحوا يقرأون القرآن ويتتبعون ما تشابه منه ابتغاء فتنة المسلمين فى دينهم، وراحوا يطعنون فى إعجاز القرآن بادعائهم أن فى نظمه فساداً، وفى أسلوبه لحناً، وفى معانيه تناقضاً، وغير ذلك من الشبه والشكوك[١] التى ألقوها فى محاولة خبيثة لإسقاط إعجاز القرآن، إلا أن هؤلاء الطاعنين لم يجرأوا على إعلان شبههم على الملأ فى بداية الأمر وذلك خوفا من بطش الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية بل استخفى هؤلاء الطاعنون بمذاهبهم وشبههم وراحوا ينشرونها سراً.

ثم جاءت الدولة العباسية : حيث ضعفت الحمية الدينية وتسامح الخلفاء فى غير ما يمس سلطانهم ويعرض كراسى حكمهم للخطر، بل قربوا هؤلاء الحاقدين من مجالسهم وملكوهم زمام الأمور فى الدولة مما شجعهم على إعلان شبههم.

يضاف إلى ذلك ما قامت به الدولة العباسية من ترجمة معظم كتب الفلسفة والمنطق، حيث بدأ الغزو الفكرى لعقول المسلمين عن طريق الفلسفات والعقائد الباطلة مما دعا إلى كثرة الجدل بين المسلمين وغيرهم - وبين الفرق والمذاهب الكلامية[٢].

ومن هنا كثرت المطاعن فى إعجاز القرآن الكريم، فقد كتب ابن الراوندى الملحد كتاباً حقيراً بعنوان «الدامغ» طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من معان[٣] كما طعن النظام المعتزلى فى الإعجاز الذاتى للقرآن الكريم، وادعى أن

---

(١) راجع ص ١٧ وما بعدها من كتاب «قضايا النبوات» لصديقنا الدكتور محمود عبد المعطى بركات. وراجع كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

(٢) قارن ص ٤٤ من كتابنا «العقيدة الإسلامية».

(٣) د. إبراهيم مدكور (فى الفلسفة منهج وتطبيقه) ص ٨٠ الطبعة الثانية.

إعجازه بالصرفة[1] كما نقل أن ابن المقفع قد اشتغل فترة بتأليف كتاب يعارض فيه القرآن، ولما لم يجد إلى ذلك سبيلاً مزق كل ما كتب واستحيا لنفسه من إظهاره بعد أن انكشف له عجزه[2].

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الكتابة فى إعجاز القرآن. فنهض فريق من العلماء يدافعون عن إعجازه، ويؤلفون الكتب والرسائل فى الرد على المنكرين.

وإذا كان القانون الطبيعي يفترض لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الإتجاه، فإن جهابذة الفكر الإسلامى وعلماءه قد نفروا إلى المعركة مسلحين بالوعى الإيمانى والعقلى والعلمى، ليردوا هذه الموجة الهاجمة على أعقابها ويعمقوا الوجه المضيء لقضية الإعجاز فى نفوس المسلمين[3].

وإن كان كثير من هذه الكتب تناول بعض وجوه الإعجاز دون حصر لها، وبدون الحديث عن الإعجاز كعلم مستقل.

الكتب المؤلفة ومناهج التأليف فى هذا العلم:

كان أول من ألف فى إعجاز القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى، فقد عمد إلى مطاعنهم فجمعها ثم كر عليها بالهدم فى كتابه القيم «تأويل مشكل القرآن» كما يقول هو فى مقدمته لهذا الكتاب «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم والاختلاف.

وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر والحدث الغر (....) فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمى من ورائه بالحجج المنيرة والبراهين المبينة،

---

(١) مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى جـ ١ ص ٢٩٦.

(٢) الأستاذ سيد صقر – مقدمة لكتاب إعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٢.

(٣) د. محمد أحمد العزب. الإعجاز القرآنى من الوجهة التاريخية ص ٣١.

وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن(١).

كذلك كتب الطبرى «جامع البيان عن وجوه تأويل آى القرآن» كما كتب الجاحظ كتاب «الحجة فى تثبيت النبوة» وكتاب «الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه».

كما ألف فى إعجاز القرآن كثير منهم أبو زيد البلخى وابن الأخشيد فقد كتب كل منهما كتاباً بعنوان إعجاز القرآن فى نظمه وهو من الكتب المفقودة كذلك كتب القاضى عبد الجبار كتاباً بعنوان «إعجاز القرآن» ضمن كتاب المغنى.

ولكن من أحسن ما ألف فى إعجاز القرآن كتاب «إعجاز القرآن» للرمانى والخطابى والباقلانى فقد كتب هؤلاء الثلاثة كتباً فى «إعجاز القرآن» ناقشوا فيها شبه المنكرين وفصلوا بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ومنهج التأليف فى هذه الكتب يدور حول موضوع واحد هو الكشف عن الإعجاز البلاغى والبيانى والغيبى للقرآن الكريم.

وأما فى العصر الحديث، فقد ظهر كثير من العلماء الذين كتبوا فى إعجاز القرآن على طريقة القدماء ومنهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن، والدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «النبأ العظيم». والدكتورة عائشة عبد الرحمن فى كتابيها: التفسير البيانى (والإعجاز البيانى).

وكذلك المرحوم الأستاذ الشهيد سيد قطب فى كتبه العديد وأهمها: «مشاهد القيامة فى القرآن» ، «الظلال» و«التصوير الفنى فى القرآن الكريم» وهذا الكتاب الأخير نسيج وحده، فقد حاول أن، يعالج قضية إعجاز القرآن البيانى بصورة جديدة لم تلفت أنظار كل من كتب فى إعجاز القرآن من القدماء والمحدثين، فقد حاول السابقون أن يبحثوا عن النواحى البلاغية من خلال النصوص والآيات مفردة ولم يتجاوزوها إلى إبراز الخصائص العامة للجمال الفنى فى القرآن الكريم لهذا كتب هذا الكتاب(٢).

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ وما بعدها – تحقيق السيد صقر.

(٢) راجع ص ٣٠ من التصوير الفنى

غير أن منهج البحث البلاغى فى إعجاز القرآن الكريم لم يكن هو المنهج الوحيد فى العصر الحديث وإنما ظهر منهج آخر وهو البحث عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

فقد ظهرت من جديد الحملة على إعجاز القرآن ولكن بصورة جديدة، حيث ادعى الملحدون أن القرآن قد انتهى عصره، فالعصر هو عصر العلم والمنهج العلمى والنظريات العلمية والقرآن لا شأن له بذلك.

ومن هنا ظهرت الحاجة من جديد إلى الكتابة فى إعجاز القرآن ولكن بأسلوب آخر يواكب أساليب الملحدين.

ولهذا كتب الشيخ طنطاوى جوهر تفسيره العلمى للقرآن الكريم كما كتب وحيد الدين خان «الإسلام يتحدى» و «الإسلام والعلم» كذلك كتب الدكتور أحمد الغمراوى كتاب «الإسلام فى عصر العلم» وهو نفس العنوان لكتاب كتبه محمد فريد وجدى مع البون الشاسع بين الكتابين إذ أن مضمون كتاب فريد وجدى لايمت إلى عنوانه بصلة.

كما كتب الدكتور عبد الرزاق نوفل العديد من الكتب التى أبرزت الإعجاز العلمى فى القرآن وأخيراً كتب فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى كتابه القيم «معجزة القرآن» الذى حاول أن يناقش فيه الماديين ويبين كثيراً من نواحى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

والواقع أن هناك كتباً كثيرة فى هذا المجال ولكن نكتفى بما ذكرنا.

وأخيراً فإن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة إلى الكتابة فى إعجاز القرآن وذلك من أجل الصمود أمام مؤامرات اليهود والنصارى التى تستهدف إبعاد المسلمين عن القرآن «عقيدة وشريعة» كما أن علماء الإسلام بكتابتهم عن الإعجاز العلمى للقرآن إنما يفتحون مجالاً جديدا أمام التبشير بالقرآن بين هؤلاء الماديين الذين يتمسحون بالعلم ويدعون أنه لا يتفق مع الإيمان، فها هو ذا القرآن يدعو إلى العلم، ويعالج حقائقه منهجاً وموضوعاً. وإذا لا تصادم بين القرآن والعلم،

فتح جديد للقرآن فى قلوب هؤلاء الضالين، فليت من يقوم بترجمة كل هذه الكتب التى عالجت الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم - إلى اللغات الأخرى، هنا يكون المسلمون قد قاموا بواجب الدعوة إلى دينهم ودعوا إلى الله على بصيرة، وبذلك يكونون من أتباع رسول الله ﷺ بحق: «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتَّبعنى»[1].

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن تاريخ إعجاز القرآن ومناهج التأليف فيه كى ننتقل إلى الباب الأول من أبواب هذا الكتاب.

• • •

(١) يوسف ١٠٨.

البـــاب الأول

فى المعجزة

وفيه فصول ثلاثة :

الفصـل الأول : طرق إثبات النبوات

الفصل الثاني : ضرورة المعجزات وطبيعتها

الفصل الثالث : مفهوم المعجزات وحكمها ووجه دلالتها

الفصل الأول

طرق إثبات النبوات

اختلف العلماء فى طرق إثبات النبوات فمنهم من ذهب إلى أن المعجزة هى الطريق الوحيد لإثباتها وهو إمام الحرمين الجوينى وحجته فى ذلك:

أنه لو كان هناك طريق آخر لإثبات النبوة ولم يكن خارقاً للعادة أو كان خارقاً ولم يكن مقرونا بدعوى النبوة لا يصلح دليلا، للاتفاق على جواز وقوع الخوارق من الله ابتداء. وفى نظرى أن حجة إمام الحرمين هى مجرد تكرار للدعوى فقط ولم يأت بدليل يثبت دعواه.

لذلك ذهب جمع كبير من العلماء ومنهم سعد الدين التفتازنى وابن تيمية والإمام أبو جعفر الطحاوى صاحب العقيدة الطحاوية إلى أن هناك طرقا كثيرة لإثبات النبوة ذكر منها سعد الدين فى (مقاصده) ثلاثة طرق وأضاف أبو جعفر طرقاً أخرى. أما الطرق التى ذكرها سعد الدين التفتازانى فهى:

١ - خلق العلم الضرورى عند بعض الناس بأن هذا النبى صادق. وذلك كما حدث لخديجة حين قالت لرسول الله ﷺ إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر فهذه الشهادة من خديجة لم تقم إلا على أساس من العلم الضرورى الذى خلقه الله عندها بأنه صادق.

ومن ذلك علم أبو بكر الصديق بصدق النبى ﷺدون حاجة إلى ظهور خوارق العادات على يديه.

يقول ابن تيمية: «إن كثيراً من الناس يحصل لهم علم ضرورى بأن هذا النبى صادق، وهذا المتنبى كاذب بمثل ذلك، من قبل أن يروا خارقا للعادة منفصلاعنه»(١).

---

(١) الجواب الصحيح صـ ٣١٠ جـ ٤.

وقد ورد فى السنة ما يؤيد ذلك فقد روى الترمذى: «أن عبد الله ابن سلام قال: لما قدم رسول ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وهكذا خلق الله علما ضروريا عند هؤلاء بأن محمداً ﷺ- صادق دون أن يروا معجزاته، مما يدل على أن المعجزة ليست هى الطريق الوحيد لإثبات النبوات.

٢ - خبر من ثبتت عصمته عن الكذب كنصوص التوراه والإنجيل التى بشرت بنبوة سيدنا محمد ﷺحيث احتوت التوراة والإنجيل على كثير من النصوص الواضحة فى إثبات نبوة رسول الله ﷺ(١).

على أنه يلحظ أن هذه الكتب معصومة من الخطأ حين نزلت من السماء على موسى وعيسى، ولكنها تعرضت لتحريف ولتزيف، وعلى الرغم من ذلك بقيت بعض البشارات بمحمد ﷺونحن نأخذ بها ونصدقها لأنها تتفق مع ما ورد فى القرآن الكريم على لسان عيسى «ومُبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد(٢)».

٣ - المعجزة وهى التى سوف نفصل الحديث عنها فيما بعد، وأما الطحاوى فقد أكد على أن المعجزة ليست هى الطريق الوحيد لإثبات النبوات حين قال: «لاريب أن المعجزات دليل صحيح، ولكن الدليل غير محصور فى المعجزات (....) والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوة النبى فكيف بدعوة النبى، ويستشهد على ذلك بما قاله حسان ابن ثابت رضى الله عنه. ..

ولو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر(٣)

لذلك يذكر الطحاوى طرقاً أخرى غير المعجزة لإثبات النبوة وهى:

١ - قرائن أحوال الأنبياء من حيث نشأتهم وأخلاقهم، ونسبهم، وصفتهم.

---

(١) راجع كتابنا مشكلات العقيدة النصرانية - فصل البشارة بنبوة محمد

(٢) سورة الصف آية: ٦.

(٣) شرح الطحاوية ص ٦٥.

قال القاضي عياض: «إذا تأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره، وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته»[1].

ومن هذا الطريق سلم هرقل ملك الروم بنبوة محمد - ﷺ حين سأل أبا سفيان عدداً من الأسئلة عن نسبه وأخلاقه واتباعه وما يأمرهم به، وبعد أن أجاب أبو سفيان، بين لهم هرقل ما في قرائن أحوال محمد ﷺ من وجه الدلالة على نبوته.

فقال:

سألتكم هل كان في آبائه من ملك فقلتم لا، قلت لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله فقلتم لا، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل إئتم بقول قيل قبله.

وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فقلتم لا، فقلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم، فقلتم ضعفاؤهم، وهم اتباع الرسل (يعني في أول أمرهم) وسألتكم أيزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطا له بعد أن يدخل فيه، فقلتم لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه، فقلتم انها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها.

وسألتكم هل يغدر، فقلتم لا وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتكم عما يأمركم به، فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي.

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٤ ص ٣١٤.

وقد كنت أعلم أن نبياً سوف يبعث ولم أكن أظنه فيكم. ولولا ما أنا فيم من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين[١].

فهكذا أدرك هرقل من قرائن أحوال محمد ﷺ أنه نبى صادق فى دعواه وقام عنده الدليل على نبوته من غير طريق المعجزة، وإن كان سعد الدين التفتازانى يرد هذا الطريق إلى المعجزات فيقول:

وأما الاستدلال على نبوة محمد بما شاع من اخلاقه وأحواله فهو عائد إلى المعجزة[٢] وهو على حق فى هذا، فقد كانت أخلاق محمد ضربا من خوارق العادات. إذ كيف يخرج على اخلاق قومه وعاداتهم وتقاليدهم؟ فلم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرا قط ، ولم يكذب أبداً وهو الذى نشأ فى بيئة انطبعت بهذه الصفات، إذا فأخلاقه كانت ضربا من الخوارق. إذ المعهود أن تأتى إخلاق الفرد وصفاته صورة لبيئته أو كما قالوا إن الإنسان هو ابن بيئته - فكون أخلاق الرسول تأتى مناقضة لأخلاق بيئته، هو أمر خارق للعادة. هذا بالإضافة إلى أن بعض الأسئلة التى طرحها هرقل عما كان يأمر به النبى من التوحيد والاخلاق الطيبة هو من صميم المعجزة القرآنية.

إذا فقرائن الأحوال تلك عائدة إلى المعجزة وليست طريقا مستقلا.

٢ - طريق التواتر

فقد نقل إلينا متواتراً أن الله أرسل رسلاً، وأنزل معهم كتبا. وهذه الأخبار المتواترة صادقة صدقا بينا وتثبت نبوة الأنبياء.

يقول صاحب الطحاوية «وبالجملة فالعلم بأنه كان فى الأرض من يقول أنه رسول الله، وأن أقواما اتبعوهم، وأن أقواما خالفوهم وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور؟ أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من

---

(١) شرح الطحاوية وقارن سيرة ابن هشام.
(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.

الأمم من ملوك الفرس وعظماء الطب كأبو قراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه»[١].

وفيما يبدو أن الخلاف بين إمام الحرمين وبين من خالفوه خلاف لفظي لا حقيقي إذ يمكن حمل كلام إمام الحرمين على ما يصلح دليلا للنبوة على الإطلاق وحجة على المنكرين بالنسبة لكل نبي حتى الذى لانبي قبله ولاكتاب[٢] يبشر به. أما كلام المخالفين فيمكن حمله على ما يصلح دليلا لنبي سبقه أنبياء وكتب من الممكن أن تبشر به.

وهذا ومن الممكن أن نجمع بين الرأيين بطريق أفضل فنقول: إن المعجزة وحدها هي طريق إثبات النبوة على المعاند والمكابر ومن في قلبه مرض بينما الطرق الأخرى وسائل لأثبات النبوة لهؤلاء العقلاء المنصفين الذين لم تنحرف فطرهم من أمثال أبي بكر الصديق وخديجة وهرقل وغيرهم.

وعلى أية حال فسوف ننتقل الآن إلى الحديث عن ضرورة المعجزات وتعريفها ووجه دلالتها وحكمها وغير ذلك مما يتعلق بها من المباحث المهمة.

• • •

(١) الطحاوية ص ٦٩.

(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.

الفصل الثانى

ضرورة المعجزات وطبيعتها

ضرورة المعجزات:

لاشك أن المعجزات أمر ضرورى لتصديق الأنبياء ذلك أن النبى بشر من البشر لا يتميز عنهم فى شىء اللهم إلا باختيار الله له واصطفائه عليهم، ومن هنا لا يصح بعثة النبى دون أن ترافقه معجزة تؤيده وتصدقه ذلك أنه يدعى بأنه مرسل من عند الله، والله سبحانه وتعالى غيب غير مرئى ولا محسوس ولاملموس- اللهم إلا لأولى البصائر الذين لم تنحرف فطرهم عن جادة الصواب - ولكن ليس كل الناس كذلك.

فكيف يصدق الناس أن هذا الإنسان مرسل من عند الله فعلاً؟ إذاً فلابد من أن يظهر الله على يديه أمراً خارقاً للعادة يعجز عنه جميع البشر بما فيهم النبى نفسه. وهنا يؤمن الناس بأن هذا الفعل هو من الله، وبالتالى يكون النبى صادقا فى كل ما يبلغه عن الله.

فالمعجزة هى البرهان المحسوس لدى العقلاء على أن الأنبياء مرسلون من عند الله حقا، لأن هذه المعجزات خرق لنواميس الكون ولا يقدر على خرق هذه النواميس إلا خالقها وهو الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا رافقت المعجزات أنبياء الله تفضلا منه واحسانا ولطفا بعباده دون وجوب عليه أو إلزام كما ادعى بعض المعتزلة[١].

وإذا كانت المعجزات وسائل تصديق الأنبياء وإثبات نبوتهم، فهى أيضاً حجة الله على من شاهدها، أو تواتر سماعه بها عمن شهدها حتى لايكون للناس على الله حجة.

---

(١) راجع صـ ٥٦٧ من الأصول الخمسة حيث يقول القاضى عبد الجبار «إن الله تعالى إذا بعث الينا رسولا ليعرفنا المصالح فلابد من أن يدعى النبوة ويظهر عليه العلم المعجز الدال على صدقه عقب دعواه».

أما من شاهدها فانه ينتقل انتقالا مباشراً من الشعور بعجزة إزاء المعجزات إلى شعوره وإيمانه بأنها من صنع الإله القادر.

وأما من تواترت إليه فـلأن التواتر يعطى الخبر صـفـة اليـقين وضـرورية التسليم به، فلا فرق بين من شاهد بعينه وبين من نقل اليه الخبر عن طريق التواتر فالمشاهدات والمتواترات من الأمور الضرورية التى يجب التسليم بها.

طبيعة المعجزات وطبيعة المعجزة القرآنية

الجنس الذى يجمع معجزات الأنبياء السابقين مع معجزة رسول الله ﷺ: هو كونها من الأمور الخارقة لما اعتاده الناس، وإما غير ذلك فالمعجزة القرآنية تختلف تماما فى طبيعتها ووصفها عن سائر معجزات الأنبياء السابقين.

فقد كان الطابع الذى يجمع بين معـجـزات الإنبـيـاء السـابقين هو الطابع الحسى المادى. مثل معجزة عدم احراق النار لابراهيم، ومعجزة ناقة صالح التى خرجت من بين صخور الجبل[1]، ومثل مـعـجزات موسى المتعددة – كانقلاب العصا حية تسعى وتلقف ما صنعه السحرة، ومعجزة فلق البحر ونجاته وإهلاك فرعون، وكذلك معجزة إحياء جمهور من بنى إسرائيل بعد موتهم بالصاعقة، بالإضافة إلى معجزة رفع جبل الطور من فوق بنى إسرائيل حين أخذ الله عليهم الميثاق. وغير ذلك من المعجزات الحسية الكثيرة التى ظهرت على يد موسى لإقناع بنى إسرائيل. وكذلك كانت معجزات عيسى، حيث كان يخلق من الطين كهيئة الطير فيفنخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ويشفى الأعمى والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويخبر الناس بما يدخرونه فى بيوتهم.

والسـبب فى أن الله قـد خـاطب الناس بهـذا الأسلوب هو طبـيـعـة الناس ومستوى تفكيرهم، فلم يكن يرقى إلى أكثر من ذلك، فقد كانوا عاجزين عن الإستدلال بالنظر العقلى الخالص، فاقتضت الحكمة عند دعوتهم للإيمان أن يخاطبوا بالمعجزات الحسية.

---

(١) راجع – ناقة صالح – تاليف محمد عبد الغنى حسن – سلسلة من قصص القرآن.

ولما تكاملت العقول البشرية، وترقت في مدارج التفكير العقلي، وأصبحت صالحة لتقبل رسالة عامة خالدة، وتفهم معجزة عقلية أبدية - وذلك على عهد الرسالة الإسلامية: كانت معجزته ﷺ. هي القرآن الكريم وهو المعجزة العقلية المحضة، التي هدت الناس لاعن طريق الخوارق الحسية - كما صنع الأنبياء السابقون - وإنما عن طريق العقل والفكر والنظر في الكون، ومافية من إبداع واختراع لكي يكون دليلا قاطعاً على وجود المبدع والخالق.

ومع أن رسول الله ﷺ قد أوتي كثيرا من المعجزات الحسية إلا أنها لم تكن هي الطريق الأساسي لإثبات نبوته فقد كان الطريق الأساسي هو المعجزة العقلية.

وهناك فروق شاسعة بين المعجزات الحسية السابقة وبين المعجزة العقلية ومنها.

أولاً - أن المعجزة العقلية تقنع العقل وتدفعه إلى التفكير والوصول إلى الحقائق بتعقل وروية، ولعلنا هنا نفهم السر في اهتمام القرآن بالتعقل والتفكر والتدبر وكل المشتقات المشابهة التي تكررت عشرات المرات في القرآن الكريم مقرونة بالاحترام والتقدير، أما المعجزات الحسية فهي تفحم العقل وغالباً ما تكفه عن الرؤية وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم ذلك أن المعجزات الحسية إنما تعتمد على الشعور والوجدان، فهي لإقناع من لم يقتنع بتفكيره[١].

وقد وضح ابن رشد الفرق بين الإقناع والإفحام في هذا النص الرائع الذي يقول فيه: إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ، ليست كدلالة إنقلاب العصا حية ولا كدلالة إحياء الموتى وإبراء المرضى، فإن تلك - وإن كانت أفعالاً - لاتظهر إلا على أيدي الأنبياء، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة، إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة. وأهداف الوحي.

أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب، ومعرفة السطوح على الهندسة وصنع الأبواب وغيرها على النجاره، ومثال

---

(١) راجع التفكير فريضة إسلامية للعقاد.

ذلك لو أن شخصين إدعيا الطب، فقال أحدهما: الدليل على أنى طبيب أنى أطير فى الجو، وقال الآخر: دليلى أنى أشفى الأمراض وأذهب الأسقام، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض برهانيا قاطعا، وعند من طار فى الجو مقنعا ومن طريق الأولى والأحرى، حيث يظن الرائى أن من قدر على المشى على الماء الذى ليس من خصائص البشر هو احرى أن يقدر على الابراء الذى هو من صنع البشر.

ويطلق ابن رشد على المعجزات المادية وصف «المعجز البرانى» وعلى المعجزة العقلية «المعجز المناسب»(١).

ثانياً – المعجزة العقلية تتعدد مناهجها وتختلف طرقها فى الإقناع وفى الدلالة، فقد تكون أدلتها بيانية، أو غيبية، أو علمية، أما الأدلة الحسية فليس لها من ذلك نصيب.

ثالثاً – المعجزات الحسية خاصة لاتقيم الحجة إلا على من شاهدها أو تواترت إليه، أما المعجزة العقلية فهى عامة وملزمة للإنسان، لأن العقل هو أخص خصائص الإنسان بصرف النظر عن مكانه أو زمانه أو جنسه.

ويقول الشهيد سيد قطب عند تفسيره لسورة الإسراء: «جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعا لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها رسالة الرشد البشرى تخاطب مدارك الإنسان جيلا بعد جيل، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته»(٢).

ولعل هذا ما يفسر لنا إيمان كبار مفكرى الغرب وفلاسفته وعلمائه بالقرآن الكريم فى هذا العصر.

---

(١) صـ ١٣٤ ضمن كتاب فلسفة ابن رشد تحقيق د. مصطفى عمران وراجع صـ ٦٥ من القسطاس المستقيم للإمام الغزالى بسلسلة الثقافة الإسلامية.

(٢) فى ظلال القرآن – نقلاً عن صـ ١٠ من كتاب المعجزات المحمدية للأستاذ وليد الأعظمى بيروت سنة ١٩٧٧.

ويعبر الشيخ الشعراوى عن هذا الفرق بصورة أخرى فيقول: «المعجزات السابقة أفعال الله، وفعل الله من الممكن أن ينتهى بعد أن يفعله الله، ومعجزة القرآن صفة الله فهى كلامه والصفة باقية ببقاء المتصف بها»[١].

ويقول أتين دينية - فيما ينقله المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود فى كتابه: «دلائل النبوة ومعجزات الرسول .

«إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً ﷺ كانت فى الواقع معجزات وقتية، وبالتالى معرضة للنسيان بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآية القرآنية «المعجزة الخالدة» ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر فمن المتيسر رؤيتها فى كل زمان ومكان بمجرد تلاوة آى الذكر الحكيم»[٢].

رابعاً - جاءت المعجزات الحسية منفصلة عن الدعوى والمنهج الذى جاء به الأنبياء السابقون، بينما جاء القرآن الكريم جامعا بين المعجزة والدعوى معاً فهو آية الرسول وبرهانه، وهو فى الوقت ذاته منهجه ودعواه ونضرب مثالا يوضح هذا الأمر.

كانت معجزة موسى هى العصا وكان منهجه هو التوراة وكانت معجزة عيسى الطب وكان منهجه الإنجيل، أما القرآن فكان هو المعجزة والمنهج معا ليظل المنهج محروسا بالمعجزة وتظل المعجزة فى المنهج[٣].

وفى هذا يقول ابن خلدون فى مقدمته: الخوارق تقع فى العادة مغايرة للوحى الذى يبلغه النبى وتأتى المعجزة شاهد صدقه، والقرآن هو نفس الوحى المدعى وهو الخارق المعجز، فشاهده فى عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا هو معنى قوله ﷺ مامن نبى من الأنبياء إلى أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[٤].

---

(١) راجع معجزة القرآن صـ ٩.

(٢) دلائل النبوة صـ ٢٥٥ - الدكتور عبد الحليم محمود.

(٣) الشيخ محمد متولى الشعراوى - معجزة القرآن صـ ١٠.

(٤) راجع صـ ٩٢ من مقدمة ابن خلدون وقارن مقدمة تفسير التحرير والتنوير للأستاذ الطاهر بن عاشور جـ ٢ صـ ٩٦.

وإنما تمنى الرسول ذلك بناء على إستمرار منهجه ومعجزته معا، بينما انقرضت معجزات ومناهج الأنبياء السابقين، ولم يبق إلا أخبارها، وأما القرآن فهو الحجة القائمة كأنما يسمعه السامع من رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

خامساً – أن المعجزات الحسية قد تلتبس بغيرها من الأمور عند غير العالم العاقل، وبالفعل اختلطت المعجزات الحسية عند اليهود والنصارى بأمور السحر والكهانة والتبس عليهم الأمر حتى أنهم كانوا وإلى بداية عصر التنوير فى أوربا يحكمون على من يتهم بالسحر بالإعدام حرقاً لأنه بسحره – فى نظرهم – إنما يتطاول على مقام النبوة[٢]، ومنهم من انخدع بمخترعات العلم الحديث فسماها بالمعجزات، أما المعجزة العقلية فلاتلتبس بشيء ولا تزيغ بها الأهواء، ولا تضل فيها الأفهام، ولا تخلق على كثرة الرد.

وبعد هذا ننتقل إلى الحديث عن تعريف المعجزة وشروطها ووجه دلالتها.

• • •

---

(١) راجع صـ ١٢٩ من كتاب «شمائل الرسول ودلائل نبوته» لإبن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد – بيروت.

(٢) راجع صـ٢٦٠ من كتاب «القرآن يتحدى» أحمد عز الدين عبد الله خلف الله وقارن صـ ٧٠ من كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للعقاد ١٩٧٧.

الفصل الثالث

مفهوم المعجزات وحكمها ووجه دلالتها

المفهوم اللغوى

لفظ المعجزة إسم فاعل مأخوذ من العجز المقابل للقدرة[١] وقد استخدم هذا اللفظ على سبيل المجاز ذلك أن الإعجاز فى الحقيقة هو إثبات العجز، فاستعير الإعجاز لإظهاره، ثم اسند مجازا إلى ما هو سبب العجز (وهو الفعل الخارق) وجعل إسما له مجازا مرسلا علاقته السببية.

وبمعنى أوضح: إن المعجزة حقيقة لاتثبت عجز المعارضين وإنما تظهره فقط وأما السبب الحقيقى فى إثبات العجز فهو الله سبحانه وتعالى فاطلاق الإعجاز على المعجزة من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب والتاء للمبالغة أو للتأنيث[٢] وعرفها صاحب الطحاوية لغة بأنها كل خارق للعادة[٣].

علما بأن ابن تيمية لا يستحسن استخدام لفظ المعجزات وإنما يفضل استخدام لفظ «دلائل النبوة» أو «أعلام النبوة» ويقول إن هذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ويستأنس لذلك بأن لفظ المعجزات لم يرد فى الكتاب والسنة بل ورد بدلا منه لفظ البرهان، والآية كما جاء فى قوله تعالى «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» وقوله عن معجزه اليد والعصى «فذلك برهانان من ربك» وقوله «وإن يرو آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر»[٤].

---

(١) ذهب أبو هاشم إلى أن المقابلة هنا من مقابلة العدم بالملكة كالبصر والعمى، بينما ذهب الأشعرى إلى أنها من تقابل التضاد والإعجاز لغة: نسبة العجز إلى الغير من عجز عنه أى ضعف والمعجزه هى اعجاز الخصم عن التحدى ويقال أعجز الرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شىء «القاموس المحيط» جـ ٢ ص ١٨١ والمصباح المنير جـ ٢ صـ ٥٢٨ وقال تعالى «وماهم بمعجزين» «وما انتم بمعجزين فى الأرض ولا السماء».

(٢) العقائد النسفية صـ ٤٥٩.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٢٣٥.

(٤) راجع صـ ٦٧ جـ ٤ من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

وقد ورد هذا الرأى معزوا إلى الإمام أحمد ابن حنبل[١].

المفهوم الإصطلاحى:

وضع العلماء للمعجزة تعريفات كثيرة منها:

١ - تعريف أبى الحسن الأشعرى الذى يقول فيه: المعجزة هى فعل من الله أو قائم مقام الفعل يقصد بمثله التصديق.

٢ - وعرفها الإمام الرازى بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة.

٣ - وعرفها بعض المعتزلة بأنها الفعل الذى يدل على صدق المدعى للنبوة[٢].

وسوف نختار تعريف الإمام الرازى لنشرح فى ضوئه مفهوم المعجزة شرحاً شاملا مستوعبا كل المحترزات وفى أثناء ذلك نقارن بين التعريفات المختلفة.

شرح تعريف الرازى:

عرفها بأنها «أمر» ولم يقل فعل كما قال المعتزلة، لأن المعجزة لها صور كثيرة فهى أحيانا تكون فعلاً كحنين الجذع إلى رسول الله وانشقاق القمر ونطق الشاه، وأحياناً تكون قولا كتلاوة الرسول للقرآن حين أنزله عليه جبريل، وكإخباره بالمغيبات.

وأحيانا لا تكون قولا ولا فعلا بل تكون تركا وكفا كعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، أو أن يقول النبى معجزتى أن أضع يدى على رأسى وأنتم لا تستطيعون ذلك، فيفعل، ويعجز القوم ومن هذا النوع التحدى بالعصمة من إذاية الخلق. فبعد نزول قول الله تعالى «والله يعصمك من الناس[٣]» صرف الرسول

---

(١) قارن صـ ٢٧ من المعجزة وكرامات الأولياء لابن تيمية تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

(٢) القاضى عبد الجبار - الأصول الخمسة صـ ٥٦٧ وما بعدها.

(٣) المائدة: ٦٧.

حراسه وقال عصمنى ربى ولم يستطع أحد أن ينال منه على الرغم من المحاولات المتعددة فكل هذه صور للكف أو الترك.

فكلمة (أمر) أشمل وأعم من كلمة (فعل) التى وردت فى تعريف المعتزلة إذ لاتشمل كلمة فعل كل هذه الصور إلا بنوع من التكلف، فقد جعلوا معجزة ترك الإحراق لإبراهيم هى جعل النار أو كونها بردا وسلاما أو إبقاء الجسم على ما كان عليه. وهذا تمحل وتكلف لا داعى له.

وأجاب ابن دهاق برد المعجز فى الترك إلى العلم بذلك والإخبار به على وفق الواقع(١).

وواضح أيضاً أن كلمة أمر أفضل من قول الأشعرى (فعل من الله أو قائم مقام الفعل) وإن كانت نسبة الفعل إلى الله عند الأشعرى تضفى على التعريف مهابة واحساسا برد الأشياء إلى خالقها ومسببها وهو الله تعالى.

وقوله (خارق للعادة) أى خارج على ما اعتاده الناس ومخالف لنواميس الكون وقوانينه وسننه التى ألفوها.

وخرج بذلك الأمور المعتادة كأن يقول معجزتى أن تشرق الشمس من المشرق وتغرب من المغرب.

هذا وقد قسم ابن تيمية الخوارق إلى نوعين:

١ - ما يقع على أيدى الأنبياء والرسل لإثبات رسالتهم وهو المعجزات.

٢ - ما يقع على أيدى غير الرسل، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام:

(أ) محمود فى الدين وهو الكرامات.

(ب) مذموم فى الدين وهو ما يأتى على وجه منهى عنه فى الدين كأعمال السحرة والذين يستخدمون الجان.

---

(١) شرح السنوسية الكبرى صـ ٤٤٢.

(جـ) مباح أى لا محمود ولا مذموم، فإن كان فيه منفعة للإنسان كان نعمة وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التى لا منفعة فيها[(١)].

وقوله «مقرون بالتحدى» أى أن ظهور الأمر الخارق للعادة لابد أن يكون فى الوقت الذى يدعى فيه النبى أنه مرسل من عند الله تعالى، لأن الخارق شهادة من الله بصدق المدعى والشهادة لا تتأخر عن الدعوة بل تعقبها مباشرة، وخرج عن ذلك أيضاً بعض الخوارق الاتفاقية فقد انكسفت الشمس ساعة دفن ابراهيم (ابن رسول الله ﷺ) وتصايح المسلمون حول القبر: إنها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد.

ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين يتصيدون المصادفات والاتفاقيات لنسبة الخوارق إليهم، لما كلفته هذه الخارقة إلا أن يؤيد ما ادعاه بعض المسلمين، أو كان على الأقل يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه، ففاجىء الحاضرين بهذه المقالة الفاصلة «إن الشمس والقمر آيتان لله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله».

وهكذا تأتى الخوارق طائعة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيصدقها الناس ويرفضها محمدا صلى الله عليه وسلم[(٢)].

فأية عظمة أكبر من أن ينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس بالفجيعة والهول، ولقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحدث موقف الإجلال والاعظام لمحمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من حقدهم على الرسالة الإسلامية لم يستطيعوا، كتم أعجابهم وإكبارهم، وإعلان عرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدق المواقف إلا الصدق والحق[(٣)].

---

(١) ابن تيمية - المعجزة وكرامات الأولياء صـ ٤٠.

(٢) قارن صـ ٦٥ من المجلد الخامس من المجموعة الكاملة للعقاد.

(٣) د. محمد حسين هيكل «حياة محمد» ص ٤٦٤.

وقد جرى خلاف بين العلماء حول جواز تأخير ظهور المعجزة إلى مابعد وفاة الرسول أم لا[١] وهو خلاف لاطائل تحته، بل توهم لصور لم تحدث ولن تحدث مما يعفينا من ذكر هذا الخلاف.

وخرج بقوله مقرون بالتحدى أنواع الخوارق التى لا تقترن بدعوى النبوة والتحدى مثل:

١ - الكرامة :

وهى أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى ودعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة نبى كلف بشرعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم[٢].

وعرفها سعد الدين التفتازاني بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ليس بنبى فى الحال ولا فى المآل.

والفرق بينها وبين المعجزة من وجوه:

١ - أن الكرامة لا تكون مقرونة بالتحدى خلافا للمعجزة.

٢ - أن الكرامة لا تكون عن اختيار وقصد من الولى.

٣ - أن الكرامة لا تكون على دعوى الولاية بينما المعجزة على دعوى النبوة.

٤ - أن كل ما وقع معجزة لنبى لا يقع كرامة لولى.

٥ - وذكر الامام ابن حزم فرقا آخر يتعلق بطبيعة كل من الكرامة والمعجزة وهو أن المعجزة قد تصل إلى حد قلب الأعيان على الحقيقة واختراع الأجسام وإحالة الطبائع، بينما لا تصل الكرامة إلى هذا الحد فلا يمكن ظهور مثل هذه الأمور على أيدى الصالحين ولا لأحد غير الأنبياء.

---

(١) شرح السنوسية الكبرى صـ ٤٥٠.

(٢) محمد فريد وجدى - الإسلام فى عصر العلم صـ ٥٩١.

وقد خالف فى هذا الأمر «أبو بكر الباقلانى» حيث جوز ظهور مثل هذه الأمور على أيدى الصالحين وعلى سبيل الكرامة وعلى أيدى الفاسدين على سبيل السحر ولم يفرق بينهما إلا بقيد المقارنة للتحدى فقط.

ونبه ابن حزم على خطأ هذا الرأى وأشار إلى أن الرأى الأول هو رأى أهل الحق[١].

كما يرى ابن تيمية أن كرامات الأولياء تكون من جنس معجزات الأنبياء بلا فرق ويستشهد على هذا بأن النار قد صارت بردا وسلاما على أبى مسلم كما صارت على ابراهيم.

وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى فى بعض المواطن للنبى ﷺ، ويبرر ابن تيمية لهذا الرأى بأن هذه الكرامات مؤكدة لآيات الأنبياء، وهى من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، إلا أنه يعود فينقض ما قاله، بقوله «ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين»[٢].

حكم الكرامة:

الكرامة ثابتة بالكتاب والسنة خلافا لما ذهب إليه المعتزلة من إنكارها.

ذلك أن المسلم إذا صح إسلامه علما وعملا وارتقى من الإيمان إلى الإحسان، قد تخرق له العادة وتظهر على يديه الكرامة عند الحاجة قال تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»[٣].

وقال «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» وقال «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»[٤].

---

(١) الفصل جـ ٥ وما بعدها تحقيق د: عبد الرحمن عمير وزميله.

(٢) راجع كتاب النبوات صـ ٤ وما بعدها.

(٣) الطلاق – ٣.

(٤) يونس – ٦٢ – ٦٤.

وقال رسول الله ﷺ «أتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

إذا فالكرامة لا تكون إلا بمتابعة كل ما ورد في الكتاب والسنة أو كما قالوا إنما الكرامة لزوم الاستقامة، وقال أبو على الجوزجاني «كن طالبا للاستقامة لا طالبا للكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة»[(١)].

غير أن عدم ظهور الخوارق على يد الملتزمين بالشرع ليس معناه أنهم أقل رتبة عند الله.

يقول ابن تيمية: «إعلم أن عدم الخوارق علما وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة[(٢)].

ويقول صاحب العقيدة الطحاوية: «وأما ما يبتلى الله به عباده من السر بخرق العادة أو بغيرها، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه وشقى بها قوم إذا عصوه»[(٣)].

ومعنى هذا أنه لا تلازم بين الكرامة وبين الولاية، فقد يكون وليا وليس له كرامه، ولا يقع على يديه أى خارق من خوارق العادات، كما أن الله قد يجرى الخوارق على يد شخص ليس وليا، بل ليس مطيعاً لله كما يحدث على يد السحرة والدجالين.

وأما إنكار المعتزلة للكرامات، فلا عبرة به، ولا دليل عليه، فمذهب أهل السنة والجماعة هو الإيمان والتصديق الجازم بكرامات الأولياء.

---

(١) شرح الطحاوية صـ ٣٣٦.

(٢) ابن تيمية – المعجزة وكرامات الأولياء ص ٤٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٧.

وقد دل على ذلك القرآن، فقد نسب كثيراً من الخوارق إلى عباد صالحين ومنهم: قصة أصحاب الكهف، وقصة مريم، والذى عنده علم من الكتاب مع سليمان فى سورة النمل.

كما دل على ذلك أيضاً وقائع السنة النبوية، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان على المنبر فنادى بأعلى صوته ياسارية الجبل(١) – وسمعه سارية وهو بنهاوند فتحصن بالجبل من الأعداء، وكما ورد فى قصة العلاء بن الحضرمى وهو من الصحابة، فإنه لما ذهب إلى البحرين سلكوا مفازه وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعظيم اسقنا، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركب.

ثم انطلقوا إلى خليج من البحر ما خيض من قبل ذلك اليوم. فلم يجدوا سفنا فصلى ركعتين، ثم قال ياحليم ياعليم ياعلى ياعظيم أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة – رضى الله عنه – فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولاحافر، وكان الجيش أربعة آلاف.

وكذلك حادثة أم أيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش سمعت صوتا من فوقها فرفعت رأسها، فإذا هى بدلو من ماء فشربت منه إلى غير ذلك مما يطول ذكره(٢).

ولكن ما الفائدة من وقوع الكرامات :

والجواب:

أولاً : أنها تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى وشمول علمه. وأن لله سننا وأسبابا لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها عقولهم.

ثانياً : أنها تدل على صدق الرسول الذى يتابعه هذا الولى، لأن الكرامة لم تحصل له إلا بسبب متابعته لتعاليم الرسول، ولذلك قالوا إن وقوع الكرامات

---

(١) المقاصد جـ ٢ صـ ١٥٠.

(٢) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الوسطية ص ٣١٥ – عبد العزيز المحمد السلمان.

للأولياء فى الحقيقة معجزات للأنبياء، لأنها لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذى نالوا بسببه خيرا كثيراً من جملته الكرامات.

ثالثاً : قيل إنها من المبشرات بالخير لمن ظهرت على يديه[١].

٢ - السحر : وهو أمر خارق للعادة يظهر على يد نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة يجرى فيها التعلم. والفرق بينه وبين المعجزة والكرامة من وجوه، منها:

أولاً : أن السحر من مقدورات البشر ومن أفعالهم المعتادة - خلافا للكرامة والمعجزة فهى خارجة عن مقدور البشر، لأن فى المعجزات قلبا للحقائق والأجناس. خلافا للسحر فهو مجرد تخييل.

- إن السحر لا يستخدمه إلا الفاسقون والكفرة والأشرار، بينما المعجزة والكرامة لا تكون إلا على يد النبى أو الولى.

قال تعالى عن السحرة: «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان. ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون»[٢].

وقال تعالى: «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون»[٣].

---

(١) ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٤ ص ١٧٠ القاهرة. مطبعة المدنى وقارن صـ ٤٤٧ من شرح السنوسيه.

(٢) البقرة الآية ١٠٢.

(٣) الشعراء الآية (٢٢١ - ٢٢٣).

بينما يقول القرآن عن الأنبياء الذين تظهر المعجزة على يديهم: «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس»[١]، «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٢].

– السحر يأتى بالتعليم والاكتساب[٣] بينما المعجزة والكرامة هبات ومنح من الله تعالى.

– السحر يعارض بسحر مثله، بينما المعجزات لا تعارض. والسحر ثابت بالكتاب والسنة فسورة القلم نزلت رقى لرسول الله ﷺ من سحر لبيد بن عاصم له حتى مرض النبى ثلاث ليال، كما ورد إثبات السحر فى سورة البقرة «ويعلمون الناس السحر».

كذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ كنوع من أكبر الكبائر. وقد يقول قائل إن السحر كان معجزة لرسول من رسل الله، هو موسى – عليه السلام – فكيف يخرج من أنواع المعجزات، وكيف يوصف بما وصف من صفات؟

والجواب أن ما جاء به موسى لم يكن سحرا وإنما كان معجزة إلهية، ولم يكن ما صنعه مجرد تخيل أو سحر لأعين الناظرين – كما صنع سحرة فرعون، وإنما كان معجزة حقيقية خارجة عن نطاق البشر.

ولذلك كان أول من آمن بموسى هم السحرة، لأنهم أعرف الناس بالسحر ومقدماته ونتائجه. وقد أيقنوا أن ما جاء به موسى معجزة حقيقية، جعلتهم يسجدون لله خالق هذه المعجزة على الرغم من تهديد فرعون ووعيده لهم بالصلب وتقطيع الأيدى والأرجل إلا أنهم: قالوا «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى»[٤].

---

(١) الحج ٧٥.
(٢) الأنعام ١٢٤.
(٣) سعيد حوى – الرسول ص ٣٤٠.
(٤) طه (٧٢ – ٧٣).

ومن هنا فما وقع على يد موسى لم يكن سحرا وإنما كان معجزة حقيقية خارجة عن إمكانيات وقدرات البشر المعاصرين له، لأن العصا إنقلبت إلى حية انقلابا حقيقيا واستحالة طبيعتها من الجمادية إلى الحيوانية، وذلك من اختصاص الله سبحانه وتعالى، ولا يظهره إلا على يد الأنبياء تصديقا لهم.

أما السحر فليس فيه إحالة طبائع وذلك لقول الله تعالى: «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى» حيث أخبر تعالى أن عمل السحرة كان مجرد تخييل لا حقيقة له. وقال تعالى «إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى».

فأخبر تعالى – أنه كيد لا حقيقة له، ولو كان الساحر قادراً على قلب حقائق الأشياء لالتبس بالنبى»(١).

٣ – الإرهاص : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله قبل بعثة النبى تأسيسا لدعواه وذلك مثل إظلال الغمام لرسول الله ﷺ.

٤ – المعونة : وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مستور الحال من العوام تخليصا له من محنة أو ضائقة.

٥ – الإهانة : وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تكذيباً له فى دعواه، كما وقع لمسيلمة الكذاب حين تفل فى عين أعور لتبرأ فعميت السليمة.

٦ – الاستدراج : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الألوهية استدراجا وخديعه له ومكرا به(٢).

ويكون هذا الخارق على حسب طلبه يستدرجة الله به، ليزداد عتوا وظلما كما ورد فى شأن المسيخ الدجال وظهوره قرب قيام الساعة مدعيا الألوهية ومعه أعوان له، ويقول للسماء إمطرى فتمطر ومن أذعن له أدخله جنته التى تكون معه

---

(١) الفصل ص ١٠٣ جـ ٥.

(٢) راجع تفسير الزمخشرى جـ ٤ صـ ١٥٠.

فتطرحه الملائكة في نار جهنم، ومن عصاه أدخله ناره التي معه فتطرحه الملائكة في الجنة(١).

وفرق بين ظهور الخارق على يد مدعي النبوة وظهوره على يد مدعي الألوهية، فهو على وفق مراد الثاني دون الأول، لأن مدعي الألوهية واضح كذبه ودعواه مفضوحة لا يصدقها عقل، فلا يلتبس أمره على العقلاء ذلك أن حاله مكذب لمقاله: فهو يدعي الألوهية وهو أعور والله ليس كذلك، كما إن المسيخ الدجال - كما اخبر الرسول - مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن سواء أكان قارئا أم غير قارىء - كما أن الله تعالى لا يراه أحد إلا يوم القيامه حيث يراه المؤمنون(٢).

ولذلك يظهر الله الخارق على وفق مراده استدراجاً له، أما مدعي النبوة فلايجوز أن يأتي الخارق على وفق مراده حتى لا يلتبس أمره بالنبي فالنبي بشر وهذا بشر يدعي الرسالة، فلو كان الخارق على وفق مراده لربما التبس على الناس أمره ولذلك كذبه الله فورا بظهور الخارق على عكس مراده، وإلا كان الأمر تصديقا للكاذب وهو محال على الله(٣).

هذا وقد اختلف العلماء في جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب وخلافهم لاحاصل له إذ الجميع متفقون على امتناع ذلك في الواقع. وقد دار خلافهم حول تعليل هذا الامتناع من ناحية العقل أو العادة وبما أنهم متفقون على القضية الإساسية فليس هناك ما يدعو لعرض اختلافاتهم ويكفينا ذكر ما اتفقوا عليه فقط وهو جوهر القضية(٤).

ويلحظ أن الأهانة والاستدراج لا يخرجان بقيد المقارنة للتحدي، لأن أصحابهم يدعون النبوة أو الألوهية، وإنما يخرجان بقيد التصديق الذى ورد في

---

(١) راجع صـ ٦٠ وما بعدها جـ ١٨ من صحيح مسلم ط الريان.

(٢) راجع صـ ٢٧١ جـ ٤ من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

(٣) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.

(٤) راجع تفاصيل هذا الخلاف في كتاب المواقف والمقاصد والتمهيد وغيرها من كتب التراث في علم الكلام.

تعريف الأشعرى، إذ الأهانة المقصود منها تكذيب مدعى النبوة والاستدراج المقصود منه خديعة مدعى الألوهية والمكر به لا تصديقه.

٧ – علامات الساعة : فانها أمور خارقة للعادة ولا تكون مقرونة بالتحدى ولذلك زاد بعضهم فى تعريف المعجزة قيدا آخر وهو أن تكون فى زمان التكليف، لأن ما يقع فى الآخرة لا يعد معجزة لكونه زمان نقض العادات.

٨ – غرائب المخترعات : وهى الأمور التى وصل اليها العلم الحديث مثل العقول الالكترونية والرجل الآلى ومخترعات الفضاء وغير ذلك مما يسميه بعضهم بالمعجزات العلمية، والواقع أن هذه التسمية خطأ فالفرق شاسع والبون بعيد بين حقيقة المعجزة وبين ما جد أو يجد فى العالم من عجائب المخترعات، فالمعجزات ليست لها أسباب معروفة حتى تلتمس ويؤتى بمثلها أما هذه المخترعات، فان لها أسبابا معروفة عند أصحابها ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى تعلم أصولها(١).

٩ – كذلك يخرج بهذا القيد خارق آخر وهو (الفراسه) وهى معرفة بواطن الأمور من ظواهرها وهى نوعان: نوع يكون إلهاماً من الله حيث يوقعه الله فى قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس ويفسرون بعض الوقائع التى تخفى على الناس.

وهذا النوع أشار إليه الرسول بقوله «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وهو يدخل تحت الكرامة.

وأما النوع الثانى : فهى فراسة تأتى بالإكتساب والعلم والتجارب وبها تعرف أحوال الناس وصفاتهم وأخلاقهم(٢) مما لا يستطيعه عامة الناس فيظنونه نوعا من الإخبار عن المغيبات فيلتبس عليهم الأمر، مع أن الفراسة تأتى بالدربة والخبرة وتعتمد على الذكاء البشرى خلافا للمغيبات فهى بإفاضة من الله وليس لها مقدمات، ولا تجارب يمكن للذكى أن يستخدمها ليصل إليها كالفراسة.

---

(١) الزرقانى – مناهل العرفان جـ ١ صـ ٦٩.

(٢) راجع لسان الميزان – ابن منظور ٣٧/ ٣٣٧٩.

ومعنى (مقرون بالتحدى) أى بدعوى النبوة أو طلب المعارضة.

وقوله (مع عدم المعارضه) المراد به ألا يظهر مثله ممن ليس بنبى، وأما من نبى آخر فلا امتناع واحترز بهذا القيد عن السحر والشعوذة(١) والكهانة وكل ما يمكن اكتسابه بالتعلم فانه قابل للمعارضة.

نقد تعريف الرازى

اعترض بعض العلماء على تعريف الإمام الرازى بثلاثة اعتراضات:

الأول : إن التعريف غير مانع من دخول غيره فيه لأنه خلا من قيد الظهور على يد النبى ومن جهته، فقد يأتى كاذب ويتخذ معجزة نبى معاصر حجة له، كما أنه خلا من قيد الموافقة للدعوى مع أن هناك خوارق مكذبة كأن يقول معجزتى أن أحى ميتا فيميت حيا، أو أحياه فنطق بأنه كذاب.

والجواب : عن هذا الاعتراض : أن ذكر (التحدى) يتضمن القيدين وهما قيد الظهور على يد المدعى وقيد الموافقة للدعوى.

لأن معنى التحدى : طالب المعارضة فيما جعله مصدقا لدعواه ولا يثبت التصديق له إلا إذا كان هذا الخارق موافقا له، كما أن التحدى مشعر بأن الأمر الخارق واقع على يديه اذ من غير المعقول أن يتحدى بشىء ليس على يديه.

الثانى : أن التعريف غير جامع لأن القوم عدوا من المعجزات ماهو متقدم غير مقرون بالتحدى كإظلال الغمام لرسول الله ﷺ(٢).

والجواب : أن هذا الإعتراض لا يرد أصلا على تعريف الرازى؛ لأن المعجزة مقيدة بالمقارنة بالتحدى وما ذكره المعترض هو صورة من صور الإرهاصات وهى غير المعجزة.

---

(١) الشعوذة هى خفة اليد. بواسطتها يرى الشخص أشياء غريبة على أنها حقيقية وهى ليست كذلك. كما يصنع الحواة والنصابون راجع صـ ١٤٦ من تبسيط العقائد الإسلامية للاستاذ حسن أيوب.

(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٠.

الثالث : أن التعريف غير جامع، لأن المعجزة قد تتأخر عن التحدى، كما إذا قال معجزتي ما يظهر يوم كذا فظهر.

والجواب : إن هذا الاعتراض من وهم المعترض وخياله؛ لأنه لم يحدث فى تاريخ النبوات أن جاء نبى يدعى النبوة ويعد الناس بظهور معجزته بعد حين، ومع ذلك فقد رد بعض علماء الكلام على هذا الوهم فقالوا: إن التأخر إن كان بزمان يسير يعد مثله في العرف مقارنا فلا إشكال. وان كان بزمن طويل فالمعجزة عند من اشترط المقارنة هو ذلك القول المقارن إذ هو من قبيل الإخبار عن المغيبات.

شروط المعجزة :

وضع العلماء للمعجزة شروطا سبعة[١].

الأول : أن تكون المعجزة أثراً من آثار قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى هذا فكل ما يصنعه البشر من غرائب المخترعات أو يظهر على أيدى بعضهم من الشعوذات لا يمكن أن يسمى معجزة مهما بدا غريباً أو عجيباً أمام العقل.

الثانى : ألا يكون هذا الخارق مقدوراً للنبى لأنه لو كان فى نطاق قدرته وإمكاناته، لما كان معجزاً للخلق، لأن النبى إنسان كسائر الناس ولو وقع منه هذا الأمر بمقتضي قدرته البشرية، لوقع من غيره، فمع أن الرسول كان يخبر عن المغيبات التى يوحى إليه بها من الله، إلا أنه كان عاجزاً عن الإتيان بمثلها بمقتضى قدرته البشرية، وهذ ا ما تشير إليه الآيات الكريمة «يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»[٢].

---

(١) راجع شرح البيجورى على جوهرة التوحيد ص ٤٦.

(٢) الأعراف (١٨٧، ١٨٨).

وها هو ذا ﷺ في قصة الإفك يقف صامتاً لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة في حق زوجته، كلمة فصل[١] تقطع ألسنة المنافقين، ولم يقل إلا هذه العبارة «إني لا أعلم عنها إلا خيرا» ومضى شهر بأكمله وهو يسأل ويستشير أصحابه وكل يقول: ما علمنا عليها من سوء. ولكنه لم يزد على قوله لها: «ياعائشة أما أنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله».

فهذا قوله في القضية وهو قول البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام المسلم المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، ولم يفصل في الأمر إلا بعد نزول صدر سورة النور معلناً براءتها ومؤيداً عفتها وشرفها وطهارتها.

هذا هو الذي أخبر عن عشرات المغيبات الماضية والحاضرة والمستقبلة يعجز بقدرته البشرية عن الفصل في خبر يمس شرفه وكرامته حتى يأتيه الخبر من السماء.

ومع أن رسول الله ﷺ قد أتى بكثير من خوارق العادات مثل نبع الماء من بين أصابعه، وصعوده إلى السماء في ليلة الإسراء والمعراج، وغير ذلك، إلا أنه حين طلب منه المشركون بعض المعجزات الحسية ووقفوا إيمانهم عليها، تبرأ من حوله وقوته وقال لهم ما أنا إلا بشر رسول وهذا ما تحكيه الآيات الكريمة «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا»[٢].

وليس هذا شأن محمد وحده بل هكذا سائر الأنبياء، فقد عجزوا بقدرتهم عن كشف حجب الغيب، أو أن يعلموا إلا ما يعلمهم ربهم.

---

(١) مالك بن نبي – الظاهرة القرآنية ص ٢٢٠.

(٢) الإسراء (٩٠ – ٩٣).

فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام تراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له إن ابنك سرق، فيقول لهم في كل مرة «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل»[١] وقد أصاب في المرة الأولى ولكنه في الثانية اتهمهم وهم برءآء.

وهذا موسى عليه السلام نراه يقول للعبد الصالح: (قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً ولا يطيع له أمراً[٢].

إذاً فأنبياء الله ورسله كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل المعجزات التي وقعت على أيديهم، وقد أطلنا الحديث في هذه النقطة وأكثرنا من الشواهد عليها، لأن النصارى – قاتلهم الله – قد أضلتهم المعجزات التي ظهرت على يد عيسى مثل إحياء الموتى، وشفاء المرضى، والإخبار عن المغيبات، فظنوا أن هذه الأمور قد وقعت من عيسى بمقتضى قدرته الخاصة فأثبتوا له الألوهية. ولو علموا حقيقة المعجزات وأن الأنبياء لايد لهم فيها ولادخل لقدرتهم عليها، وإنما أتوا بها بقوة الله الذي أرسلهم، لما وصلوا إلى ما صلوا إليه من الضلال، والغريب في الأمر أن هناك نصوصاً في الإنجيل تؤكد على أن عيسى لم يفعل هذه الخوارق بقدرته بل بقدرة الله الذي أرسله فقد جاء في إنجيل متى «قال للمفلوج قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك فقام ومضى إلى بيته فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطاناً مثل هذا»[٣].

والذي ينبغي أن يلتفت إليه النصارى في هذا النص هو أن الجماهير التي شاهدت الواقعة لم تمجد عيسى، وإنما مجدت الله الذي أعطى عيسى هذا السلطان وجاء في إنجيل لوقا أيضاً «يسوع المسيح رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون».

---

(١) يوسف الآية ١٨ ، ٨٣.

(٢) راجع ص ٥٤ من النبأ العظيم الدكتور/ محمد عبد الله دراز.

(٣) إنجيل متى ص ٩ العدد ٦ – ٨.

ومعنى هذا النص أن الله قد برهن على نبوة عيسى بهذه الخوارق التى أظهرها على يديه، ومع كل ذلك نجد النصارى يدعون ألوهية عيسى ويستدلون على ذلك بإحياء الموتى وأخباره بالمغيبات[1]. وهذا كما قلنا سابقا هو سر وقفتنا المتأنية عند هذا الشرط.

الثالث : أن تكون خارقة للعادة - وهى ما اعتاده الناس وألفوه من السنن الكونية - وقوانين الفطرة التى أودعها الله فى الكون. مثل إحياء الميت أو نطق الجماد أو الإتيان بكلام من مثل ما يتكلمه البشر ومع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله، أما الأمور العادية فلاتصلح لذلك.

الرابع : أن يتعذر معارضتها وبذلك يخرج السحر وغرائب المخترعات اذ يمكن الإتيان بمثلها.

الخامس : أن يقع الخارق على يد النبى، مع المقارنة للدعوى.

السادس : أن تكون المعجزة موافقة لطلب الرسول فلو قال آية صدقى أن تمطر السماء فانفجرت الأرض بالماء، لا يعد ذلك دليلا على صدقه اذ لابد من المطابقة بين ما يدعيه وبين ما يظهر على يديه.

السابع :ألا تكون المعجزة مكذبة له، فإذا قال معجزتى نطق هذا الفرس فنطق بأنه كذاب لم يكن هذا الأمر معجزا ولامؤيد لصدقه فى دعواه[2].

وفرق الإمام الرازى بين تكذيب الجماد والحيوان وتكذيب الإنسان، فلو أنه قال معجزتى أن أحي هذا الميت فأحياه ولكنه نطق بأنه كذاب لا يكون ذلك قادحا فى معجزته، لأن التحدى وقع بمجرد الأحياء وقد حصل أما تكذيبه فلا يعتد به لأن الإنسان مختار فى التصديق أو التكذيب، أما لو قال معجزتى نطق الجماد فنطق وكذبه لكان قادحا فى معجزته لأن النطق داخل فى المعجزة.

---

(١) راجع كتابنا «مشكلات العقيدة النصرانية» ص ٨١ وما بعدها ص ٩١.

(٢) المواقف جـ ٨.

– وفرق القاضى بين من طالت حياته فلا يعتد بتكذيبه وبين من كذبه ومات فيعتد بتكذيبه فكأنه أحياه الله لتكذيبه(١).

– وذهب ابن دهاق فى شرح الإرشاد إلى أن تكذيب اليد والجماد ونحوها غير قادح، لأن التحدى إنما وقع بمجرد النطق وقد حدث أما التصديق فلم يقع التحدى به حتى يضر تخلفه كما لو قال أيتى أن يصدقنى هذا الضب فكذبه فيكون قادحا لا محاله(٢).

– ومنهم من أرجع المسألة إلى بيان وجه الدلالة، فقد جرت العادة بخلق العلم بالصدق عقب ظهور المعجزات، فإن حصل العلم الضرورى بعد أى فعل من هذه الأفعال فهو معجز وإلا فلا(٣).

وهذا ما سوف يزداد وضوحا من خلال بياننا لوجه دلالة المعجزات على صدق الرسول فى الصفحات التالية.

---

(١) شرح السنوسية صـ ٤٥٣.
(٢) السابق صـ ٤٥٤.
(٣) الارشاد صـ ٣١٥.

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول:

لم يختلف أحد في دلالة المعجزات على صدق الرسل وإنما وقع اختلافهم في وجه هذه الدلالة.

- فمنهم من ذهب إلى أن دلالتها عقلية، فإن ظهور الأمر الخارق على وفق الدعوى مع العجز عن المعارضة يدل عقلا على إرادة الله تصديق من ظهرت على يديه، وهذا رأى المعتزلة ومن تبعهم، وكلامهم قائم على أساس أن علاقة السبب بالمسبب ضرورية لا تتخلف. ولا عبرة بكلامهم، لأن الأمور الخارقة قد توجد دون أن تدل على الصدق كالكرامات وأحوال الآخرة، فلو كان إرتباط السبب بالمسبب ضرورياً كما يدعى هؤلاء لدلت هذه الخوارق على الصدق وهو لا يحدث[1].

فإغراق الله لفرعون وقومه في البحر كان آية بينة لموسى، ومع ذلك قد يغرق الله أمما كثيرة. فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى.

- ومنهم من ذهب إلى أن وجه دلالتها (الوضع) كدلالة الألفاظ على معانيها. فكلمة معجزة وضعت لكى تدل على صدق النبى. إذا فوجه دلالتها الوضع، وكأن الله يقول من خلالها رسولى صادق فصدقوه.

أما أهل السنة، فقد ذهبوا إلى أن وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول هو العادة، فالمعجزة تدل دلالة عادية على صدق الرسول، فهى إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقب ظهور المعجزة، وهذا ما عبر عنه التفتازانى بقوله: «إن المعجزة عند التحقيق تكون بمنزلة صريح التصديق لما جرت به العادة من أن الله يخلق عقبها العلم الضرورى بصدقه».

- وهذا الرأى قائم على أساس أن علاقة السبب بالمسبب عادية لا ضرورية فالله هو خالق الأسباب والمسببات وقادر على إيجاد السبب دون وجود المسبب.

---

(١) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣١.

وهذا ما عبر عنه إمام الحرمين بقوله: «إن المعجزة لا تدل على صدق النبى حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلى يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر فى العقل وقوعه غير دال عليه، وليس كذلك سبيل المعجزات»(١).

وليست كذلك المعجزة أو الأمر الخارق للعادة، فانقلاب العصا حية لو وقع بداية من فعل الله من غير دعوى نبى، لا يكون دالا على صدق أحد، إذا فهناك فرق بين المعجزات وبين الدلالات العقلية، إذ دلالات المعجزات قائمة على أساس ما اعتاده الناس من أن الله يخلق علما ضرورياً لمن شاهدها بصدق النبى الذى ظهرت على يديه هذه المعجزة.

وعلى هذا فرأى المعتزلة لا عبرة به وكذلك رأى القائلين بالوضع إذ هو صورة أخرى من صور الدلالة العقلية(٢)، فلو أننا قلنا إن المعجزة موضوعة للصدق للزم من ذلك ألا يتخلف الموضوع عما وضع له، لأن الموضوع يدل عقلا على ما وضع له بعد ملاحظة الوضع، وبذلك يرد عليه ما ورد على أصحاب الدلالة العقلية.

حكم المعجزات:

لاشك أن المعجزات من الأمور الممكنة الوقوع لقدرة الله سبحانه وتعالى، وهذا الإمكان ضرورى لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، لأنها وقعت بالفعل وشاهدها من شاهدوا الأنبياء وتواتر نقلها عبر التاريخ إلينا، والمتواترات فرع من الضروريات يجب التسليم بصدقها بمجرد سماعها.

ومع ذلك فقد شكك قوم فى إمكان المعجزات، وهم كما وصفهم الإمام الباقلانى «بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمه وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الإستدلال بالمعجزات وحائد عن النظر فى الدلالات، وناقص فى باب البحث، ومختل الآلة فى وجه الفحص ومستهين بأمر الأديان وغاو تحت حبالة الشيطان، ومخذول بخذلان الرحمن»(٣).

---

(١) الارشاد صـ ٣٢٤ وقارن صـ ٤٦٠ من شرح السنوسيه.

(٢) قارن تفسير المنار جـ ١ صـ ٢١٧.

(٣) إعجاز القرآن صـ ٢٠٤.

وقد أورد هؤلاء الجهلة والجاحدون بعض الشبه التى تشكك فى وقوع المعجزات، منها الشبه القديمة، ومنها الحديثة التى يدعيها اليوم دعاة العلم التجريبى وسوف نعرض لما يستحق الرد من هذه الشبه ثم نناقشه فيما يأتى:

شبه القدماء:

١ - فقد ذهب بعضهم إلى استحالة المعجزات واحتج بشبهة مؤداها: أن تجويز خوارق العادات سفسطه، إذ لو جازت، لجاز أن ينقلب الجبل ذهبا والبحر دهنا، وينقلب المدعي للنبوة إنساناً آخر إلى غير ذلك من المحالات.

والجواب عن هذه الشبهة هو: «أن المراد بخوارق العادات أمور ممكنة فى نفسها ولكنها ممتنعة فى العادة بمعنى أنه لم تجر العادة بوقوعها إلا تصديقا لرسول أو نبى وبمعنى آخر فالمعجزات ليست من نوع المستحيل وقوعه كالجمع بين المتناقضين مثلاً، بل هى من النوع الذى يقول العقل بإمكان وقوعه، ولا يمكن لعاقل أن ينكر هذا الإمكان فهو ليس أكثر من خلق السموات والأرض وإبداع صنعها وإتقانه، فماذا تساوى معجزة انقلاب العصا حية أمام إبداع السموات والأرض؟ ففرق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوق العقل، فما هو ضد العقل يلغيه العقل ويعطله مثل المستحيلات السابقة، وأما ما هو فوق العقل فلا يستطيع العقل أن يحكم باستحالته وإلا كان حكما بلا دليل، فما بالنا إذ أيده الواقع أفلا يليق بالعقل المنصف أن يحكم بإمكانه[1]؟

إذاً فإمكان المعجزات أمر يجب التسليم به ولا يصح لعاقل أن ينكره خصوصاً إذا علمنا أن خرق العادات إعجازاً لنبى أو كرامة لولى أصبح عادة مستمرة فى كل عصر، فكيف يصح قول من يقول باستحالتها؟.

٢ - وذهب بعضهم إلى أن المعجزات على تقدير ثبوتها فإنها لا تثبت إلا لمن شاهدها فقط ولا تثبت على الغائبين لأن أقوى طرق نقلها التواتر وهو لا يفيد اليقين وقد أورد هؤلاء عدداً من الشبه[2] على إفادة التواتر لليقين وهى لا

---

(١) راجع صـ ٣٦٧ من المجموعة الكاملة للعقاد المجلد الخامس.
(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣١.

تستحق الذكر، لأنها مجرد مغالطات ذلك أن المتواترات هى أحد أقسام الضروريات، والضروريات بدهية لا تقبل المناقشة ولا يجادل فيها إلا مختل العقل، أو جاهل بطرق الإستدلال، فإجماع أهل الأديان على أنه قد كانت معجزات. يوجب التسليم بها لتواتر الخبر وإلا لما صح من أحداث التاريخ شيء ولما سلمنا بوجود أمثال أفلاطون وأرسطو وأرشميدس وغيرهم من الذين تواترت إلينا أخبار وجودهم.

٣ – ومنهم من سلم بوقوع الخوارق لكنه عارض فى وجه دلالتها على صدق الرسول، وأوردوا بعض الشبه الساذجة ومنها إحتمال ألا يكون ذلك الخارق من الله، أو إحتمال ألا يكون خارقا للعادة بل إبتداء عادة أرادها الله سبحانه وتعالى، أو إحتمال أن يكون هذا الأمر مما يعارض إلا أنه لم يعارض[1].

والجواب عن هذه الاحتمالات وغيرها مما يمكن للعقل أن يفترضه هو: أن هذه الافتراضات الساذجة، لا تنافى العلم الضرورى الذى يقع عقب ظهور المعجزة وإلا لما كان هناك يقين أصلا، والدليل على ذلك أن الناس صدقوا بالرسل وآمنوا بهم عقب إظهار الله للمعجزات على أيديهم من غير التفات إلى هذه الإحتمالات، كما أن الذين أوردوا هذه الإحتمالات لم يفهموا معنى المعجزة فقد نص العلماء على أنها – أولا – فعل من الله منسوب إليه لا إلى غيره، لأن غيره يعجز عن الإتيان بمثلها – وعلى أنها أمر خارق للعادة، وليس فيه أى إحتمال لأن يكون بداية عادة – وعلى أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، إذن فالاحتمالات التى أوردها هؤلاء غير واردة على المعجزة.

شبه المحدثين :

شكك بعض مدعى العلم التجريبى المحدثين فى صحة المعجزات وعرضوا عدداً من الشبه منها:

---

(١) السابق ونفس الموضع.

١ – أن العلم الحديث أثبت استحالة المعجزات لأنها خرق للسنن الكونية وخرق السنن الكونية مستحيل طبقا لقانون الحتمية، وبناء عليه حاولوا أن يفسروا بعض المعجزات تفسيراً طبيعياً بحيث تكون أموراً عادية متسقة مع قوانين الحتمية والسببية، فقالوا إن طوفان نوح كان ظاهرة طبيعية ناتجة من فيضان أو أمطار غزيرة، وفسروا فلق البحر لموسى بظاهرة المد والجذر. وقالوا بأن إهلاك بعض الأمم المكذبة كان بصواعق تنزل من السماء(١).

٢ – أن المعجزات قد مرت وانتهت ولا يمكن إخضاعها للبحث العلمي للتأكد من صحتها(٢).

المناقشة:

ويمكن الرد على هؤلاء الجاحدين بما يأتي:

أولاً – أن العلم الحديث لم يثبت إستحالة المعجزات كما تدعون وإنما الذى أثبته العلم إستحالة خرق أحد من البشر مهما كان علمه لشيء من سنن الكون ونواميسه، ومعنى هذا أن العلم يتفق معنا فى أن المعجزة لا تخضع لسلطان البشر ولا يستطيع أى إنسان أن يأتى بمثلها، فابتلاع العصى لعصى سحرة موسى وحبائلهم، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى، وإنشقاق القمر هذا وأمثاله مما يعرف العلم أنه لا يقدر عليه البشر ومن هنا لابد من التسليم بأنه من عند خالق البشر.

والشرط المميز للمعجزة عندنا أن تكون من عند الله لا مما يقدر عليه البشر وإذاً فلا تعارض بين ما قاله العلم وما قلناه عن إمكانات المعجزات ووقوعها.

كما أن المعجزات فى نظرنا ليست خرقا لقانون السببية ولا هدما له، ذلك أن الإيمان بالمعجزات فى الإسلام نعده تقديراً لموقف عقلى يستوجبه منطق الإيمان بوجود إله خالق للكون ومهيمن عليه ومتصرف فيه ومقدر لسننه ونظامه، فما دمنا

---

(١) كمال بنيامين – العلم والمنطق والإيمان صـ ١١٢.

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ١٢٨ وما بعدها. وقارن صـ ١٠١ من كتاب «معجزات قلب القرآن» هاشم محمد سعيد دفتر دار – دار الشروق جده سنة ١٩٨١.

مؤمنين بأن الله هو الخالق للكون والمسير له وفق نظام اختاره له، فهو قادر على أن يستبدل بهذا النظام نظاماً ما آخر أو أن يخرقه إذا شاء[١].

وإذاً فنحن لا نقول إن المعجزات قد حدثت بدون سبب حتى نخرق قانون السببية الذى يقوم عليه العلم، وإنما نقول إنها قد حدثت بسبب ولحكمة من الله سبحانه وتعالى. فالفرق بيننا وبينهم، أنهم يقفون عند حدود الأسباب والمسببات الظاهرة، بينما نترقى نحن حتى نصل إلى مسبب الأسباب وهو الله.

ثم إن قانون الحتمية الذى يحتجون به دائماً، لم يعد له قيمة اليوم على ضوء النظريات العلمية المعاصرة وخصوصاً نظرية النسبية التى قلبت مفاهيم العلم الحديث رأسا على عقب وأقرت بوجود اللامحسوس فى الوجود حين حولت المادة إلى طاقة غير مرئية إلا بآثارها ولم تضع أى إعتبار لحتمية نيوتن ولانظرياته[٢].

كذلك فإن أحدث النظريات الرياضية وهى نظرية الإحتمالات[٣] (والتى أشار إليها الإمام الغزالى من خلال فكرته عن العلاقة بين السبب والمسبب) لا تضع أى اعتبار لقانون الحتمية الذى نادى به نيوتن. وإذا كانوا يدعون بإمكان تفسير المعجزات المادية تفسيراً طبيعياً فإنهم لا يستطيعون ذلك أبدا مع المعجزة العقلية العلمية الأبدية الخالدة وهى القرآن الكريم.

ثانيا – أن العلم الحديث ليس من مهمته أن يفصل فى مثل هذه الأمور لأنها ليست من مجاله ولا موضوعه، لأن النبوة أمر روحانى، واذا كان العلم التجريبى قد عجز عن الوصول إلى كل سنن الفطرة المتعلقة بالمادة التى هى موضوع علومه، فهل يليق به أن يفصل فى السنن المتعلقة بعالم الروح.

---

(١) د. محمد المبارك – الإسلام والفكر العلمى صـ ١٢٠.

(٢) راجع كتاب إينيشتاين والنسبية صـ ٨٢ وما بعدها د. محمد عبد الرحمن مرحبا، بيروت سنة ١٩٧٤.

(٣) راجع شواهد العلم فى هدى القرآن – صـ ٦٣ الأستاذ محمد سعدى المقدم.

والخلاصة أن المعجزات ظواهر خارجة عن جنس ما يدرسه العلم التجريبى وليس من حقه أن ينكرها أو يدعى استحالتها، بل كان من الأولى أن يكون العلماء التجريبيون أول من يؤمن بالمعجزات، لأنهم وهم بشر محدود العلم والقدرة، استطاعوا عن طريق العلم الذى علمهم الله أياه أن يتصرفوا فى الكون، ويأتوا بالأعاجيب التى ما كان من الممكن أن يصدقها أهل العصور القديمة لو أخبروا بها، أم أنهم يظنون أنهم أكثر قدرة وعلماً من الله الذى أمدهم بالقدرة والعلم؟.

ثالثاً : أما قولهم إن المعجزات قد مرت ولا يمكن دراستها للتأكد من صحتها فهذا الكلام قد يصدق على معجزات الأنبياء السابقين فقد مرت وانتهت ولم يشهدها إلا أهل عصرها، كما أن الكتب التى أخبرت بها تعرضت لتحريف ولتغيير ولم يثبت أنها نفس الكتب التى جاء بها أنبياؤهم[1] ولكن لا يمكن أن يصدق على معجزة رسول الله ﷺ الكبرى وهى القرآن الكريم، فلقد ذهبت المعجزات كلها وبقى القرآن وتغيرت الكتب السابقة وحرفت ولم يتغير القرآن ولم يحرف، بل بقى كما هو وكما نزل على سيدنا محمد ﷺ يتحدى البشرية كلها بإعجازه. فمن يريد أن يفحصه من العلماء التجريبيين بعقلية علمية فليفحص، ولقد فحصه كثير من الملحدين وانتهى الأمر بالتسليم بإعجازه وبالإيمان به.

وهاهى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم تلزم كل عاقل بصدق هذا الكتاب، وهذا ما سوف نفصله فى الباب الثانى إن شاء الله.

• • •

(١) راجع مشكلات العقيدة النصرانية والعقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية للمؤلف.

الباب الثاني

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

وفيه فصول سبعة

الفصل الأول : في بيان إعجاز القرآن الكريم

الفصل الثاني : في الإعجاز البياني

الفصل الثالث : في الإعجاز الغيبي

الفصل الرابع : في الإعجاز القلبي والنفسي

الفصل الخامس : في القول بالصرفه

الفصل السادس : في الإعجاز العلمي

الفصل السابع : في الإعجاز العقدي والتشريعي

الفصل الأول

بيان إعجاز القرآن الكريم

المراد ببيان الإعجاز هو النظر إلى مجموع إعجاز القرآن بنظرة كلية شاملة تعالج المشكلات المتصلة بقضية الإعجاز، أما وجوه الإعجاز التى سنفصلها بعد الانتهاء من هذا الفصل فهى نظرة جزئية تفصيلية إلى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم.

بيان الإعجاز:

جاء رسول الله ﷺ بدعوة التوحيد فى وسط نشأ على عبادة الأصنام وراح رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الدين الجديد ويسفه ماهم عليه من الباطل. إلا أن المشركين تمسكوا بباطلهم، وكذبوا رسول الله ﷺ ولم يعترفوا بنبوته، فكشف لهم رسول الله ﷺ عن المعجزة الكبرى المصدقة له فى دعواه وهى القرآن الكريم.

وما هو القرآن الكريم؟

حروف وكلمات عربية ينطقون بها ليلا ونهارا، ويكونون منها نثرهم وشعرهم وسجعهم، ولم يطلب منهم أكثر من أن يأتوا بمثل هذا القرآن المركب من الحروف العربية، والكلمات العربية، والجمل العربية، والغريب فى الأمر أن هؤلاء العرب كانوا أساتذة البيان وفطاحل اللغة، وبحور الشعر والبلاغة والفصاحة. ومع ذلك يتحداهم رسول الله ﷺ فى جنس ما برعوا فيه، وما اشتهروا به. إلا أنهم عجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بمثله، بل طاشت عقولهم وراحوا يقولون إن محمداً قد تقول ما يدعى أنه وحى من عند الله، فكانت الحجة الدامغة عليهم هى أول آية من آيات التحدى فى سورة الطور «أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين»[1].

---

(١) الطور (٣٣ – ٣٤).

ثم دفعهم إلى التحدى فى آية أخرى فقال: «قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى»(١) إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بكتاب مثل القرآن الكريم فخفف عليهم التحدى وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»(٢).

فلما عجزوا زاد فى تخفيف التحدى، فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال «أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»(٣) وفى هذه الآية طلب منهم أن يستعينوا بمن شاءوا من المخلوقات وذلك دفعا لهم وحثا على محاولة التحدى.

وقد نزلت آيات التحدى هذه بمكة، فلما انتقل الرسول إلى المدينة جدد الله التحدى فى أول سورة نزلت بالمدينة وهى سورة البقرة والتى نزل فيها قول الله تعالى «وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»(٤).

ونلاحظ فى هذه الآية الأخيرة استحثاثا ودفعا شديدا إلى محاولة التحدى حيث انبأهم بأنهم لن يستطيعوا مقدما أن يأتوا بشيء فلما عجزوا عن الاتيان بمثل سورة واحدة مع أن أقصر سورة من القرآن داخلة فى نطاق التحدى، لأن القرآن سهل عليهم المهمة باطلاق لفظ سورة وهذا الاطلاق معناه التحدى بأقصر سورة وهى سورة الكوثر ذات الآيات الثلاث والكلمات (العشر) فكم يا ترى فى القرآن من مثل سورة الكوثر!!

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بمثل أقصر سورة منه على الرغم من كثرة البلغاء والفصحاء فيهم كثرة رمال الصحراء وحصى البطحاء وشهرتهم

---

(١) القصص ٤٩.
(٢) هود ١٣.
(٣) يونس (٣٨).
(٤) البقرة ٢٣، ٢٤.

بغاية العصبية والحمية الجاهلية(١)، نادى عليهم القرآن نداءه الأخير الذى يحثهم على المعارضة، وفى الوقت نفسه يقطع كل أمل لهم فيها، بل إن التحدى فى هذا النداء لم يقف عند حدود العرب وحدهم ولا حتى كل بنى الإنسانية بل تعداهم إلى الجن أيضاً فقال: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهير»(٢).

وهكذا طاولهم القرآن فى التحدى. وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن إلى التحدى، بعشر سور مثله، ثم إلى التحدى بسورة واحدة.

وقد كان الرسول يدفعهم إلى المعارضة والتحدى فيقول لهم «لو عارضتم سورة من القرآن لألقينا إليكم السلم وأذعنا إليكم»(٣).

ولكن ما هو وجه الاعجاز فى تحدى العرب مع عجزهم؟.

والجواب : .

أولاً : أن القرآن الكريم تحدى أمة مطبوعة على اللغة الفصحى. الشعر والبلاغة هى شغلها الشاغل، وهى مناط التفاضل بين قبائل العرب حتى بلغ من تقديسهم للغة والفصاحة أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة والندوات الجامعة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، حتى أن القبيلة كان يرفعها بيت واحد من الشعر يكون رائعاً فى مدحها، ويضعها بيت يكون لاذعا فى ذمها(٤) ومع علوهم فى البلاغة والفصاحة تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا.

---

(١) المقاصد – جـ ٢ ص ١٣٥.

(٢) الإسراء ٨٨.

(٣) د. محمود بركات، قضايا النبوات صـ ٨١.

(٤) ومن يريد الاستدلال على ذلك فعلية بالعودة إلى الشعر الجاهلى والمعلقات السبع، فهذا الشعر هو الأثر الباقى من كلامهم، وهو الشاهد على بلوغ لغتهم غاية التمام والكمال فقد اجتمعت فيه ضروب كثيرة من ألوان البيان والفصاحة، هذا الشعر الذى كان هو دستورهم وفخرهم والذى عكفوا عليه عكفوهم على أصنامهم يسجدون لأبياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم، فقد كانوا عبده البيان والأوثان معاً.=

ويعبر القاسمي عما سبق بأسلوب غاية فى الروعة فيقول: وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص غيرهم من الأمم، وأتوا من ذربة اللسان مالم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يأخذ الألباب (....) لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها. ودخلوا كل باب من أبوابها، وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها، فقالوا فى الخطير والمهين، وتفننوا فى الغث والثمين»(١).

ثانيا : أن العرب كانوا أحرص ما يكون على إطفاء نور القرآن الكريم وإثبات كذب محمد ﷺ حيث عاب آلهتهم وسفه أحلامهم واستهزأ بهم وبمقدساتهم أيما استهزاء. وكان العرب فى الحمية والأنفة بحيث لا يقبلون مثل

= وكان غرام العرب بالشعر يدفعهم إلى الاعتداد بالشعراء حتى كان الشاعر يحتل من قبيلته مكان الصدارة، لأنه المحامى عن كرامتها - المسجل لمفاخرها، الناطق بلسانها حتى أنهم كانوا يحتفلون بمولد الشاعر، أى ظهوره فى القبيلة ودع عنك الخطابة وما برعوا فيها، حتى أن المفاخرات والمنافرات كانت تستمر بين خطباء القبائل أسابيع كاملة راجع صـ ٩ من كتاب «مناهج التأليف عند العلماء العرب» د. مصطفى الشكعة - بيروت سنة ١٩٨٢.

والشعر الجاهلى هو الأثر الباقى من بلاغتهم وفصاحتهم وهو الدليل على ما نقول: من أن العرب قد بلغوا فى الفصاحة مداها، وإن كان المستشرقون ومن أقتفى أثرهم قد حاولوا التشكيك فى قضية الشعر الجاهلى فقد أدعى المستشرق الأنجليزى اليهودى «مرجليوث» أنه شعر مشكوك فى روايته، وأنه موضوع بعد الإسلام، وقد تولى كبر هذه الفرية ذيل من ذيول المستشرقين هو «طه حسن» هذا الذى كتب كتابا خاصا فى الشعر الجاهلى يحاول من خلاله أن ينشر فكر مرجليوث وآرائه الهدامة فى الشعر الجاهلى، فى محاولة خبيثة للطعن فى إعجاز القرآن الكريم، لأن الشعر الجاهلى هو الشاهد والبرهان على أن القرآن قد تحدى أقواماً بلغوا فى الفصاحة مداها - ومع ذلك عجزوا عن الاتيان بمثله فإذا ما شكك المضللون فى وجود الشعر الجاهلى من أساسه فانهم بذلك يطعنون فى مقدمة من مقدمات الدليل على إعجاز القرآن.

ولن نناقش هؤلاء المضللين بفكرنا وإنما سنتدع محاكمتهم إلى رجل من بنى جلدتهم هو المستشرق «أربرى» الذى درس موضوع الشعر الجاهلى دراسة موضوعية ثم عقب على دراسته بقوله:

«إن السفسطة - وأخشى أن أقول : الغش - فى بعض الأدلة التى ساقها «مرجليوث» أمر بين جداً ولا يليق البتة برجل كان ولا ريب من أعظم أئمة العلم فى عصره» وهذا حكم شنيع لا على مرجليوث وحده بل على كل أتباعه وكهنته وعلى ما جاءوا به من حطام الفكر.

راجع ص ١٤ من كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى.

(١) محاسن التأويل جـ ٢ صـ ٧٥ عن صـ ١٤٢ من القرآن يتحدى للأستاذ أحمد عز الدين خلف الله.

هذا الاستهزاء. فلو كان فى مقدورهم أن يعارضوه، لعارضوا ومع ذلك لم ينقل أن واحداً منهم قد حاول، بل عدلوا عن ذلك إلى الجدل والمهاترات فقالوا عن القرآن إنه سحر، وقالوا عنه إنه شعر وقالوا إن هى إلا أساطير الأولين إكتتبها وقالوا: وقالوا: ولم يزد القرآن على طلب الإتيان بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا، لأنه لو كان فى مقدورهم لفعلوا.

بل إنهم سلكوا الطريق الصعب الذى فيه هلاكهم وهو طريق المعارضة الحربية فاندفعوا إلى مقاتلته دون مقابلته، وإلى مقابلته بالأسنة دون الألسن، وبالحراب بدل الكتاب، واحجم أبو سفيان عن تجنيد جيش من شعراء الجزيرة العربية وأدبائها لمعارضة القرآن. وجند بدلا من ذلك جيشا من عشرة آلاف مشرك لمقاتلة الرسول[1].

وهذا أكبر برهان على عجزهم عن الاتيان بمثل القرآن.

وعجزهم هذا مع وجود الدوافع إلى المعارضة هو عين إعجاز القرآن الكريم.

وقد يدعى أحد بأن القرآن قد عورض من مسيلمة الكذاب؟ والجواب أن معارضة مسيلمة الكذاب للقرآن الكريم أضافت شهادة جديدة على إعجاز القرآن، وعجز بنى البشر والجن عن الإتيان بمثله، حيث كشفت هذه المعارضة عن البون الشاسع بين كلام الخالق وكلام المخلوق ولنبرهن على هذه الحقائق بذكر نماذج من معارضة هذا الكذاب.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه هرطقة من القول «والليل الدامس والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس» وكان قد ذكر هذا الكلام فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه.

وكان يقول: «ياضفدع بنت ضفدعين، نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون».

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد الغزالى نظرات فى القرآن صـ ١٦٣، ١٥٩ القاهرة ١٩٦٣ وراجع صـ ٤٤٩ من نهاية الإقدام للشهرستانى.

وكان يقول :

«والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه. والباغى فناوئوه»، وسألته مرة سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تدعى أنها رسولة ونبية واجتمعت مع مسيلمة تسألة عما أوحى إليه فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى ما بين صفاق وحشا».

قالت له فما بعد ذلك؟ قال أوحى إلى «أن الله خالق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فنولج فيهن قعسا إيلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا فينتجن لنا سخالا إنتاجا».

فقالت له سجاج أشهد أنك نبى(١)؟!!.

هذا ما عورض به القرآن الكريم وهو برهان جديد على أن القرآن من عند الله حيث فقد مسيلمه فى كلامه كل معانى البلاغة والفصاحة والبيان وجمع بين كل وحشى ومستغرب من الكلام، إلى جانب تنافر الكلمات والمعانى. وبالجملة فقد جمع مسيلمة فى كلامه بين كل المسالب والعيوب التى حذر منها البلاغيون، بل اللافت للنظر فى أمر معارضة مسيلمة أنه لم يستطع وهو العربى الخالص أن يحتفظ حتى باسلوبه العادى فى الحديث، بل نزل إلى حد الإسفاف، وأتى بالعبث الذى يأتيه الصبيان فى مداعبتهم حين يقلبون الأغانى والأشعار عن وجهها، فيأتون بألفاظ سوقية ومعان سوقية وهذا ما فعله هذا الكذاب حين عارض سورة والعاديات ضبحا بقوله: «والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا».

وقد كان مسيلمة الكذاب نفسه يشعر بمدى حقارة ما يقول، فقد رآه عمرو ابن العاص وهو فى طريقه إلى البحرين وجلس إليه يسمع ما يقول من الهراء ويبدو أن عمراً قد تعجب من حقير قوله، فإذا بمسيلمة يقول إن محمداً قد أرسل

(١) اعجاز القرآن للباقلانى صـ ١٥٧.

فى جسيمات الأمور – أى عظيمها – وأرسلت فى المحقرات، فلما سمع منه عمرو ما سمع قال: «انك والله تعلم وإنا لنعلم إنك من الكاذبين»[١].

وروى أن أبا بكر الصديق قد سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفه عن هذه الالفاظ، فحكوا بعض ما نقلناه فقال أبو بكر؟: سبحان الله ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج من إل، فأين كان يذهب بكم؟.

ومعنى قوله لم يخرج من ال أى عن ربوبية[٢].

ولو كان هذا الكلام معارضة حقيقية للقرآن الكريم، لتعلقت به العرب وأهل الردة. ولكن نظراً لسخافته وسماجته وبعده حتى عن أن يكون كلاما عاديا، أو نثرا عربيا، لم يتعلق به أعداء الإسلام[٣] ولاحتى ذكروه فى نقدهم للقرآن الكريم. ويبدو أن مسيلمة لم يقل هذا الكلام على أنه معجزة، وإلا فهو مخبول فى عقله.

يقول الرافعى : إن مسيلمه لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية، إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيرا فى نفوسهم، ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان فى الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه من كلام الجن، فراح يقول هذه الاسجاع ليوهم أنه يوحى إليه كما أوحى إلى محمد، ولم يفلح فى هذه الحيلة فقد كان أهله وعشيرته يعرفون أنه كذاب ويقولون عنه: إنه لم يكن فى تعاطيه الكهانة حاذقا، ولا فى دعوى النبوة صادقا وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم «كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»[٤].

---

(١) د. عبد الرؤف مخلوف – الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن صـ ٢٣ بيروت ١٩٧٣.

(٢) إعجاز القرآن ص ١٥٨.

(٣) راجع كتاب التمهيد للباقلانى ص ١٢٨.

(٤) راجع إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى.

ويروى التاريخ أن ثلاثة من الأدباء الملحدين والحاقدين على الإسلام وهم أبو العلاء المعرى[(١)] فى كتابه الفصول والغايات».

وأبو الطيب المتنبى[(٢)]، وابن المقفع، قد حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن فما كادوا يبدأون المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم، لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالة المحاولة.

وحديثاً حاول زعماء البهائية[(٣)] والقاديانية أن يضعوا كتبا يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن. ثم خافوا وخجلوا أن يظهروها للناس، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتى على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف إذا ما استحر فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها.

وقد عبر المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز عن هذه الأصناف التى حاولت أن تعارض القرآن الكريم بقوله: «وإن فى التاريخ لعبرا تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا فى معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام

---

(١) وقد روى ياقوت الحموى فى «معجم الأدباء» معارضة أبى العلاء التى يقول فيها: «اقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، مابين الأشراط ومطالع سهيل - إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل اتق مدارج السبل وطالع التوبة من قبل تنج، وماإخا لك بناج، معجم الأدباء جـ ٣.
وإن كان كثير من الباحثين يرجحون إن هذا الكلام مما نسب زورا إلى أبى العلاء ولم يقله، فإن ذوقه الأدبى يحميه من أن يزل هذه الزلة خاصة وأنه قد صرح بإعجاز القرآن فى «رسالة الغفران» وعلى أية حال فقضية أبى العلاء والمتنبى تحتاج إلى بحث دقيق فقد اختلف فيها الأدباء المحدثون بين مؤيد ومعارض.

(٢) جاء فى الصبح المنبىء جـ ١ صـ ٢٥ أن عبد الله بن معاذ بن اسماعيل قال للمتنبى: «والله إنك شاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فأجابه المتنبى مستنكرا، ويحك اتدرى ما تقول: «أنا نبى مرسل» ثم يعرض عليه معجزته التى كتبها ويوصيه بالإسرار وعدم إذاعة النبأ.
ومع أن بعض الباحثين قد نفى عنه هذه التهمة إلا أن معظمهم مجمعون على أتهامه بالانتماء إلى عقيدة القرامطة التى أحلت ما حرم الله وغيرت معالم الصلاة واستقبلت بيت المقدس [صـ ٢٣ من كتاب المتنبىء بين ناقديه - للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب - القاهرة دار المعارف] ومما يؤيد دعوى النبوة عند المتنبىء هذا البيت الذى يقول فيه:

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

(٣) راجع ص ٢٠٩ من كتاب الظاهرة القرآنية حيث يقول مالك بن نبى إن زعيم البابية قد ألف كتابا بعنوان «البيان العربى».

أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عواره، باق عاره وشناره: «فمنهم عاقل استحيى أن يتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته ومنهم ماكر وجد الناس فى زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته فطوى صحفه وأخفاها إلى حين، ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية للساخرين ومثلا للآخرين[1].

هذه هى الأصناف التى حاولت هذه المحاولة الفاشلة. ولكن هيهات هيهات، فأين هؤلاء من العرب البلغاء الفصحاء؟ ومع ذلك فروا من ميدان المعارضة – وهو أسهل وأهون – إلى ميدان الحروب وعرضوا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي والأسر. فلو كانوا يستطيعون المعارضة لما سلكوا مثل هذا الطريق الوعر. بل كانوا كفوا أنفسهم شر القتل بالإتيان بسورة واحدة من مثله، إلا أنهم لم يستطيعوا.

ولكن لماذا عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن؟ والجواب أن ذلك لأمور كثيرة منها:

أن علم البشر لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، ولا تدرك أفهامهم جميع معانيها، ولا يعرفون كل وجوه النظم والتركيب التى بها إئتلاف الألفاظ والمعانى حتى يأتوا بكلام مثله، والكلام لا يقوم إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

لفظ حاصل.

ومعنى به قائم.

ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا هذه الأمور منه فى غاية العلو والارتفاع.

حتى أننا لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أعذب ولا أجزل من ألفاظه.

ولا نرى نظما أحسن تاليفا وتركيبا من نظمه، وأما معانيه فكل عاقل يشهد له بكمالها ورقيها. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام،

---

(١) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم ص ٨٢.

فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد فلم توجد إلا فى كلام العليم الخبير[١]. الذى ارتقى إلى ذروة السنام التى لا يستطيع أن يرقى إليها أنس ولا جان ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إن القرآن فضلا عن نظمه وتركيبه من أفصح الألفاظ فى أحسن طرق التأليف وتضمنه أصح المعانى، فضلا عن ذلك إنكشفت أمامه حجب الغيب فأخبر عن المغيبات الماضية والمستقبلة، وحوى كل ما تحتاجه الإنسانية فى عاجلها وآجالها، من العقائد الصحيحة والمعاملات والنظم التى عجزت كل تشريعات البشر عن أن تضارعها، بالإضافة إلى إشتماله على دقائق العلوم وغير ذلك من وجوه الإعجاز، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تظهر فى هذه الصورة العجيبة يعجز عنه البشر ولا تبلغه قدرتهم، ومن هنا عجزوا عن معارضته أو الإتيان بمثله.

بيان إعجاز القرآن بطريق الواقع المحسوس:

وإذا كان العقل قد دلل على إعجاز القرآن حيث تحدى العرب من جنس مابرعوا فيه، فعجزوا مع وجود الدوافع والأسباب التى تدفعهم إلى خوض معركة التحدى، فإن الواقع المحسوس يبين لنا هذا الإعجاز بطريقة أخرى.

ذلك أن آيات التحدى ما زالت مسجلة فى كتاب الله تعالى، تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف مذاهبهم وأممهم فى كل عصر وقرن، فما استطاع واحد منهم مهما كان عصره وتاريخه وعلمه أن يسجل إلى جانب هذا التحدى عملا يصح أن يقال إنه قد عارض به القرآن، فهذا من أجلى الدلالات المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن، وهذا ما يمكن إن نسميه بدلالة الواقع خلال التاريخ والقرون[٢].

---

(١) الأتقان جـ ٢ صـ ١٢١.

(٢) د. محمد سعيد رمضان – من روائع القرآن صـ ١٦٣.

وجـه التحدى بالقرآن:

زعم قوم أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات[١] وأن العرب قد كلفت فى ذلك مالا يطاق وبه وقع عجزها.

ولكن هذا الكلام باطل من وجوه:

الأول : أن الصفة القديمة بالنسبة لله لا يمكن لمخلوق أن يقف على كنهها ومالا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي[٢] به، فهل يعقل أن نأتى إلى رجل عاجز لايستطيع القيام، أو أبكم لا يستطيع الكلام ونتحداهم من جنس ما عجزوا فيه. ومالم يدخل فى نطاق قدرتهم؟ فأقول للأول اتحداك أن تقوم، وللثانى اتحداك أن تتكلم؟ كلا!! فالتحدى إنما يكون من جنس مابرع فيه الناس لا من جنس ما عجزوا عنه.

ومن غير المعقول أن يتحداهم الله أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له، لأن تكليف مالا يطاق غير جائز.

الثاني: أن التورة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة على رسل الله قبل الإسلام هى عبارة عن دلائل على الكلام القديم وليس شيئاً منها بمعجز فى النظم ولا فى التأليف[٣].

الثالث : أنه إذا لم يكن المعجز إلا المعانى القديمة فإن الحروف المسموعة المتلوه الآن ليست معجزة وهذا خطأ فاضح[٤].

ومن هنا ذهب الجمهور إلى أن التحدى إنما وقع بما دل على الكلام القديم وهو الحروف والألفاظ التى هى نظم القرآن الكريم (حكاية لكلامه ودلالات عليه وإمارات) منظومة كنظمه ومتتابعة مطرده كاطراده. وقد تساءل الإمام عبد القاهر

---

(١) وقد نسب ابن حزم هذا الرأى إلى الأشعرى فى أحد قوليه – راجع الفصل جـ ٣ صـ ٢٥.

(٢) الإتقان جـ ٢ صـ ١١٨.

(٣) الباقلانى – إعجاز القرآن صـ ٢٦٠.

(٤) راجع الفصل نفس الموضع.

الجرجاني عما أعجز العرب من الألفاظ وما بهرهم فيها؟ ثم أجاب بكلام في غاية الإبداع يقول فيه:

«أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادىء آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظه ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر وصورة كل عظة. وتنبيه وإعلام، وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح، أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا، بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم - ولوحك بيافوخه السماء - موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول»[1].

هذا وقد ذهب المرحوم الدكتور محمد البهي إلى أن وجه التحدي بالقرآن ليس هو أسلوبه أو ألفاظه أو نظمه، بل بما فيه من مبادىء وأهداف سامية صالحة للبشرية.

ويستشهد على ذلك بقوله الله تعالى «قل فأتوا بسورة من مثله وأدعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله»[2].

ووجه استدلاله بهذه الآية يقوم على أساس أن القرآن قد أشار إلى أن رفض المشركين للقرآن كان مبكرا سابقا على إحاطتهم به، كما كان سابقا على عدم وقوفهم على مبادئه وأهدافه، إذ لو أنهم أحاطوا به علما ووقفوا على أهدافه ومبادئه ربما ترددوا في رفضه «لأن فيه من المبادىء والأهداف ما يحمل غير المتحزب لهواه على الاعتراف.

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٢.

(٢) يونس (من ٣٨ ومن ٣٩).

يقول الدكتور محمد البهى «وفى مضمون هذا التعليق ما يدل على أن المماثلة المتحدى بها، ليست مماثلة إختيار اللفظ وحسن صياغة التركيب، بقدر ماهى فى صلاحية مبادئة للبشرية وعمومها للناس كافة، وبقدر ماهى فى تجردها من البواعث الخاصة[1].

ووجهة نظر الدكتور محمد البهى لها احترامها وتقديرها إلا أن الواقع لا يؤيدها إذ أنه من غير المعقول أن يتحدى القرآن العرب بالإتيان بما فيه من مبادىء وأهداف وقوانين وتشريعات لأن هذا أمر فوق طاقتهم، فلم يبرع العرب فى أمور التشريعات والقوانين والمبادىء والكونيات حتى يتحداهم القرآن بالإتيان بمثلها، ولو كان الأمر كذلك لقال العرب إن محمد قد تحدانا بأشياء لا نعرفها ولا نعلمها وليس لنا فيها براعة ولا طول يد ومن هنا لاتقوم عليهم الحجة.

ولذلك فالرأى الصحيح فى وجه التحدى بالقرآن هو رأى الجمهور وسوف يأتى لذلك مزيد بيان حينما نتحدث عن الإعجاز البيانى إن شاء الله.

حدود التحدى بالقرآن الكريم :

المراد بحدود التحدى بيان من هم المتحدَّون بالقرآن الكريم هل هم العرب وحدهم؟ أم العجم وسائر الإنسانية معهم؟ وهل يدخل معهم رسول الله ﷺ وأصحابه؟ وهل يدخل معهم الجن أيضاً؟ أم لا؟

لاشك أن التحدى بالقرآن الكريم إنما كان لكل إنسان على هذه الأرض عربياً كان أم أعجمياً وذلك لعموم الآية الكريمة «قل لئن اجتمعت الأنس والجن».

وقد يقول قائل كيف يتحدى القرآن أجناساً لا تتحدث العربية ولا تعرف عنها شيئاً؟

وقد أجاب البعض على هذا الاعتراض بجواب ضعيف مضمونه: أن وجوه الإعجاز فى القرآن كثيرة، وإن كان هؤلاء جاهلين باللغة العربية، فهم عاجزون عن

---

(١) د. محمد البهى، نحو القرآن صـ ١١.

باقى الوجوه الأخرى مثل الإخبار بالمغيبات وغير ذلك ووجه الضعف فى هذا الجواب أنه قد سلم لهم إسقاط الإعجاز البيانى، وهو مرفوض.

ولذلك فالجواب الصحيح أن يقال:

إذا كان العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة، وأصحاب البيان واللسان العربى قد عجزوا عن الإتيان بمثله، فإن غيرهم من الأجناس الأخرى ومن الذين أتوا بعد العصر الأول يكونون أشد عجزاً.

بل إن عجز العرب الفصحاء عن تحدى القرآن إنما ينبغى أن يكون معجزة حسية أمام غير البلغاء وغير الفصحاء على صدق القرآن، بل هى حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا وغير ذلك[1].

وفى هذا رد على أولئك الذين ينقصون من قدر الإعجاز البلاغى والبيانى فى العصر الحديث بحجة أن أذواق الناس قد ضعفت وعجزت عن تذوق بلاغة القرآن الكريم، يقول الدكتور الغمراوى «وإثبات أن القرآن هو حقاً كتاب الله عن طريق الإعجاز البيانى والبلاغى لم يعديكفى لاقناع المثقف المتشكك، لأن مثقف اليوم لايدرى من علم العربية وذوقها ما يدرك به هذا الإعجاز»[2].

وقد ذهب إلى هذا الرأى أيضاً المفكر الجزائرى مالك بن نبى حيث ادعى أن مقاييس البلاغيين لاستخراج إعجاز القرآن من الناحية الأسلوبية لم تعد كافية اليوم لاقناع غالبية المسلمين المثقفين بالثقافة الغربية، بل وربما بالنسبة لذوى الثقافة التقليدية[3].

بل وينتهى مالك إلى هذا الحكم الذى يقول فيه: «والحق أنه لا يوجد مسلم، وبخاصة فى البلاد غير العربية - يمكنه أن يقارن موضوعيا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلى، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك فى

---

(١) الباقلانى - إعجاز القرآن ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٠٦.

(٣) الظاهرة القرآنية صـ ٦٥.

أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة»(١).

هذا ما قاله مالك في هذه القضية الحساسة ونحن نخالفه تماما كما نخالف ما ذهب إليه الغمراوى: ذلك أن إعجاز القرآن البلاغى ما يزال قائماً، والعصر لم يخل من أدباء وفصحاء يدركون إعجاز القرآن والقول ما يقوله المتخصصون، وأنا لا أستطيع أن أناقش فى النظريات الهندسية التى تخصص فيها مالك بن نبى، كما لا أستطيع أن أرفض قوانين الكيمياء التى تخصص فيها الدكتور الغمراوى لمجرد أنى لا أستطيع فهمها، وإنما يحتم على منطق العلم أن أسلم بها بناء على أبحاث المتخصصين، وكذلك الحال فى بلاغة القرآن وبيانه، فإذا لم يتذوقوه فليس عيبا أن يسلموا بكلام من تذوقوه، أو على حد قول المرحوم الدكتور محمد البهى: إن العرب هم أهل الاختصاص بين الجنس البشرى بأسلوب القرآن ومتى قامت الحجة على أهل الاختصاص، فإنها تقوم على الباقين الآخرين بين الناس جميعاً بالأولى(٢).

ويقول الإمام أبو الحسن الأشعرى فيما ينقله السيوطى فى – معترك الأقران– «والذى نقوله إن الاعجمى لايمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالا، وكذلك من ليس ببليغ – فأما البليغ الذى أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعه، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله»(٣).

ومن الباحثين من حاول أن يهرب من هذه المشكلة بالتفريق بين الإعجاز والتحدى، حيث جعل التحدى خاصا بفصحاء العرب من المشركين فقط.

أما الإعجاز فهو عام لكل البشر، وقد ذهبت الدكتوره بنت الشاطىء إلى هذا الرأى السابق(٤)، وفى نظرى أن الإعجاز والتحدى متلازمان، ولا ينفك

---

(١) السابق ص ١٥.

(٢) نحو القرآن صـ ١٠.

(٣) السيوطى – معترك الأقران صـ ٦ تحقيق على محمد البجاوى القاهرة سنة ١٩٧٣ وقارن صـ ٢٩٥ جـ ١٦ من المغنى للقاضى عبد الجبار.

(٤) د. عائشة عبد الرحمن – الإعجاز البيانى للقرآن صـ ٦٨ – القاهرة دار المعارف.

أحدهما عن الآخر فالقرآن يتحدى البشرية أيا كان زمانها وأيا كان مكانها، وعجزها عن الإتيان بمثله هو عين الإعجاز.

وهكذا فالعامة وفاقدو الحس البياني يكفي أن يعلموا أن القرآن قد تحدى أفصح الفصحاء فعجزوا، ومن هنا يكون غير المثقفين اليوم وفاقدو الحس البلاغي أشد عجزا، وأشد ايمانا بصدق القرآن الكريم وإعجازه البياني، أو على حد قول الإمام الباقلاني: إنهم إذا عرفوا عجز أهل صنعة البلاغة والفصاحه، حلوا محلهم وجروا مجراهم في توجه الحجة عليهم[1] إذا فهؤلاء الذين لايفرقون بين بلاغة القرآن وإعجازه البياني، وكلام العرب وأشعارهم، عليهم أن يعودوا إلى شهادة أهل الفصاحة من العرب، وحسبنا شهادة عدو من أعداء القرآن هو الوليد بن المغيرة.

أو كما قال القائل:

وإذا لم تر الهلال فسلم .... لأناس رأوه بالأبصار[2].

وهكذا تقوم الحجة على العالم كله بالعرب، ذلك أن حدود التحدى كاملة لكل بنى الإنسانية عربا أو عجماً، من أهل الصنعة والبلاغة أو من عامة الناس بل إن الأعجب من ذلك أن التحدى ليشمل صاحب الدعوة نفسه وهو محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا ما سوف نفصله في الأسطر التالية:

القرآن يتحدى محمداً كبشر :

انها لمعادلة صعبة أن يخبر محمد بالقرآن الكريم، والقرآن يتحدى بشريته، ويقول له إنك كبشر عاجز عن الإتيان بمثلى، وإن دورك فقط هو: التلقى عن جبريل، ثم الحفظ والوعى، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ أما المعانى والالفاظ فلا شأن لك بها فهى من عند الله ولا قدرة لك على الإتيان بمثلها.

---

(١) إعجاز القرآن صـ ٢٥.

(٢) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ٥٣.

وقد يكون هذا الكلام غريبا عند النظرة السريعة، ولكن عند النظرة المتأنية نلاحظ أنه كلام واقعي يتمشى مع منطق العقل من جهة ومع نصوص النقل من جهة ثانية:

١ – أما تمشيه مع منطق العقل فلأن محمدا في ناحيته البشرية والعقلية المحضة لا يتميز عن البشر في شيء ولو أتى هو بمثله أو ببدله لأتى غيره وبذلك يسقط إعجاز القرآن وتسقط رسالته.

وليس هذا بغريب. ذلك أن الشرط الأساسي في المعجزة: ألا يتمكن الرسول الذي جرت على يديه – من فعلها – لولا أن الخالق هو الذي أجرى هذا الأمر على يديه تأييداً له في دعواه(١).

٢ – وأما تمشيه مع النقل فلأن القرآن حين تحدى البشر قال «قل لئن اجتمعت الإنس والجن» ولاشك ان محمدا واحد منهم.

٣ – ويدل على ذلك أيضاً أن المشركين حين طلبوا من رسول الله أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو أن يبدله، لم يفعل الرسول واعترف بعجزه أمام القرآن اذ هو خارج عن امكانته كبشر.

ويتيه القرآن فخرا وعظمة على سائر البشر – ومنهم محمد كبشر – والغريب أن الذي يحكي قصة العظمة والإعجاز هو محمد النبي – نعم يتيه القرآن فخرا حين يقول: «وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»(٢).

وهكذا يؤكد رسول الله على عجزه أمام هذا الكتاب فهو مجرد مبلغ لما يوحى إليه من ربه، ولقد مكث بين العرب من قبل نزوله أربعين سنة، لم يقل كلمة

---

(١) راجع صـ ٣٢٨ من العقيدة الإسلامية وأسسها للاستاذ عبد الرحمن حسن حبنكه.

(٢) سورة يونس الآية ١٥، ١٦.

واحدة مثل هذا الكلام المعجز يقول الله تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»[١] «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان»[٢].

٤ - ولا أدل على ذلك من أن الرسول فى بيانه وأحاديثه كان أفصح البشر وأكثرهم بيانا ومع ذلك لم يصل مستوى سنة رسول الله إلى مستوى القرآن الكريم وأمامنا الآن آلاف مؤلفة من كتب السنة النبوية المطهرة فليقارن من يشاء بينها وبين القرآن الكريم وسوف يدرك أن أسلوب القرآن أعلى من أسلوب الأحاديث النبوية علوا خارقا للعادة، خارجا عن محيط الطاقة البشرية[٣].

لقد قام الإمام الباقلانى بسرد كثير من أحاديث النبى ورسائله وخطب الصحابة رضوان الله عليهم لكى يبين بعد الفرق بين أسلوب الحديث الشريف وبين القرآن الكريم، ثم يبين الفرق بين أسلوب خطب الصحابة وبين أحاديث الرسول أيضاً، وأنه فرق فى الفصاحة والمقاصد فقط ولكن الجميع يصدق عليه أنه كلام البشر خلافا للقرآن الكريم.

يقول الباقلانى «تأمل - هداك الله - ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلناه - من خطب النبى ﷺ واحد وسبكها سبك غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين، وذلك أمر له مقدار معروف واحد ينتهى إليه مضبوط، فإذا عرفت أن لجميع كلام الآدمى منهاج، ولجملته طريق وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت - ونظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى وتأملته مرة ثانية فتراعى بعد موقعه وعالى محله وموضعه[٤]». وهكذا فالأحاديث النبوية والوحى

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣.

(٢) الشورى الآية ٥٢.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ صـ ٢٣٤ وقارن صـ ٤٤٨ من نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهرستانى - تحقيق الفرنجيوم.

(٤) إعجاز القرآن ص ١٣٧.

القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة إلا أن القرآن له نسقه الخاص وتركيبه المعين الذى لا يتسنى لمخلوق كائنا من كان أن يأتى بمثله(١).

إذاً فالقرآن معجز للإنسان مهما كان حتى ولو كان هو الرسول الكريم الذى اختاره ربه لتبليغ هذا الكتاب.

يقول ابن تيمية «فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه، لكل من له أدنى تدبر»(٢).

تحدى القرآن «للجن»:

ولم يقف التحدى بالقرآن عند حدود الإنس وحدهم فقد تعداهم إلى الجن أيضاً، بل أكثر من هذا تحداهم مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن كما ورد فى قوله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

وزعم بعض العلماء أن التحدى إنما وقع للإنس دون الجن واستدلوا على ذلك بأن الجن لم يكونوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه، ورد هؤلاء العلماء على الآية التى جمعت بين الإنس والجن فى التحدى بأن الجن إنما ذكر فى هذه الآية تعظيما لإعجاز القرآن، لأن للهيئة الإجتماعية من القوة ماليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع الثقلين فيه وظاهر بعضهم بعضا وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز. كذلك استدلوا على ذلك بادعائهم أن تحدى الجن مجرد دعوى بلا دليل وليس هناك طريق لإثباتها، ذلك أنه

---

(١) راجع ص ٢٠٩ من الظاهرة القرآنية.

(٢) الجواب الصحيح ص ٧٦ جـ ٤.

لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن الإتيان بأفعال عجيبة لايستطيعها الإنس[١].

وإلى مثل هذا ذهب القاضى عبد الجبار حين قال: «فإن قال قائل: أفليس النبى ﷺ قد تحدى الجن كما تحدى الإنس، فيجب ألا نعلم كون القرآن معجزا إلا بعد أن نعلم تعذر المعارضة على الجن، قيل: إذا لم يكن لنا فى العقل طريق إلى معرفة الجن أصلاً، لأنهم لايشاهدون ولاتعرف أحوالهم بغير مشاهدة، فيجب ألا تعتبر حالاتهم وعاداتهم، لأن اعتبار العادة فرع على معرفة أهل العادات فإذا صح ذلك، فقد كفانا فى معرفة كون القرآن معجزا بخروجه عن عادة من تعرف عاداته»[٢].

والذى يبدو من كلام القاضى عبد الجبار أنه يرجح التوقف فى المسألة ما دام العقل لا يستطيع الفصل فيها، ولا يمكن أن نتعرف على أحوالهم وعاداتهم.

مناقشة هذا الرأى :

لاشك أن هذا الرأى مخالف لصريح القرآن الكريم فالآية هنا واضحة فى أن التحدى موجه إلى الجن أيضاً وتعضدها آية سورة الجن «قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحد» إلى قوله تعالى: «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا»[٣].

كذلك آية سورة الأحقاف «وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٩.

(٢) راجع ص ٤٨٦ من كتاب الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.

(٣) الجن ١٣.

مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم»[١].

فهذه الآيات صريحة وواضحة فى أن الجن مكلفون باتباع رسول الله ومن هنا لابد أن يشملهم التحدى إذا فليس هناك ما يدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهرة فى آية التحدى – كما حاول المنكرون أن يفعلوا، لأن ذلك تأويل لا مبرر له، بل آيات القرآن الكريم تنقضه.

وأما ما استدلوا به من أن الجن لم يكونوا من أهل اللسان العربى فهو كلام بلا دليل ولا برهان بل براهين القرآن تهدمه. اذ أنهم قد سمعوا ما أنزل إلى الرسول وفهموه وبلغوا به قومهم. فكيف لا يكونوا من أهل اللسان العربى وأما ادعائهم باستحالة الاستدلال على ذلك، فهو كلام لا معنى له، لأننا نستدل، على ذلك بإخبار الله لنا فى كتابه الكريم، فضلا عن أن أشعار الجن قد تناقلها بعض الشعراء فى الجاهلية وادعى بعضهم أن جنا معينا قد أوحى إليه بما قاله، وحين نقرأ هذه الأشعار نجدها لا تتميز عن شعر البشر فى شيء[٢].

وأما قضية التوقف بحجة عجز العقل عن الفصل فى المسألة التى أثارها عبد الجبار، فهى قد تكون مقبولة لو أن النص والوحى لم يفصل فى القضية، أما وقد فصل فيها الوحى، فلم يعد لقضية توقف العقل معنى.

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن التحدى موجه إلى كل مخلوق حتى الملائكة، وإنما لم تذكر الملائكة فى الآية. لأن الرسول لم يكن مبعوثاً إليهم وهذا ما قاله الكرمانى فى غرائب التفسير.

وعلى أية حال فيكفى أن نعلم أن حدود التحدى بالقرآن الكريم تشمل الإنسان أيا كان زمانه وأيا كان مكانه وجنسه، كما تشمل الجن أيضاً.

---

(١) الأحقاف (٢٩ – ٣٠ – ٣١).

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٩.

قدر (المتحدى به) من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في قدر المعجز المتحدى به من القرآن الكريم. فذهب بعض المعتزلة إلى أن القدر هو جميع القرآن، ورأيهم لا أساس له ويهدمه نص القرآن الكريم «فأتوا بسورة من مثله» وذهب بعض منهم إلى أن قدر المعجز من القرآن الكريم هي السورة المستقلة بنفسها حتى ولو كانت طويلة، بينما ذهب أبو الحسن الأشعرى إلى أن قدر المعجز من القرآن الكريم هي السورة قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها من الآيات، فإن كانت الآية بقدر حروف سورة حتي وإن كانت سورة الكوثر فذلك معجزة[1].

وسورة الكوثر ثلاث آيات قصار، وعلى هذا فمقدارها من آية، أو آيات طويلة له حكم السورة، وإذا كانت آيات القرآن الكريم تزيد على ستة آلاف ومائتى آية فمعنى ذلك أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة.

ومن العلماء المحدثين من ذهب إلى أن الإعجاز قد يكون بالآية بل وببعض الآية. يقول الدكتور الغمراوى: «وليس معنى التحدى بسورة أن ما دون السورة من القرآن. ولو كان أقصر سورة غير معجز كلا، فتعدد نواحى الإعجاز فى القرآن يجعل كل آية معجزة، بل كثير ما يكون بعض الآية معجزاً عند من يبصر ويعلم»[2].

ورأى الدكتور الغمراوى فيه من الحماس والمبالغة ما لا يتفق مع الواقع. وذلك أن القرآن أشار إلى أن أقل المتحدى به هو السورة.وقاس عليه العلماء الآيات المساوية للسورة، وحينما يدعى الدكتور الغمراوى بأن الآية وبعض الآية

---

(١) الباقلانى – إعجاز القرآن صـ ٢٥٤.

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ١٦٦ وقارن صـ ٢٩ وما بعدها من الفصل فى الملل والنحل حيث يرجح الشهرستانى رأى من قالوا بأنه معجز حتى بآية واحدة، بل بكلمة واحدة، حيث يقول: (إن كل كلمة قائمة المعنى نعلم أنها تثبت على أنها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجىء بمثلها لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك وهو رأى غريب قائم على أساس باطل وهو القول بالصرفة.

تصلح لأن تكون قدرا معجزا فانه ينظر إلى الموضوع من زاوية خاصة لم يهتم بغيرها وهى الإعجاز العلمى للقرآن، وحقاً إن الآية وبعض الايات قد يكون فيها إعجاز علمى، ولكن ليست كل آية كذلك، بل ليست كل سورة كذلك، ومن هنا كان رأى الأشعرى أرجح لأن كل سورة فى القرآن ولو كانت صغيرة فيها إعجاز النظم والبلاغة والتركيب وكل آية بقدر السورة فيها أيضاً مظاهر هذا الإعجاز.

وقد أشار الجاحظ إلى ذلك فى كتابه «حجج النبوة» فقال «لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، ألا ترى أن الناس قد كان يتهيء فى طبائعهم ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله وإنا لله، وعلى الله توكلنا (...) وهذا كله فى القرآن، غير أنه متفرق، غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذه سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه، لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان، ومعد، وعدنان»[1].

وقد نقل الألوسى فى مقدمة كتابه «روح المعانى، رأيا غريبا فى هذه المسألة يدعى صاحبه أن التحدى لم يقع بمطلق السورة بل بسورة تبلغ مبلغا يتبين فيه رتب ذوى البلاغة» وكأن صاحب هذا الرأى يرى أن هذه الرتب لا تظهر فى مقدار ثلاث آيات[2].

وهو رأى لا قيمة له لأنه تناسى أن العرب الذين قامت عليهم الحجة بعجزهم عن التحدى قد عجزوا أمام طوال السور وقصارها ولم يأتوا بمثل هذه ولا تلك، ذلك أن سر الإعجاز فى القصير من سور القرآن مثله فى الطويل، كما أن سر الإعجاز فى خلق النملة مثله فى خلق الفيل[3].

---

(١) راجع حجج النبوة على هامش الكامل جـ ١ صـ ٢٩٣.

(٢) راجع مقدمة روح المعانى للألوسى.

(٣) د. محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم صـ ١٠٨.

الفصل الثانى

الإعجــاز البيانـــى

تمهيد:

اختلف العلماء فى وجه الإعجاز فى القرآن الكريم، فذكروا وجوها كثيرة، وكأن كل واحد منهم نظر إلى القرآن من زاويته الخاصة فأدرك ما أدرك من مواطن الإعجاز، وذلك أن كل ما فى القرآن معجز، ولقد سئل (بندار) الفارسى عن موضع الإعجاز من القرآن الكريم، فأجاب بأن السؤال خطأ وهو شبيه بقول القائل ما هو موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، وكذلك القرآن لا يسأل عن موضع الإعجاز فيه لأن كل شىء فيه معجز «وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه وأسراره فى كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده»[1].

ذلك أن كل إنسان نظر فيه، أخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية، ومن هنا اختلفت آراء العلماء قديما وحديثا فى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم.

- فقال قوم هى الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون بل البيان والفصاحة، ومنهم من ذهب إلى أن إعجاز القرآن راجع إلى نظمه وأسلوبه الخاص. وقال البعض هو تأثيره فى القلوب والنفوس، ومنهم من قال هو ما فيه من الإخبار عن المغيبات.

كذلك قال بعض العلماء، إن وجه الإعجاز فى القرآن هو ما فيه من أصول العلوم والحكم والتشريعات، وادعى البعض بأن إعجازه بصرف الله للعرب عن معارضته. وهذه هى آراء قدامى العلماء والمفكرين فى إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) الاتقان جـ ٢ صـ ١٢١.

– وأما فى العصر الحديث، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أن وجه إعجاز القرآن هو ما فيه من الحقائق العلمية التى لم يعرفها العلم الحديث إلا فى العصور الحديثة.

كما ذهب بعض المحدثين إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن الكريم راجع إلى تصويره الفنى للحقائق. بل إن جلال الدين السيوطى فى كتاب «معترك الأقران فى إعجاز القرآن» يذكر خمسا وثلاثين وجها لإعجاز القرآن ا كريم[١].

(والفيروز ابادى) يذكر ما يقرب من سبعين وجها من وجوه الإعجاز ثم يقول: «والغرض من ذكر هذا المجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لا قعر له ولا ساحل فأنى للمعارض الماحل»[٢].

ويقول على بن أبى طالب: «لو أردت أن أحمل وقر ستين بعيراً فى تفسير فاتحة الكتاب لفعلت».

وهذه الآراء العديدة راجعة فى نظرى إلى طبيعة القرآن نفسه، فهو عطاء متجدد لكل الأزمان والعصور، وكلما أتى جيل، وجد فى القرآن الجديد، ولن ينتهى هذا العطاء حتى تنتهى الدنيا بما فيها، وصدق الله حين قال: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»[٣].

والواقع أن إعجاز القرآن الكريم راجع إلى ما سبق من أقوال – خلافا للصرفة فلنا معها وقفة طويلة – يقول سعد التفتازانى: «فالجمهور على أن إعجاز القرآن لكونه فى الطبقة العليا من الفصاحة والدرجة القصوى من البلاغة (...) وهذا مع إشتماله على الإخبار عن المغيبات، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والمعاد، ومكارم الأخلاق والإرشاد إلى فنون الحكمة العلمية والعملية والدنيوية»[٤] وسوف نفصل هذه الوجوه التى قيلت فى إعجاز القرآن تفصيلاً دقيقا يكشف عن أبعادها وأسسها.

---

(١) راجع ص ٢٥٩ من أثر الفكر الدينى فى البلاغة العربية.

(٢) الفيروزابادى – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ١ صـ ٦٥ – ٧٧.

(٣) القمر ١٧.

(٤) المقاصد جـ ٢ صـ ١٢٥.

ولنبدأ الآن بأهم هذه الوجوه وهو الإعجاز البياني والبلاغي، حيث نوضح مفهومه وصوره.

الإعجاز البياني والبلاغي

لاشك أن إعجاز القرآن البياني ونظمه البديع هو أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، بل إننا لو لم نثبت الوجوه الأخرى لإعجازه لكفى العقلاء والمنصفين هذا الوجه.

- ذلك أن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي التي سبق ذكرها، إنما هو تحد بلفظ القرآن وبيانه لا بشيء آخر خارج عن ذلك، فما هو تحد بالإخبار عن المغيبات، ولا بما تضمنه القرآن من حقائق العلوم الكونية ولا اشتماله على أصول العقيدة وحقائق الشريعة، بل كان بشيء واحد هو بيان القرآن وبلاغته وفصاحته.

ولا أدل على ذلك من أن السور الأولى التي نزلت في القرآن الكريم لم تكن تشتمل على هذه الوجوه وما اشتملت علي بعضه منها مثل الحقائق العلمية في سورة (اقرأ) لم تكن مفهومة للعرب حينذاك، ومع ذلك سحرهم القرآن بهذه السور القلائل وآمن منهم الكثير، وحتى الذين لم يؤمنوا به كانوا يستشعرون إعجاز القرآن وفصاحته وبيانه من خلال هذه السور البسيطة مما يدل على أن الوجه الأساسي لإعجاز القرآن هو «نظمه وبلاغته وفصاحته».

ويدل على ذلك أيضاً أن رسول الله ﷺ طلب منهم الإيمان برسالته بمجرد سماع القرآن «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون»(١).

ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار بمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم كان هو في نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس كلام البشر بل كلام خالق

---

(١) التوبة ٦.

البشر، لما فيه من النظم البديع الذى لم تعهده العرب فى أحاديثها ولا فى آدابها.

يقول الأستاذ محمود شاكر فى تقديمه القيم لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى: «إن إقرار العرب عن طريق النظم والبيان أن القرآن كلام رب العالمين دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من الوجوه الأخرى للإعجاز من الأخبار بالمغيبات واشتماله على دقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون - فليست هى الدليل الذى يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه مباين لنظم البشروبيانهم»(١).

وهذا هو ما قصدناه حين قلنا إن إعجاز القرآن البلاغى أهم الوجوه، ويقدم على ما سواه من الوجوه الأخرى - ولكننا احترزنا بقيد هام - وهو أن هذا الوجه يلزم العقلاء والمنصفين سواء كانوا على علم بأصول البلاغة والتذوق البيانى أم لا، فإن كانوا على علم بها فسوف يسلمون بلا مناقشة، وإن لم يكونوا على علم بها فسوف يسلمون بإعجازه حين يعلمون أن العرب أصحاب البلاغة والفصاحة قد سلموا واعترفوا بإعجاز القرآن البيانى، فيكون عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن عجز لمن سواهم من البشر، ولكن ماذا نفعل مع أولئك المعاندين والمجادلين بالباطل ومنحرفى الفطرة، وفاقدى الذوق البيانى ببلاغة القرآن وجماله؟

هنا لابد أن نقدم لهم الوجوه الأخرى من إعجاز القرآن، فلعل هذه الوجوه مجتمعة تفعل ما لم يفعله الإعجاز البيانى وحده، وعلى أية حال فسوف نبدأ بالإعجاز البيانى ثم نعقب بالوجوه الأخرى.

- فما مفهوم الإعجاز البيانى؟

- وما صوره فى القرآن الكريم؟

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٣٢.

مفهوم الإعجاز البياني[١]:

البيان القرآني كلمة عامة تشمل فصاحة القرآن وبلاغته ونظمه وقد اختلف العلماء حول أي هذه الوجوه يرجع إليه الإعجاز البياني.

- فمنهم من ذهب إلى أن ذلك راجع إلى النظم الخاص للقرآن وحده.

- ومنهم من أرجعه إلى النظم والبلاغة معا وجعلهما وجها واحدا.

- ومنهم من فرق بينهما واعتبر كل واحد منهما وجها مستقلا.

- ومنهم من أرجع الإعجاز البياني للقرآن الكريم إلى أسباب أخرى، سوف نكشف عنها من خلال العرض لآراء العلماء في هذه القضية.

---

(١) البيان : ورد في اللغة بمعاني مختلفة منها - مابين به الشيء من الدلالة وغيرها وبان الشيء بيانا أي اتضح. (ومنه آيات مبينات) أي موضحات للحق.

فالبيان هو الإيضاح ومنه حديث آدم وموسى: «أعطاك الله التوراة فيها تبيان كل شيء» أي كشفه وإيضاحه ومنه وصف القرآن بأنه مبين والكتاب المبين» أي الذي أبان طرق الهداية.

وجاء البيان بمعنى الفصاحة - فالبيان هو الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال هو الفصيح، ومنه قول الرسول ﷺ «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة» كأن يكون الرجل عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فينقلب الحق ببيانه إلى نفسه، لأن معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان لا في الواقع فكأنه سحر السامعين ببيانه. راجع ص ٦٧ من لسان العرب لابن منظور جـ ١٣.

والبيان بهذا المعنى أشمل وأعم من علم البيان، الذي هو فرع من فروع البلاغة، بل إنه أعم من مصطلح البلاغة، أما أنه أعم من مصطلح علم البيان فلأن علم البيان هو علم معرفة الطرق المختلفة التي يمكن أن يؤدى بهـا المعنى الواحد، وقد حدد العلماء مباحثه في التشبيه والمجاز والكناية والإستعارات.

وأما كون البيان أعم من البلاغة فلأن البيان كما قلنا هو الفصاحة، وهذه الفصاحة قد تكون في الكلمة وقد تكون في الكلام والمتكلم معا، أما البلاغة فلايوصف بها إلا الكلام والمتكلم ولا يمكن أن نقول كلمة بليغة بينما نقول كلمة فصيحة.

ومن هنا وجدنا وجها من وجوه الإعجاز البياني هو فصاحة الكلمة واستخدامها في مكانها المناسب، ووجدنا النظم وحسن التأليف، ووجدنا التصوير الفني ووجدنا المناسبات بين الآيات والسور، وكل هذه الوجوه لا تدخل تحت أي علم من علوم البلاغة المعروفة التي هي - المعاني والبيان والبديع) =

آراء العلماء فى الاعجاز البيانى

١ - رأى القائلين بالنظم الخاص:

ذهب الجاحظ وجمع من العلماء منهم عبد القاهر والأصبهانى إلى أن إعجاز القرآن البيانى راجع إلى (نظمه الخاص) وحده - والنظم هو التأليف والرصف والضم[1]، ونظم القرآن هو عبارته الخاصة التى تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة[2] من حيث وضع الألفاظ فى مواضعها، وصياغتها بهذه الطريقة الخاصة بالقرآن الكريم.

يقول الشهرستانى النظم يطلق على التركيب والترتيب أى ترتيب الأقوال بعضها على بعض[3].

إذا فوجه الإعجاز عند هؤلاء هو فى نظمه الخاص ووضع ألفاظه بصورة خاصة بصرف النظر عن البلاغة والفصاحة أو حتى المعانى التى احتوتها الألفاظ.

وليست بلاغة القرآن فى نظرهم راجعة إلى ألفاظه فإنها نفس الألفاظ التى يستخدمها العرب، فالقرآن نزل عربيا وبلسان عربى مبين.

وليست راجعة إلى معانيه لأن بعضها موجود فى الكتب السابقة قال تعالى «وإنه لفى زبر الأولين» وإنما ترجع إلى نظمه الخاص الذى هو الصورة الخاصة بالقرآن- أما اللفظ والمعنى فهما العنصر الذى تكون منه القرآن.

= فنحن لا نريد من الإعجاز البيانى ما تضمنه القرآن من فنون البلاغة التى حددها البلاغيون فى علوم البلاغة الاصطلاحية، بل إن بيان القرآن أرفع من ذلك وأسمى ولا يمكن أن نخضعه للمقاييس التى وضعها البلاغيون فقد وضع علماء البلاغة مقاييساً للفصاحة والبلاغة ولم يخضع لها القرآن الكرم فقد اعتبروا التكرار عيبا، واعتبروا السجع من صور البلاغة، واعتبروا استخدام الكلمات غير العربية مخلا بالفصاحة وخرج القرآن على كل ذلك حيث اعتبر فيه التكرار ميزة، واعتبر السجع عيبا.

(١) راجع الصناعتين لأبى الهلال العسكرى.

(٢) المعجم الوسيط - الجزء الثانى ص ٩٤١.

ولا شك أنه باختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد.

وكذلك القرآن وسائر كلام العرب عنصره واحد ولكن صوره مختلفة، وهكذا فالإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بنظمه المخصوص، وأسلوبه الغريب المخالف لنظم وأساليب العرب[1]. هذا هو رأى الأصبهانى والجاحظ فى وجه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم، وقد ألف الجاحظ كتاباً خاصا فى هذا الموضوع بعنوان «إعجاز القرآن فى نظمه».

ومن الذين ذهبوا إلى هذا الرأى أيضاً شيخ البلاغة العربية «عبد القاهر الجرجانى» فى كتابه «دلائل الإعجاز» حيث عرض لبعض آيات الكتاب الكريم ووضح أن مزاياها وإعجازها لا يرجع إلا إلى شيء واحد هو ارتباط الكلمات ببعضها بصورة خاصة يعجز عنها البشر[2].

٢ - رأى القائلين بالنظم والبلاغة معا :

أما جمهور العلماء وعلى رأسهم إمام الحرمين الجوينى، وأبو بكر الباقلانى والقاضى عبد الجبار وغيرهم، فقد ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن البيانى بنظمه الخاص المخالف لنظم العرب وبلاغة النظم معاً.

وفرق إمام الحرمين بينهما بأن النظم الخاص معناه كونه على أسلوب يخالف المعتاد من أساليب العرب، وأما بلاغة النظم فهى بلوغه من الفصاحة والمطابقة لمقتضى الحال الحد الخارج عن طوق البشر. وإنما جعلهما إمام الحرمين وجها واحدا ولم يكتف بالجزالة والبلاغة وحدها حتى لا يدعى بأن قصائد فصحاء العرب قد اشتملت على الجزالة والبلاغة، كما أنه لم يكتف بالأسلوب وحده حتى لايعترض عليه بأسلوب مسيلمة الكذاب ونظمه حيث حاول أن يفرغ بعض السور من ألفاظها ويضع ألفاظا أخرى على نظمها[3].

---

(١) راجع صـ ١٢٠ من الإتقان للسيوطى.

(٢) راجع دلائل الأعجاز صـ ٣٣.

(٣) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٦.

وفى هذا يقول القاضى عبد الجبار: «إن القرآن الكريم جاء بطريقة فذة فى النظم والتأليف مختصة برتبة فى الفصاحة معجزة، وأنه باعتبار الأمرين: الطريقة الفذة فى النظم والاختصاص برتبة الفصاحة يكون الإعجاز»[١].

ويقول ابن عطية فى تفسيره: «الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه».

وهكذا فرأى الجمهور على أن النظم والبلاغة وجه واحد لا يصح التفريق بينهما.

٣ - ومن العلماء من فرق بينهما واعتبر كل واحد منها وجها مستقلا وهو القاضى عياض والقاضى عضد الدين الايجى.

يقول القاضى عياض: «وكل واحد من هذين النوعين: الإيجاز والبلاغة ذاتها، والأسلوب الغريب بذاته نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل واحد خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها خلافا لمن زعم أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب»[٢].

وكذلك فرق عضد الدين الايجى بين النظم والبلاغة واعتبر كل واحد منهما وجها مستقلا[٣].

٤ - ومن العلماء من ذهب إلى أن إعجاز القرآن البيانى بجمعه بين صفتى الفخامة والعذوبة على الرغم من أنهما من الصفات المتعارضة حيث أن العذوبة نتاج السهولة، بينما الجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة - فكان اجتماع الأمرين فى نظمه - مع نبو كل واحد منهما عن الآخر، فضيلة خص بها القرآن.

ذلك أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها فى البيان متفاوتة.

---

(١) المغنى جـ ١٦ صـ ٣١٦ وقارن الإعجاز البيانى لبنت الشاطىء.

(٢) المرجع السابق صـ ١٢٢.

(٣) شرح الموقف جـ ٨ صـ ٤٤.

– فمنه البليغ الرصين الجزل وهو نوع من الكلام لا يخلو من الوحشى المستنكر والغريب المستكره والمعانى البعيدة عن الذهن.

– ومنه الفصيح القريب السهل وهو نوع من الكلام لا يخلو من السهولة والوضوح.

– ومنه الجائز المطلق وهو نوع من الكلام لا يخلو من الإسفاف والابتذال والوضاعة فى الألفاظة والمعانى.

وقد جمع القرآن الكريم بين النوعين الأولين على الرغم من تباعدهما فجاء بعيدا عن الوحشى والغريب والصنعة المتكلفة، ومع ذلك لم يخل من الجزالة والقوة، وفى الوقت نفسه جاء قريباً إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير التناول لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله وهذا ما دفع الخطابى إلى أن يقول إن جمع القرآن بين الجزالة والعذوبة هو وجه الإعجاز فى البيان القرآنى(١).

٥ – رأى الإمام الرازى فى الإعجاز البيانى :

أما الإمام الرازى فقد حاول إبراز فصاحة القرآن بطريقة فريدة لم يشاركه فيها أحد من العلماء ذلك أنه لم يحاول إبراز المحاسن البلاغية فى القرآن وإنما حاول أن يبرز عدة سلبيات وجدت فى كلام الفصحاء فضيعت فصاحته بينما وجدت فى القرآن الكريم فزادته جمالا وبيانا(٢).

يقول الإمام الرازى : إعلم أنه اجتمع فى القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته، ومع ذلك، فإنه فى الفصاحة بلغ النهاية التى لاغاية ورائها ومن ذلك:

١ – أن فصاحة العرب أكثرها فى وصف مشاهدات مثل وصف بعير أو جارية أو ملك، أو وصف حرب أو وصف غارة وليس فى القرآن من هذه الأشياء شىء

---

(١) راجع صـ ١٤ وصـ ٤٦ من إعجاز القرآن للباقلانى وقارن صـ ٢٤ من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٢) يلاحظ أن المادة التى صاغ منها الرازى رأيه مأخوذة من كتاب إعجاز القرآن للباقلانى صـ ٣٦ وما بعدها – إلا أن الرازى عرضها بطريقة فريدة لم يفطن لها الباقلانى.

فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت عليها العرب في كلامهم.

٢ - أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق ونزهه عن الكذب في كل أغراضه وآياته، بينما نجد أن كل شاعر ترك الكذب والخيال في شعره والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيداً، ولذلك نلاحظ أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، بينما نجد أن آيات القرآن منزهه عن الكذب لا تقول إلا الواقع والحق، ومع ذلك جاءت في أرقى درجات البلاغة.

٣ - أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء، فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول وفي القرآن تكرار القصص وتكرار وصف الجنة والنار ومع ذلك فلا يزيده التكرار إلا جمالا وإبداعا.

٤ - أن القرآن اقتصر في أغراضه على إيجاب العبادات، وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، وتوجيه النظر إلى الآخرة وأمثال هذه الأغراض توجب تقليل الفصاحة[1] ومع ذلك جاء في قمة الفصاحة.

ومن أراد أن يفهم هذا الوجه فليقارن بين قصيدة من القصائد التي قيلت في أغراض الحب والهيام ووصف الليل وغير ذلك من أغراض الشعر. وبين الكتابة حول غرض من أغراض القرآن الكريم.

وأخيراً يحاول الرازي أن يلزم العقلاء باعجاز القرآن البلاغي حتى ولو لم يصل إلى قمته فيقول: القرآن لا يخلو أما أن يقال إنه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة فعدم إتيانهم المعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزاً»[2].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ص ١٢٦.

(٢) السابق صـ ١٢٧.

ومعنى ذلك أننا لو افترضنا جدلا أن القرآن لم يصل إلى أقصى درجات البلاغة والفصاحة، وسلمنا بما يقوله الحاقدون من أن فى القرآن آيات أبلغ من آيات أخر، وأن فيه كلمات غير عربية، وأن فيه متشابهات، وتكراراً[1] وغير ذلك من الشبه أقوال لو سلمنا جدلا بأن القرآن لم يبلغ الغاية القصوى فى البلاغة، فإن ذلك يكون أدخل فى باب الإعجاز – لأنه كان بهذه البساطة كما يدعون ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله، أو على حد تعبير سعد الدين التفتازانى «إن عدم ظهوره فى أقصى درجات البلاغة والفصاحة أو فى بالغرض، وهو بمنزلة صانع يبرر من مصنوعاته ما ليس غاية مقدوره ثم يدعو جماهير الحذاق فى الصناعة إلى أن يأتوا بمثل ما آتاه»[2].

وأخيراً فإن هذا هو رأى الإمام الرازى فى هذه القضية والرأى فى مجموعة لا غبار عليه إلا أن لنا عتابا بسيطا عليه، فى دعواه أن حسان بن ثابت ولبيد بن ربيعه حين أسلما هبط شعرهما الإسلامى ولم يكن كشعرهما الجاهلى.

ذلك أن شعر هؤلاء الشعراء لم يهبط وإنما زاد رقة وعذوبة، لأن الإسلام رقق مشاعرهم وهذبهم وغير ما فى نفوسهم وقلوبهم من صفات الجاهلية بما تحتوى عليه من كفر وفسق وظلم وكبر و عدم مراعاة لحقوق الآخرين ويعبر عن هذه المعانى التى كان يدور حولها شعرهم قول عمرو ابن كلثوم:

ونشـــــرب إن وردنا الماء صـــــفـــــوا
ويشـــــرب غـــــيـــــرنا كـــــدرا وطينا

وإذا بلـغ الرضـــــيع لنا فطامـــــا
تخـــــر له الجـــــبـــــابر ســـــاجـــــدينا

فالإسلام حينما جاء، غير هذه النفوس، وطبعها بطابعه الأخلاقى. ومن هنا رق شعرهم وأصبح أكثر عذوبة – ولكنه لم يسقط ولم يهبط عن شعرهم الجاهلى.

أما إذا كانت نظرة الرازى إلى قوة الألفاظ وجزالتها، فهذه نظرة ضيقة، لأن العبرة فى الشعر ليست باللفظ وحده، بل بالمعنى أيضاً. بل إن القرآن أعطاهم

(١) راجع المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٧.
(٢) السابق نفس الموضع.

ثروة لفظية، وقدرة على استخدام اللفظ، كما أن القرآن بهرهم باعجازه وافحمهم ببيانه حتى أن بعضهم أمسك عن الشعر ولم يقل شيئاً وهو لبيد بن ربيعة وحينما سئل عن ذلك قال أبدلني الله به سورة البقرة وآل عمران[١].

وبعد عرض هذه الآراء العديدة في إعجاز القرآن البياني فإننا نقرر أنها كلها آراء صحيحة ولابد من الأخذ بها جميعا عند تقرير إعجاز القرآن الكريم فكل وجه منها مستقل ويثبت إعجاز القرآن في حد ذاته، ولكن الجمع بينها واعتبارها جميعا، يجعلها تعضد بعضها بعضا في إبراز الصورة الكاملة لإعجاز القرآن البياني وهذا ما سوف نقوم به من خلال المبحث التالي الذي سنتحدث فيه عن بعض صور الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

صور الإعجاز البياني في القرآن الكريم

لقد اشتمل القرآن الكريم على كل وجوه البيان والفصاحة التي استخدمها العرب في لغتهم وآدابهم وأشعارهم. ولكن استخدام القرآن لها كان استخداما جديدا لم يعهد في اللغة العربية فكل صورة من صور الإعجاز البياني تشكل معجزة في حد ذاتها.

وسوف نحاول فيما يأتي أن نشير إلى بعض صور ووجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

الوجه الأول:

اشتمال القرآن الكريم على أساليب البلاغة من الاستعارة والكناية، والتشبيه، والمجاز وبراعة الاستهلال وحسن الختام وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم، ومما سوف يتضح من خلال الاقتباسات القرآنية التالية:

إقرأ في التشبيه البليغ قول الله تعالى: «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»[٢].

---

(١) قارن ص ٢٦٩ جـ ١٦ من المغني للقاضي عبد الجبار.

(٢) سورة النور ٣٩.

«مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا»[١] «فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث»[٢].

واقرأ في الاستعارة قول الله تعالى «ولما سكت عن موسى الغضب»[٣] «والصبح إذا تنفس»[٤] «واسأل القرية التي كنا فيها»[٥].

«وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر»[٦].

هذه الآية التي استخرج منها ابن أبي الأصبع نحوا من عشرين صورة من الصور البيانية، إذ يقول في كتابه بدائع القرآن «وما رأيت ولا رويت في الكلام كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضربا من البديع وعددها سبع عشرة لفظة»[٧].

والخلاصة أن كل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم تحتوي على معان بيانية وبلاغية وهذا ما يجعلنا نكتفي بما ذكرنا من الاقتباسات ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب الله تعالى، وأما فاقدو الحس البياني فعليهم بالرجوع إلى التفاسير العديدة التي كشفت عن ما في القرآن من الصور البيانية.

وقد اختلف العلماء في مدى تفاوت درجات البلاغة في القرآن الكريم وهذا ما سوف نعالجه في الأسطر التالية:

- لا تفاوت في درجات البلاغة في القرآن :

بعد اتفاق العلماء على أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة، اختلفوا في تفاوت درجات البلاغة فيه:

---

(١) الجمعة ٤.
(٢) الأعراف ١٧٦.
(٣) الأعراف ١٥٤.
(٤) التكوير ١٨.
(٥) يوسف ٨٢.
(٦) هود - ٤٤.
(٧) قارن ص ٥٦ من النظم القرآني في سورة الرعد - محمد بن سعيد الدبل.

فذهب بعضهم ومنهم - أبو نصر القشيرى والعز بن عبد السلام إلى أن هناك تفاوتا فى درجات البلاغة فى القرآن، ففيه الأفصح والفصيح وقارن بعضهم بين قول الله تعالى «وقيل يا أرض ابلعى ماءك» وقوله «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون».

وحجة هؤلاء : أنه لو جاء القرآن كله فى الدرجة العليا، لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح فلا تتم الحجة فى الإعجاز لأنهم سيقولون أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه(١).

- وذهب الجمهور إلى أن جميع القرآن ومجموعه فى الدرجة العليا من الفصاحة، وأما ما يتوهمه البعض من كون بعض الآيات أرقى بلاغة من آيات أخرى، فذلك راجع إلى درجة إحساس الإنسان نفسه، فبعض الناس أشد إحساسا وإدراكا لبلاغة بعض الآيات دون البعض، وليس معنى ذلك أن البعض الذى لم يُدرك ناقص فى الدرجة عن البعض الآخر، ذلك أن القرآن كله فى أقصى درجات البلاغة، وهذا ما يميز القرآن عن أشعار العرب وآدابهم، فقد احتوت هذه الآداب على فنون كثيرة من البلاغة، ولكنها تفاوتت علوا ونزولا، ففى القصيدة الواحدة نجد أبياتا بليغة وأخرى أقل بلاغة، أما القرآن الكريم فقد جاء كله فى الدرجة العليا من البلاغة والفصاحة، على اختلاف أغراضه ومقاصده من العقائد إلى السياسة والاقتصاد والاجتماع والحدود والجنايات، وكلها أغراض لا تساعد على الوصول إلى الدرجة العليا.

ومع ذلك بلغ القرآن فيها أقصى درجات البلاغة والفصاحة لدرجة أنك لا تجد فى اللغة العربية كلمة واحدة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها، وما تعطيه من معنى ومناسبة لما قبلها وما بعدها(٢).

لا فرق فى ذلك بين آية وآية ولا بين سورة وسورة، فقد انبهر العرب واندهشوا بقليل القرآن الذى نزل قبل أن يكتمل، وهذا دليل قاطع على أن كل آية فيه قد بلغت أرقى درجات البلاغة والفصاحة.

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٢٣.

(٢) سعيد حوى - الرسول ص ٣٠٣.

الوجه الثاني:

نقض القرآن لعادة الناس في الحديث حيث جاء بطريقة جديدة في صورتها لم تعهدها البشرية من قبل، لا في أسلوب الحديث ولا في طريقته، متميز في مطالبه وفواصله ومقاطعة. وصورته العامة عن صور الكلام المعتاد في لغة العرب، وهذا أمر بين لمن عنده أدنى تذوق للغة العربية، فليأت من شاء بما شاء من نص لخطيب مفوه أو لشاعر مفلق أو لأديب بلغ النهاية في البلاغة والفصاحة، وليسمع هذا النص بأذنه، ثم ليسمع بعده آيات من كتاب الله. وسوف يدرك على الفور أن البعد بين الأسلوبين البشري والآلهي، بعد ما بين السماء والأرض، فللقرآن صورته الخاصة التي لا يمكن أن تشاركه فيها أية صورة من صور كلام العرب المعهودة.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل، وتوضيح. ذلك أن مراتب تأليف الكلام وصوره المعتادة عند الناس خمس:

الأول : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل الكلمات الثلاث وهي الإسم والفعل والحرف.

والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل الجمل المفيدة وهذا النوع هو الذي يستخدمه الناس في حديثهم ويسمى بالنثر.

الثالثة : ضم بعض ذلك ضما مقصودا بحيث يكون له مبادىء ومقاطع ومداخل ومخارج يقال له المنظوم والمنظوم ينقسم إلى خطابة ورسالة.

الرابعة : أن يعتبر في أواخر الكلام مع ما سبق - تسجيع وتناسب في الخواتيم ويقال له «السجع».

الخامسة : أن يراعي مع ذلك الوزن - ويقال له الشعر[١].

إذا فصور الكلام التي تعارف عليها الناس هي:

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٢٠.

الشعر بأنواعه وبحوره – السجع – النثر– النظم الذى ينقسم إلى خطب ورسائل.

ولكن القرآن نقض عادة الناس فى الحديث ولم يأت على طريقة من الطرق المعروفة ولا على صورة من الصور المعهودة على الرغم من استخدامه للمادة نفسها التى يستخدمها الناس فى كلامهم وهى اللغة العربية بحروفها وأسمائها وأفعالها.

وهذا ما يشير إليه القاضى الباقلانى بقوله: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وحقاً فإن القرآن الكريم قد أتى بطريقة فذة فى نظمها وأسلوبها إذا لم يعهد فى كلام العرب من قبل أن يبدأ الحديث بـ (الم) ولا (حم) ولا (أقترب للناس حسابهم» ولا (ياأيها الناس) (وياأيها الذين آمنوا).

ولم يعهد فى كلام الناس كون الفواصل على هذا النمط القرآنى الرائع «إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» بعد كلام يدل على النظر واستخدام الفكر «وهو على كل شىء قدير» بعد كلام يدور حول قدرة الله ولم يعهد تقسيم الكلام إلى سور طويلة وقصيرة ومتوسطة. نعم لم يعهد هذا الأسلوب أبداً فى لغة العرب وهذا ما يشير اليه الرمانى بقوله: «إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة»[1].

ومع أن القرآن قد جمع محاسن وفضائل هذه الطرق المعروفة إلا أنه لم يأت على صورة منها، بل كان من حيث النظم «نسيج وحده» وفريد لا شبيه له ولا نظير.

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٨ تحقيق محمد خلف الله وزغلول سلام.

ولنأخذ على هذا الوجه مثلا واحدا هو قول الله تعالى فى سورة هود عليه السلام «وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين، وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين».

استمع إلى هذه الآيات وتأمل مافيها من بديع التنسيق وعجيب النظم، وجميل الفواصل بين الآيات، وكيفية تركيب الحروف وارتباط الكلمات بعضها ببعض، الكلمة الأولى مع الكلمة الثانية وما بعدها إلى نهاية الآية، فيبدو الجمال والعجب من خلال هذا الربط المحكم.

ولنترك هذا التعميم ونفصل ما فى الآية الأخيرة من عجيب النظم. حيث بدأت بياء النداء دون غيرها من أدوات النداء نحو «يا أيتها الأرض» مثلا. ونداء الأرض فى حد ذاته شىء جميل وأمرها ببلع الماء شىء فريد، وإضافة الماء إلى الكاف فى (ماءك) دون أن يقول «أبلعى الماء» شىء له معنى، ثم عقب ذلك بنداء السماء وأمرها بما هو من شأنها ثم قال «وغيض الماء» فجاء بالفعل مبنيا للمفعول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر وقدرة قادر. ثم أكدت الجملة التالية هذا الأمر وقررته «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو النتيجة من هذا الأمر «واستوت على الجودى» ثم قابل «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» فى الفاتحة وختمت الآية بهذا الختام المناسب للمقام «وقيل بعداً للقوم الظالمين» وقد اقتبسنا بعض فقرات هذا التعليق من نص لشيخ البلاغة» عبد القاهر الجرجانى والذى عقب عليه بقوله: إن هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة وهيبة تحيط بالنفس من أقطارها. مرجعها إلى ما بين معانى الألفاظ من الإتساق العجيب»[1].

إذا فنظم ألفاظ القرآن وإرتباط معانيها وجه من وجوه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم.

---

(١) راجع ص ٣٣ من دلائل الإعجاز.

وقد اعترض البعض على هذا الوجه بأن فى القرآن بعض آيات جاءت على أوزان الشعر، وآيات أخرى جاءت على صورة السجع، فكيف يدعى أنه نظم فريد فى ذاته : وسوف نعالج هذه الشبهة فيما يأتى :

١ - شبهة الشعر :

إدعى بعض المشككين أن فى القرآن آيات جاءت على أوزان الشعر وبحوره كقوله: «ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»[1].

فقد ادعوا أنه جاء على بحر الوافر «مفاعلتن ست مرات».

وقوله : «أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم» فهو من بحر الخفيف «فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن» وقد ضمن أبو نواس هذه الآية شعره فقال:

وقـرا مـعلنا ليصـدع قلبـى والهـوى يصـدع الفـؤاد السـقيـما
أرأيت الذى يكـذب بالـديـن فـذاك الذى يدع اليـتـيـمـا

ومن ذلك قول الله تعالى: «والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسراً»، فهو عندهم من بحر البسيط (مستفعلن فعلن)، أربع مرات.

وغير هذا من الآيات التى ادعى المشككون أنها على وزن الشعر. وقد جمعها صاحب المقاصد[2] غير أنه رد عليها ردا مقتضبا مما دفعنا إلى الرد المفصل.

المناقشة:

لاشك أن القرآن الكريم له أسلوبه الخاص، ونظمه المحدد الذى لا يشاركه فيه غيره ومن هنا نفى القرآن عن نفسه شائبة الشعر فقال: «وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»[3].

---

(١) التوبة ١٤.
(٢) راجع صـ ١٣٨ جـ ٢ من المقاصد.
(٣) يس ٦٩.

هنا نلحظ أن الآية قد حددت نظم القرآن فهو قرآن وهو ذكر – في مقابلة الشعر وقال. «وما هو بقول شاعر»(١) بل ذم الشعراء فقال: «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً»(٢) نلحظ أن الآية قد استثنت من عموم الشعراء المذمومين، أولئك الشعراء الذين جندوا أنفسهم لنصرة الدين، والتزموا الصدق في القول:

وقد حدث عند نزول هذه الآية أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك جاءوا إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون: فقال قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

فليس الشعر منهيا عنه لأنه شعر ولا لأنه موزون، وإنما المنكر في الشعر ماينكر في كل كلام يجري بالسوء أو يغري به ويستدرج إليه مثل أشعار الخلاعة والمجون والكذب، وما عدا ذلك فقد كان النبي يسمعه ويجيزه(٣).

بل إن النبي قد حدد مبدأ الالتزام للأديب والشاعر ورسالتهما في الدفاع عن قضايا الحق حين قال: «ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»(٤).

ومن هنا قال الإمام الغزالي: «لاينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس وقد قال (ﷺ) إن من الشعر لحكمة»(٥).

وأما ما أورده المشككون من الشبه في هذا الوجه فيمكن الرد عليه بما يأتي:

---

(١) الحاقة (٤١).

(٢) الشعراء (٢٢٤ – ٢٢٥ – ٢٢٦ – ٢٢٧).

(٣) عباس محمود العقاد صـ ٣٥٨ من المجموعة الكاملة.

(٤) قارن صـ ٢٢ من البحث العلمي «مناهجه وتقنياته» د. محمد زيان عمر.

(٥) الإمام الغزالي – إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ٣٦ وراجع صـ ١١٥ وما بعدها من كتاب الإعجاز في دراسات السابقين – عبد الكريم الخطيب القاهرة ١٩٧٤.

أولا : أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا أعرف الناس بالشعر وكانوا هم الشعراء بحق فلو كان القرآن شعرا فما - كان - أسهل من معارضته:

ويكفينا فى هذا شهادة عالم بأصول الشعر هو المغيرة بن شعبة الذى قال لقومه حين ادعوا على القرآن أنه شعر «والله ما فيكم رجل أعلم من الشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، ووالله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا»(١).

ثانيا : لو كان القرآن شعراً لما آمن به فطاحل الشعراء من أمثال حسان بن ثابت والخنساء وكعب والحطيئة ولبيد وهم الأعلمون بأصول الشعر الأعرفون بطبيعته وروحه وبحوره(٢).

وتروى كتب السيرة أن الطفيل بن عمرو الدوسى، وكان رجلا شاعراً وأديباً- قد ذهب إلى مكة، فراح صناديد قريش يحذرونه من كلام محمد ويدعون أن قوله كالسحر يفرق به بين المرء وأهله بل بين المرء ونفسه.

ولكن الطفيل قال فى نفسه: «والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسنا قبلته وإن كان قبيحاً تركته».

فذهب إلى رسول الله ﷺ وقص عليه ما دار بينه وبين المشركين وما حدثته به نفسه فتلى عليه الرسول بعض آيات من كتاب الله، فإذا به يدخل فى الإسلام حيث أدرك أن ماقاله محمد لا يمكن أن يكون نمطا من أنماط كلام البشر(٣).

بل إن لبيد بن ربيعة عندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه، قال بعض أبيات وعلقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتياز لم تدركه إلا

---

(١) سيرة ابن هشام وراجع صـ ٢٣٤ جـ ١ من كتاب الشفاء القاضى للقاضى عياض حيث ينقل قصة إسلام أنيس أخى أبى ذر - وقد كان أنيس من أشعر العرب وقد حاول أن يوازن بين القرآن والشعر فانتهى به الأمر إلى الإسلام حين أدرك بعد الفرق بين القرآن والشعر.

(٢) سعيد حوى - الرسول ص ٢٤١.

(٣) راجع صـ ١٧٢ من حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل.

فئة قليلة من كبار شعراء العرب. وحين رأى أحد المسلمين هذه الأبيات أخذته الغيرة فكتب بعض آيات من القرآن الكريم - وعلقها إلى جوار أبيات لبيد. ومر لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى - ولم يكن قد أسلم بعد - فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنه صرخ من فوره قائلا والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين(١).

ترى لو كان القرآن شعراً هل كان من الممكن أن يؤمن به هؤلاء الشعراء المفلقون، إن منطق العقل يقول لا، ولكن هؤلاء أسلموا وآمنوا بالقرآن من كل قلوبهم وسلموا بأنه بعيد كل البعد عن أن يكون شعرا.

ثالثا : أن هناك فرقا شاسعا بين طبيعة الشعر وأغراضه وروحه وبين القرآن الكريم.

فالشعر إنما يقوم على التخييل وتصوير الباطل فى صورة الحق والإفراط والمبالغة فى الذم أو المدح.

أما القرآن فهو منبع الحق ومجمع الصدق لا كذب فيه ولا مبالغة ولا بعد عن الحقيقة والواقع أبداً(٢) ويفرق الشهيد سيد قطب بين طبيعة الشعر وطبيعة القرآن بأن الشعر انفعالا أولا ثم تعبير عن هذا الانفعال ثانيا، والظاهرة الانفعالية من طبيعتها التغير والتقلب من حال إلى حال:

أما القرآن فقائم على أساس النبوة، فهو وحى على منهج ثابت لاتقلب فيه ولا تغير(٣) وإنما يسير على منهج الله فى الحديث «ومن أصدق من الله قيلا»(٤).

رابعا : أن للشعر مفهوما علميا محددا لا يمكن أن ينطبق على القرآن الكريم، فقد عرفوه بأنه الكلام الموزون المقفى المقصود لذاته.

---

(١) راجع صـ ١٥٥ من كتاب المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن عميرة.

(٢) الاتقان جـ ٢ صـ ١٢٣.

(٣) راجع فى ظلال القرآن صـ ٢٩٧٥ وقارن من قضايا النبوات صـ ١٠٤ وما بعدها.

(٤) النساء - ١٢٢.

وعلى هذا فما يرد على ألسنة الناس عفوا من كلام موزون أو مقفى لا يعد شعرا، لأنه غير مقصود إليه، وإلا فسوف يكون الناس كلهم شعراء، فنحن نسمع من العامى قوله «اغلق الباب وائتني بالطعام» فهو من بحر الخفيف وعلى وزن (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن).

وقد يقول آخر «اسقني الماء يا غلام سريعا» وهى على نفس الوزن السابق.

فهذا وأمثاله لا يمكن أن يكون شعراً حتى ولو أتي على وزن الشعر لعدم القصد إليه.

ومن هنا قال العلماء أن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا.

يقول ابن سنان الخفاجي «أقل ما يقع عليه اسم الشعر بيتان لأن التقفية لا تمكن في أقل منهما ولا تصير في البيت الواحد، لأنها مأخوذة من قفوت الشيء إذا تلوته»[١].

وأما الرجز فإنه يعرض في كلام العوام كثيرا، وقيل إن أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها، ولم يقع ذلك في القرآن أبداً[٢].

وهكذا تتلاشى هذه الشبهة ويحتفظ القرآن بنظمه الخاص الذى لا يشاركه فيه أى نظم بشرى.

٢ - شبهة السجع :

ادعى البعض أن القرآن الكريم قد جاء على طريقة معهودة فى الحديث عند العرب وهى طريقة السجع، واستدلوا على هذا بالآيات التى توالت فيها فواصل القرآن وآياته على نسق واحد كقوله «الرحمن - علم القرآن - خلق الإنسان».

وقوله (والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وماقلى» وغيرها من الآيات.

---

(١) راجع كتاب سر الفصاحة للخفاجى صـ ٣٢٨.

(٢) راجع صـ ٥٣، ٥٥ من إعجاز القرآن.

المناقشة:

يمكن تلخيص الرد على هذه الشبهة فيما يأتى :

أولا : شبهة وجود السجع فى القرآن من الشبه التى لا تقوم على أساس ولا برهان، ولو عاد هؤلاء إلى أحاديث الرسول لعرفوا طبيعته البعيدة كل البعد عن التكلف، فقد كان الرسول ﷺأشد الناس كراهية للتكلف فى الكلام حتى قال «هلك المتنطعون» والتنطع فى الكلام التعمق فيه والتفاصح(١).

والسجع إنما يقوم أول ما يقوم على التنطع فى الكلام والتكلف فيه فكيف يقع السجع فى القرآن الكريم وقد ذمه الرسول صراحة حين جاءه رجل «هذلى» يجادل في ديه جنين قتله، فقال: كيف ندى من لاشرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل؟ (يهدر) فقال الرسول ﷺ «أسجع كسجع الكهان وفى رواية أسجع كسجع الأعراب(٢).

فهل يعقل أن يذم الرسول ﷺ السجع بهذه الصورة ثم يأتى السجع فى القرآن؟ وخصوصا أن الكهانة تنافى النبوة.

ثانيا : أن ما وقع فى القرآن مما ظاهره السجع إنما كان لوناً آخر من ألوان البلاغة والفصاحة وهو الفواصل: وفرق شاسع بين السجع وبين الفواصل فالفواصل هى حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى، كما أن الفواصل تابعة للمعانى – أما الأسجاع فالمعانى تابعة لها، وهذا معنى ما قاله الباقلانى: «إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع، أما الفواصل فهى تابعة للمعانى»(٣).

ويوضح ابن سنان الخفاجى هذا النص بقوله: «إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى نفسها»(٤).

---

(١) النبأ العظيم صد ٩٩.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) إعجاز القرآن ص ٢٧١ وقارن ص ٩٠ وما بعدها من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.
(٤) د. عائشة عبد الرحمن – الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٤١.

وبمعنى أوضح أن اللفظ فى نهاية الفاصلة القرآنية إنما يوضع لكى يؤدى معنى مقصوداً ولا يمكن أن يؤديه لفظ آخر، أما السجع فمن الممكن أن نضع لفظاً مكان لفظ مرادف ولا يختل المعنى.

وتعطينا الدكتورة بنت الشاطىء بعض الأمثلة التى توضح ذلك ومنها: قول الله تعالى «إن علينا للهدى، وإن لنا للآخرة والأولى[1]» التى وردت فى سورة والليل إذا يغشى والتى انتهت فواصلها كلها بحرف الياء..

وقد قال بعضهم: إن القرآن قد عدل عما هو مألوف ومعروف ومنطقى من تقدم الأولى على الآخرة وذلك مراعاة للسجع. والواقع غير ذلك، فليس القصد من رعاية الفاصلة هو الذى أدى إلى التقديم والتأخير وإنما المعنى هو الذى اقتضى ذلك لأن الآية وردت فى سياق البشرى والوعد – ولا شك أن ذلك يقتضى تقديم الآخرة فهى خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد. ومثال آخر فى سورة الزلزلة التى ختمت بقوله «بأن ربك أوحى لها» حيث عدى أوحى باللام – وإن كان المشهور تعديتها بإلى – وذلك لمراعاة السجع.

ولكن الواقع غير ذلك أيضاً، فحين نستقرأ فعل الإيحاء فى القرآن نلاحظ أن فعل الإيحاء لا يتعدى بإلى إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء وقد ورد بهذه الصورة فى سبع وستين آية، وأما حين يكون الموحى له جماد فالفعل يتعدى باللام كما فى آية الزلزلة أو بفى كما فى آية فصلت «وأوحى فى كل سماء أمرها» وإذن فالأمر ليس عدولا لمراعاة الفواصل بل التعدى باللام مقصود لمعناه حيث أن الموحى إليه جماد وهو الأرض[2].

إذاً ففواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعانى، أما السجع فليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كسجع مسيلمة الكذاب أو كسجع الحمامة حين تنطق بأصوات متوالية على وتيرة واحدة بلا فائدة ولامعنى.

---

(١) الليل ١٢ – ١٣.

(٢) المرجع السابق ٢٥٨.

ونأخذ على هذا مثلا من سورة الفلق التي ظن البعض أنها شبيهة بسجع الكهان، لكى ندرك أن الفواصل لها دور فى إفهام المعانى. بدأت الآية بالاستعاذة برب الفلق وهو الفجر وهو الأنسب للاستعاذة به من ظلام ما سيأتى «مما خلق، ومن الغاسق، والنفاثات والحسد» يعوذ برب الفجر «من شر ما خلق» هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة وهذا ملائمة للغموض والظلام المعنوى فى العموم «ومن شر غاسق إذا وقب» وهو الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شىء «ومن شر النفاثات فى العقد» وجو النفث فى العقد من الساحرات كله رهبة وخفاء وظلام، بل هن لا ينفثن غالبا إلا فى الظلام «ومن شر حاسد إذا حسد» والحسد انفعال باطنى مطمور فى ظلام النفس.

إذاً فالجو كله ظلام ورهبة وخفاء وغموض، وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله وهو رب كل شىء، فلم خصصه هنا برب الفلق؟ لينسجم مع جو الصورة كلها.

وليس فى هذا البيان شىء من التمحل، وليست هذه الفواصل كلها بلا هدف، وليست المسألة مجرد توالي حروف على وتيرة واحدة إنما هى مسألة لوحة وجو معين وتنسيق خاص يرسمه القرآن من أجل إيصال معان معينة(١)، وأحيانا يكون الهدف من الفواصل التعبير بإيقاع موسيقى معين وهذا ما سوف نفصله حينما نتحدث عن التصوير الفنى فى القرآن.

ثالثاً:

لو كان ما وقع فى القرآن سجعاً، لقاله المشركون، ولحاولوا معارضته، فما أسهل السجع، وما أكثر أصحاب السجع المطبوعين من العرب، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، مما يدل على أن القرآن الكريم قد أتى بنظم فريد فى ذاته لا يشبه شيئاً من الأساليب المعهودة فى كلام العرب.

وقد اعترض بعض الباحثين على هذا الوجه من زاوية أخرى حيث ادعى أن الاختلاف فى شكل الكلام لا يقتضى لذاته تفاضلا، فلا اعتبار للشكل، ولكن

---

(١) راجع التصوير الفنى فى القرآن ص ٩٥ وما بعدها.

الاعتبارات يجب أن تكون للمضمون وذلك باشتمال الكلام على أصول البلاغة، ولو صح أن نقض العادة بضروب جديدة من قوالب الكلام يمكن أن يكون واحدا من أسس الإعجاز فى القرآن، يصح لكتاب المسرحيات أن يزعموا لأنفسهم شيئاً من الإعجاز لأنها صورة من صور الأداء الفنى لم تكن معروفة عند العرب ومثلها المقالات، واليوميات، والمقامات فكلها أنماط جديدة لا عهد للعرب بمثلها(١).

إلى هذا الرأى ذهب الدكتور عبد الرءوف مخلوف – متابعاً طه حسين فى كتابه «فى الأدب الجاهلى».

والواقع أن هذا الاعتراض فى غير محله، لأن أية صورة من صور كلام البشر كانت قديمة أو حديثة فهى لا تخرج عن الصور المعدودة فالمسرحيات واليوميات والمقامات وكل ما يستجد من صور الكلام لا يخرج عن كونه نثراً أو شعراً فهى أفراد تحت الأنواع الكلية، ولكنها ليست بأنواع جديدة للكلام.

ثم ما المانع أن نعتبر صورة القرآن وجها من وجوه الإعجاز البيانى خصوصاً إذا كان خروجا عن المألوف – ثم نعتبر المضمون والمحتوى وجهاً آخر وهذا ما قال به كثير من الباحثين.

الوجه الثالث:

ومن مظاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم:

وضع اللفظ فى موضعه المناسب : بحيث لو وضع مكانه لفظ آخر لما أدى المعنى المقصود أبدا، أو كما يقول ابن عطية فى تفسيره: إن كتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

ولنأخذ بعض الأمثلة التى تؤكد هذا الوجه.

يقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض»، فهنا كلمة اثاقلتم إنما وضعت لكى ترسم صورة معينة لأولئك المتقاعسين عن الجهاد فى سبيل الله، ولو أننا غيرنا اللفظة بكلمة «تثاقلتم»

(١) د. عبد الرءوف مخلوف – الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن ص ١٩٩.

لما أدت المعنى المنشود إذ اللفظة القرآنية فيها هذا التثاقل الشديد الذى يرسم صورة هؤلاء الهاربين من الجهاد فى سبيل الله، وفى آية أخرى نلاحظ دقة التعبير باللفظ.

يقول الله تعالى على لسان هود: «قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» فكلمة أنلزمكموها تصور جو من الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض، ولو اخترنا أى لفظ فى اللغة العربية للتعبير عن هذه الصورة لما وجدنا. ونسمع إلى لفظة أخرى ترسم صورة بأكملها هى لفظة «يصطرخون» التى وردت فى قوله تعالى: «والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل».

فوقع هذه الكلمة وجرسها الغليظ يخيل إلينا غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقى هذه الكلمة ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذى لايجد من يهتم به، ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذى هم فيه يصيحون[(١)]، فهذه لفظة ترسم لوحة متكاملة، ولو أننا بحثنا فى اللغة العربية عن كل مترادفات هذه اللفظة ووضعنا واحدة منها مكانها، لما أدت المعنى الذى أدته اللفظة القرآنية.

ويطبق الإمام الخطابى هذا الوجه على كلمة «فأكله الذئب» التى وردت على لسان إخوة يوسف، وهل من الممكن أن نضع مكانها كلمة «افترسه» فهى فى ظاهرها قد تبدو أقوى من أكله وأكثر إفادة للمعنى، ولكن عند النظرة المتأنية نلاحظ أن كلمة «افترسة» لا يمكن أن تحل محل اللفظة القرآنية، لأن الافتراس معناه فى فعل السبع - القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق - وما أراد أخوة يوسف أن يقولوا ذلك، إنما أرادوا أن يقولوا إن الذئب قد أكله أكلا - وأتى على جميع أعضائه فلم يترك منه عظما ولا لحماً.

(١) الشهيد سيد قطب - التصوير الفنى ص ٧٦ وما بعدها.

ذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة - وكلمة افترس لا يمكن أن تعطى المعنى الذى أعطته (أكل)(١).

وتأمل معى موضع كلمة (ليأخذوه) فى هذه الآية الكريمة من سورة غافر «وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» وهل تقع فى الحسن والإيحاء بالمعنى المقصود مع قوله «ليأخذوه» كلمة؟ وهل تقوم مقامها فى الجزلة لفظة؟

لنحاول ذلك ونضع مكانها مترادفاً من المترادفات «ليقتلوه» «ليرجموه» «لينفوه» «ليطردوه» «ليهلكوه» «ليذلوه» كلا!! لا تستطيع أية كلمة أن تعطى صورة وإيحاء «ليأخذوه» التى عبر بها القرآن الكريم فكشف بها عن مدى ما يعتمل فى نفوس أعداء الأنبياء فهم يريدون أن يأخذوه ويصنعوا به كل ما ذكر من المترادفات وما هو أكثر.

ثم تأمل معى قول الله تعالى: «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. والله يقضى بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء. إن الله هو السميع البصير»(٢) واستمع إلى ما يقوله الإمام الباقلانى عن وضع كل كلمة فيها: يقول الباقلانى:

إن كل كلمة من كلمات هذه الآية إذ رآها الإنسان فى رسالة كانت عينها أو فى خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، كالياقوتة التى تكون فريدة العقد، وعين القلادة، ودرة الشذر(٣) إذا وقع بين كلام وشحه، وإذا ضمن فى نظام زينة، وإذا اعترض فى خطاب تميز عنه وبان بحسنه منه(٤).

---

(١) راجع ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٣٧ وما بعدها.

(٢) سورة غافر الآيات ١٨ - ٢٠.

(٣) الشذر ما يلقط من الذهب من المعدن من غير إذابة الحجارة، والقطعة منه شذره والشذر أيضاً صغار اللؤلؤ راجع مختار الصحاح.

(٣) إعجاز القرآن ص ٢٠٠

وهكذا فكل لفظة فى كتاب الله إنما وضعت لكى تؤدى معنى معيناً لا يمكن أن تؤديه سواها، وهذا ما يشير إليه الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله: «فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد (...) ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ فى معناه إلا مكانه الأمين وقراره المكين».

وهذا أمر طبيعى، لأن القرآن كلام الله الذى أحاط بكل شىء علما فإذا وضع لفظة علم بشمول علمه - أى لفظة تصلح لأن تكون بعدها، ومَنْ مِنَ البشر يستطيع ذلك؟ والبشر من صفاتهم الجهل والنسيان، ولو وجد كاتب يستطيع أن ينسق عبارة ويجمع كلماتها بصورة بلاغية، فإننا نجد باقى عباراته فاقدة لهذه الميزة فما بالك والقرآن من أوله إلى آخره على هذا النمط المعجز حتى أنك لا تجد كلمة واحدة تشذ عن مكانها، فهذا من أعظم البراهين على أنه كلام العالم الذى وسع كل شىء علما.

الوجه الرابع:

- ومن وجوه البيان فى القرآن الكريم حسن الترتيب وجميل التناسب بين الآية والآية، وبين السورة والسورة حتى أن القرآن كله ليشكل وحدة موضوعية متماسكة.

- إذ نلحظ أن الآية مكونة من مجموعة من العبارات موضوعة فى نسق خاص من البداية إلى الخاتمة حتى لكأنها كلمة واحدة.

- ونلحظ أن كل آية فيه هى تفصيل لما قبلها وتمهيد لما بعدها.

- ومن ذلك أيضاً هذا التسلسل المعنوى بين الأغراض فى سياق الآيات، والتناسب والانتقال من غرض إلى غرض.

- فإذا ما تركنا العلاقة بين الآية والآية نجد أن العلاقة البديعة بين السورة والسورة، إذ نلحظ أن كل سورة هى تفصيل لإجمال، وإطناب لإيجاز ورد فى

السورة التي قبلها، وتمهيد لما بعدها، وهذه قاعدة عامة في القرآن الكريم لم تشذ عنها آية من الايات ولا سورة من السور(١).

يقول الفخر الرازي: « من تأمل في لطائف نظام السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»(٢).

ويزيد إعجاز هذا الوجه حين نعلم أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة وإنما نزل في خلال ثلاث وعشرين سنة، وكان الرسول حينما تنزل عليه آية من الايات يقول ضعوها في مكان كذا من سورة كذا حتى تم القرآن الكريم وإذا به منتظم متآلف منسجم مترابط كأنه نزل مرة واحدة، ولذلك فإن من يقرأ القرآن دون أن يعلم أنه نزل منجماً لا يستطيع أن يدرك ذلك أبداً، بل إن الذي يعلم ذلك لا يستطيع أن يفرق بين السور التي نزلت منجمة وبين السور التي نزلت مرة واحدة من حيث إحكام الربط في كل منهما، فسورة البقرة مثلا نزلت على بضع وثمانين مرة في خلال تسع سنين حيث جمعت بين آيات تحويل القبلة التي نزلت في السنة الثانية للهجرة وبين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق وهو آية «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» بينما نزلت سورة الأنعام مرة واحدة ومع ذلك فالوحدة في الأسلوب والتآخي بين الآيات شائع في كل منهما بلافرق»(٣).

إذا فالوحدة الأسلوبية وحسن الترتيب بين الآيات مع كون القرآن نزل مفرقا ولم ينزل دفعة واحدة إعجاز فوق إعجاز.

والجدير بالذكر هنا أن سر ترتيب القرآن وصل إلى حد أن أصبح علما مستقلا بذاته كتب فيه كثير من العلماء، ومنهم البقاعي في كتابه «نظم الدرر» وأبو جعفر بن الزبير في كتاب «البرهان في مناسبة ترتيب القرآن» والسيوطي في كتاب «أسرار ترتيب القرآن».

---

(١) راجع ص ٧٨ من أسرار ترتيب القرآن للسيوطي.
(٢) السابق ص ٤٠.
(٣) راجع ص ٣٦ جـ ٢ من مناهل العرفان وقارن ص ٣٠١ من الرسول (لسعيد حوى).

الوجه الخامس:

الايجاز : وهو التعبير عن المقصود بأقصر عبارة، والوصول إلى المعنى من أقصر طريق، وهذا ما أسماه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز «بالقصد فى اللفظ مع الوفاء بحق المعنى» وهما نهايتان كما قال - بحق - من حاول أن يجمع بينهما دون ميل ما إلى أحدهما(١) لم يستطع. فالذى يحاول الإيجاز والقصد فى العبارة لابد أن يحيف على المعنى. والذى يحاول الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه لابد أن يحتوى كلامه على كثير من الحشو والفضول.

ويعتمد الإيجاز على مايسمى بالاختزال، أو ما سماه بعضهم بالمسافة الزمنية يقول عبد القاهر الجرجانى فى كتابه دلائل الإعجاز «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسر، فإنك ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن(٢).

ويعبر الإعجاز عن خاصية من خصائص اللغة العربية وهى التحليلية التى تقوم على الإيحاء أى إيحاء المسافة الزمنية التى قد تكون أهم بكثير من إيحاء الكلمة المحذوفة لو ذكرت، فالمسافة الزمنية إذا هى البديل الذى حل محل الكلمة، فالعربى يستغنى بقدرة خيالية فائقة عن الكلام المحذوف فى لمحة.

ومما يزيد فى إعجاز الايجاز فى القرآن الكريم، هو أنه بين الإيجاز والتقصير خيط دقيق مع أن أحدهما ميزة والثانى عيباً، وفى هذا يقول الرمانى، والإيجاز بلاغة والتقصير عيب، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيب، والإيجاز لإخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير لأنه لابد فيه من الإخلال(٣).

إذا فأمر عسير أن يقلل الإنسان من الكلام من غير إخلال بالمعنى.

---

(١) النبأ العظيم ص ١٠٩.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٢.

(٣) راجع ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـ ٢.

أما القرآن الكريم فقد جمع بين هاتين الفضيلتين التى يستحيل على البشر بعلمه القاصر أن يجمع بينهما.

وخذ على سبيل المثال قوله الله تعالى: «ولكم فى القصاص حياة».

والمعنى المقصود من هذه العبارة الموجزة: هو أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَل قُتِل كان ذلك داعيا قويا إلى عدم إقدامه على القتل، فلا يقتل، وبذلك يكون فى ارتفاع القتل قصاصا حياة للناس.

هذا المعنى الطويل الذى عبرنا عنه بألفاظنا البشرية هذا التعبير المطنب عبر عنه القرآن بهذه العبارة الموجزة، وقد عبر بعض البلغاء من العرب عن هذا المعنى بعبارة موجزة فقال: «بعض القتل إحياء للجميع»، ومنهم من قال: «القتل أنفى للقتل»[١].

وقد قارن الخطيب القزوينى[٢] بين الآية القرآنية وبين هذه التعبيرات فذكر عشرة أوجه فى فضل الآية على هذه العبارات.

ونقول إن المسألة لا تحتاج إلى مقارنة وإظهار وجوه فضل الآية القرآنية على هذه التعبيرات، لأنه لامجال للمقارنة بين كلام الله وبين كلام البشر، لأن هذا الفضل واضح بمجرد النظرة الأولى للعبارتين الإلهية والبشرية.

واسمع إلى إيجاز القرآن فى آية أخرى تريد أن تفضل خمر الآخرة على خمر الدنيا وتوضح ما فى خمر الآخرة من مزايا وتنفى عنها ما فى خمر الدنيا من عيوب، ويعبر القرآن عن هذا المعنى فيقول: «لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون»[٣].

يقول ابن قتيبة : انظر كيف نفى عن الخمر بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر وجمع بقوله: «ولا ينزفون» عدم العقل وذهاب المال ونفاذ الشراب[٤]، وفى

---

(١) راجع البيان والتبيين جـ ٢ صـ ٣١٦.
(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة صـ ٢٧٨.
(٣) سورة الواقعة ١٩.
(٤) تأويل مشكل القرآن صـ ٧ وقارن الحيوان للجاحظ جـ ٣ صـ ٨٦.

آية أخرى يجمع القرآن الكريم فضائل الأخلاق ومحاسنها فى عبارة موجزة فيقول «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»(١).

فليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، لأن فى أخذ العفو: صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين.

وفى الأمر بالمعروف : تقوى الله، وصلة الارحام، وصون اللسان عن فاحش القول، وغض الجوارح عن محارم الله، وفى الإعراض عن الجاهلين: الصبر، والحلم، وتنزيه النفس عن مجاراة السفهاء، ومنازعتهم الجدل والخصومة(٢).

والغريب أن كل هذه المعانى الأخلاقية يعبر عنها القرآن الكريم بهذه العبارة الموجزة وهذا مصداق لقول رسول الله - ﷺ «أوتيت جوامع الكلم». فمَنْ مِنَ البشر يستطيع أن يلخص خطابا فى موضوع من أخطر المواضيع فى عبارة واحدة؟ قطعا لايستطيع أحد ذلك، ولكن ارجع إلى سورة النمل واقرأ خطاب سليمان لبلقيس تجد - بعد ذكر العنوان والتسمية «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم - مضمون الخطاب فى عبارة واحدة جمعت بين الإيجاز فى اللفظ، والوفاء التام بحق المعنى المقصود وهى «ألا تعلو على وأتونى مسلمين».

ثم يوجز القرآن أثر هذا الكتاب فى نفس بلقيس وما قامت به من التدابير والمشورة ومن تعظيمها لأمر مستشاريها فى محاولة للتأثير عليهم فى هذا الخطب الجلل، يوجز القرآن هذه المعانى كلها وما هو أكثر منها فى هذه الآية المعجزة «يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»(٣) وماذا يقول المستشارون والقادة فى هذا الموقف لاشك أنهم يريدون أن يقولوا كلاما كثيراً يطمئن نفس الملكة ويهدىء من روعها، وأكاد أتصور ذلك يحتاج إلى ساعات من الحديث المتوالى ولكن القرآن يختصر الزمن والكلمات والصفحات بهذه العبارة المؤدية «قالوا نحن أولى قوة وأولى بأس شديد والأمر إليك، فانظرى

---

(١) الأعراف ١٩٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن صـ ٤.

(٣) النمل : ٣٢.

ماذا تأمرين» ما هذه الحيطة فى التعبير عما يقوله مستشار أمام ملكة، وماهذه الدقة؟ وما هذا الإيجاز فى اللفظ؟ وما هذا البيان والوفاء بالمعنى المقصود؟ إنها جوامع الكلم التى خص بها رسول الله ﷺ من دون الأنبياء. إنه الإعجاز البيانى.

الوجـه السادس:

خلو القرآن من التناقض والاختلاف :

مقتضى البلاغة والفصاحة أن يكون الكلام مؤتلفاً غير مختلف، ومتسقا غير متناقض ولا متباين، وهكذا جاء القرآن الكريم مصدقا بعضه لبعض «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها»[١] وحينما ادعى المشركون أن هذا الكتاب من عند محمد ﷺ كان الجواب القاطع: «لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً» والاختلاف هو التناقض[٢] والتعارض الذى إن وقع فى كلام البشر لقصر علمه وحدود عقله، فلا يمكن أن يقع فى كلام الله.

وعلى الرغم من أن نزول القرآن استمر ثلاثا وعشرين سنة إلا أنه يأتى على هذه الصورة البيانية العجيبة. معانيه تصدق بعضها بعضا، ولا تناقض فيه بين سوره وآياته. وإذا ما أردنا أن نقدر هذا الوجه البيانى حق قدره، نعود معا إلى الكتب السماوية السابقة مثل التوراة والإنجيل. فبسبب أن العامل البشرى قد تدخل فيها بالزيادة والنقصان والتعديل والتحوير، نجدها بعد التحريف متناقضة متضاربة لدرجة أنك قد تجد التناقض فيها بين نسخة وأخرى من نسخها، بل إنك قد تجد التناقض فى النسخة الواحدة بين سفر وآخر، وبين إصحاح وآخر، بل الأغرب من ذلك أنك قد تجد التناقض داخل الصفحة الواحدة بين سطر وآخر، وفى كتابنا «مشكلات العقيدة النصرانية»[٣] و «العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية»[٤] أدلة واقعية على ما نقول حيث استخرجنا من خلال التوراة

---

(١) الزمر من (٢٣).

(٢) قارن صـ ٢٨٤ جـ ١ من الكشاف الزمخشرى وراجع تفسير المنار حـ ٥ ص ٣٣٤.

(٣) ص ١٩٠.

(٤) ص ١٥٦.

والإنجيل عشرات التناقضات التي أثبتنا من خلالها أن هذه الكتب قد فقدت قداستها، وأنها لا يمكن أن تكون هي الكتب المنزلة على أنبيائها. لأن التناقض ووحي السماء لا يجتمعان كما أخبر القرآن الكريم. فشأن الكتب السماوية التشابه والتصادق أو كما وصف القرآن نفسه: «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني» والتشابه هنا المراد منه التناسب، والتصادق، والائتلاف، وضده الاختلاف الذي هو التناقض والتعارض[1] الذي تنزه القرآن عنه، وكان خلوه منه برهانا على إعجازه لكلام البشر.

وليبحث من شاء كيف شاء في القرآن الكريم عن تناقض واحد، على شرط أن يفهم المعنى الصحيح لكلمة تناقض، ولن يجد حتى ولو صعد إلى السماء بظهره، وأما هذه الشبه التي أوردها بعضهم[2] على القرآن الكريم، فقد دلت على ضيق أفق أصحابها، وعلى عدم علمهم بأصول التناقض المنطقي، فالقرآن من أقصر سورة فيه إلى أطول سورة مصدق بعضه بعضا .

الوجه السابع :

خطابة العامة والخاصة، وأصحاب العقول والعاطفة والخيال والحس معا :

جرت العادة أن الكاتب حينما يكتب لمستوى معين من البشر لابد أن يراعي مدارك ووعي هذا المستوى.

فالكتابة للمفكرين وأصحاب العقول غير الكتابة لعامة الناس، فلو أننا خاطبنا العقلاء والمفكرين بأسلوب عامة الناس أو العكس لسقط الكلام عن رتبة البلاغة إذ البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

أما أن تكون هناك جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته فذلك مالم يتحقق إلا في القرآن الكريم.

---

(١) ابن تيمية – درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ٢٧٤.

(٢) راجع المقاصد جـ ٢ ص ١٣٧.

فالآية الواحدة يراها البلغاء أو فى كلام بمقاصد البلاغة ويراها العامة احسن كلام وأقربه إلى عقولهم. الآية الواحدة يسمعها العامة من الناس فيقتنعون بها ويسلمون من منطلق العاطفة والوجدان، ويسمعها العقلاء والفلاسفة فيعقلونها ويدركون ما فيها من أصول البرهنة العقلية.

واقرأ معى قول الله تعالى: «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون»[1]، وأعرضها على إنسان عامي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة واسأله عن رأيه فيها، سوف يقول لك إن معناها واضح لأن كل مخلوق لابد له من خالق.

ثم اعرضها على علماء الفلسفة والمنطق وأسألهم عن رأيهم فيها سوف يقولون لك إنها برهان منطقى ملزم للعقلاء، وسوف يستخرجون لك ما فيها من مقدمات ونتائج، ويبرهنون لك على كل مقدمة فيها حتى يصلوا إلى النتيجة.

سوف يقولون لك، المقدمة الصغرى فى هذا الدليل هى: المخاطبون مخلوقون وهذه قضية بدهية أضمرها القرآن لبداهتها.

والكبرى هى: كل مخلوق لابد له من خالق، وهذا الخالق إما أن يكون هو العدم «أم خلقوا من غير شيء» وإما أن يكون هو نفس المخلوق «أم هم الخالقون» والفرض الأول محال بداهة، والثانى محال عقلا، فلم يبق إلا أنهم مخلوقون لله.

منطق عقلى يسوقه القرآن الكريم فى أسلوب بلاغى بيانى يقنع العامة والخاصة معا، وأصحاب العقول والوجدان فى آن واحد[2].

ثم اعرض قول الله تعالى «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا «على العامة والخاصة معا، تجدها واضحة فى أذهان الناس مسلمة عندهم لما فيها من المقدمات البسيطة، كما تجدها مناسبة لعقول الخاصة حيث يدركون مافيها من أقيسة استثنائية مركبة تركيبا منطقيا محكما. وهذا معنى قول الله تعالى «ولقد

---

(١) الطور الآية : ٢٥.

(٢) راجع صـ ٧٣ من كتابنا «العقيدة الإسلامية».

يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[1]، وقوله «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فهو خبير بمنازع النفوس وما يناسبها[2] قادر على ما يعجز عنه البشر من خطاب العقل والعاطفة بعبارة واحدة.

واسأل علماء النفس: هل رأيتم أحد تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان والعاطفة على سواء؟ سيجيبونك بلسان واحد كلا، فهذه القوى لا تعمل إلى متناوبة فى حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منها اضمحلت الأخرى وكاد ينمحى أثرها، فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذى ينهمك فى الخيال والوجدان والعواطف يضعف تفكيره وصدق الله حين يقول «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه»[3].

وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع فى يديك هذين الطرفين معا، فذلك ما لا تظفر به فى كلام البشر ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية، فمن أين لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى أولئك الفلاسفة والمناطقة، ومن المتعة والوجدان بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟

إنه فى كلام رب العالمين، فهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا حيث تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير[4].

الوجه الثامن:

استمرار البلاغة فيه من أوله إلى آخره، ومن أقصر سورة فيه إلى أطول سورة، وهذا أمر غريب، لأننا قد نجد فى كلام البلغاء والفصحاء بعض وجوه

---

(١) القمر الآية : ٥٤.

(٢) العقيدة الإسلامية صـ ٥٣ للمؤلف.

(٣) الإحزاب الآية : ٤.

(٤) د/ محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ١١٤ وما بعدها، وقارن صـ ١٣٤ من كتاب «من روائع القرآن» د/ محمد سعيد رمضان البوطى – دمشق سنة ١٩٧٧.

البلاغة والفصاحة فى كل كلامهم، أو كل الوجوه فى بعض كلامهم، ولكن أن تستمر البلاغة والفصاحة مع القصيدة أو الكتاب من أوله إلى آخره، فهذا ما لم يتحقق أبدا فى كلام البشر.

– فمن البلغاء والفصحاء من يصل إلى قمة البلاغة والفصاحة فى بعض أبيات من قصيدته ولكن تخونه العبارة فى كثير من أبياتها حتى أن القصيدة كلها لتشتهر ببيت أو بيتين فيها يكثر الناس من الإستشهاد بهما ولا يهتمون بباقى القصيدة.

– ومن الشعراء والأدباء من يبرز فى فن ولا يجيد فى آخر[1]، حتى أن فطاحل الشعراء كانوا إذا تركوا الشعر إلى النثر أو الفن القصصى سقطت رتبة كلامهم عن المعتاد ووصلوا إلى درجة من الإسفاف لا يتصور معها أن كاتب هذا النثر هو فلان الشاعر المفلق.

يقول الباقلانى: «تأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه فى المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص؟ إنك تراه إذا جاء إلى وصف واقعة أو نقل خبر، عامى فى الكلام، سوقى الخطاب مسترسلا فى أمره، متساهلا فى كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، وناكبا عن المعهود من سجيته، فان اتفق له فى قصة كلام جيد ، كان قدر اثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوا. وما تجاوزها لغوا»[2].

بل إن الأغرب من ذلك أن فطاحل الشعراء ما كانوا يبدعون فى كل غرض من أغراض الشعر: بل كان الواحد منهم يبدع فى فن ويقصر فى آخر، فمنهم من يبدع فى المدح دون الهجاء، ومنهم من يبرز فى قصائد الغزل، ومنهم من يجيد فى الرثاء ووصف الحزن دون الفرح.

ولذلك قالوا : إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء ووصف الخيل، وشعر النابغة عند الخوف وشعر الأعشى عند وصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء.

---

(١) شرح المواقف جـ ٨ صـ ٢٤٥.

(٢) إعجاز القرآن صـ ١٩٥ وقارن صـ ١٣ من تأويل مشكل القرآن.

وهكذا فمهما وصل الإنسان إلى أرقى درجات البلاغة والفصاحة لا يستطيع أن يحتفظ ببلاغته فى كل فن من فنون القول وإنما يتفاوت كلامه ارتفاعا وانخفاضا، أما القرآن الكريم فقد بلغ الغاية القصوى فى كل سورة من سوره، وفى كل آية من آياته، وفى كل غرض من أغراض القول.

واستمع إلى ترغيب القرآن حيث يقول: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وإلى ترهيبه حين يقول: «أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير».

وقال القرآن فى الزجر ما لايبلغه وهم البشر وهو ما ورد فى سورة العنكبوت: «فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»(١).

وقال فى السخرية والاستهزاء بالمشركين «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنبكوت لو كانوا يعلمون»(٢).

وهكذا فالبلاغة والفصاحة شائعة فى كل آية من آيات القرآن بلا تفاوت أو تباين، ولا أدل على ذلك من أن القرآن الكريم قد سحر العرب بالقليل من آياته التى نزلت فى بداية الدعوة الإسلامية، فقصة الوليد بن المغيرة الذى شهد بإعجاز القرآن وردت فى سورة المدثر وهى السورة الثالثة فى ترتيب النزول لم يسبقها إلا سورة العلق وسورة المزمل(٣).

وقد بهرت هذه السور القليلة أذهان العرب البلغاء فآمن من آمن، واعترف بفصاحة القرآن وبيانه من لم يؤمن.

---

(١) العنكبوت الآية : ٤٠.
(٢) العنبكوت الآية : ٤١.
(٣) الشهيد سيط قطب – التصوير الفنى فى القرآن ص ١٦.

وهكذا فاستمرار البلاغة فى القرآن وجه جديد من وجوه الإعجاز البيانى نضيفه إلى ما سبق من وجوه. وقد أشار إليه حازم القرطاجنى فى مناهج البلغاء بقوله: «وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمراراً لا يوجد له فترة(١) ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى العالى منه، إلا فى الشىء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه، بل توجد فى تفاريق منه(٢).

ويلاحظ أن هذا الوجه أرقى من الوجه الذى يقول إن إعجاز القرآن راجع إلى اشتماله على وجوه البلاغة والفصاحة، لأن هذا الوجه الأخير قد يعترض عليه باشتمال أشعار العرب على البلاغة والفصاحة أيضاً، أما استمرار البلاغة والفصاحة فى كل غرض وفى كل جزئية، فهذا ما لم يوجد إلا فى كتاب الله تعالى.

الوجه التاسع:

التصوير الفنى فى القرآن الكريم

هذا وجه جديد من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم كشف عنه الإمام الشهيد سيد قطب فى كتبه «فى ظلال القرآن» «ومشاهده القيامة فى القرآن» «والتصوير الفنى فى القرآن».

وهو لون جديد من ألوان البيان القرآنى. إذ البيان هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة مع وضوح الدلالة عليه، وقد كشف السابقون عن إعجاز القرآن البيانى من خلال تشبيه أو كناية أو استعارة أو مجاز، أو غيرها من الصورة المعروفة باسم البديع والبيان كما صنع عبد القاهر الجرجانى ومعه كل علماء

---

(١) الفترة / الوهن والضعف والخمول.

(٢) أسرار ترتيب القرآن ص ١٥ - للسيوطى تقديم أحمد عطا.

البلاغة حيث وقفوا عند أسرار الخصائص البيانية لكل نص على حدة دون محاولة لإبراز الخصائص الفنية العامة في العرض الكلي للآيات التي تدور حول موضوع واحد.

فقد أدرك القدامى في القرآن الكريم مواضع الجمال متفرقة، وعللوا لكل موضع منها تعليلا منفرداً فاقتطعوها اقتطاعاً من الوحدة القرآنية الكبرى أما إدراك الخصائص العامة للتصوير البياني في القرآن الكريم فلم يعالجوه ولم يصلوا إليه، وهذا ما قام به المرحوم الشيخ سيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القران الكريم» حيث بحث عن الأصول العامة للجمال الفني فيه وبين السمات المطردة التي تميز هذا الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية من أدب، أو بمعنى أوضح نظر الشيخ سيد قطب، إلى جانب الوحدة في العمل الفني.

يقول الشيخ سيد قطب: التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن وهو القاعدة الأولى فيه للبيان، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة (...) وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع»[1].

ووجه الإعجاز في هذا اللون هو تعبير هذه الألفاظ الجامدة عن هذه الصور الفنية الحية كما يقول صاحب التجربة «فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن»[2].

---

(١) التصوير الفني ص ٣٢.

(٢) السابق ص ٣٣.

ونضيف إلى ما ذكره الشيخ سيد قطب وجها آخر وهو أن محمد ﷺ لم يكن له علم ولا خبرة سابقة بطرق التصوير الفنى ولا أساليب العرض والبيان بهذه الصور الغريبة من تصوير وتجسيد وألوان وإيقاع موسيقى بين الآيات بعضها وبعض. وهذا دليل على أن هذا الكتاب هو من عند الله سبحانه وتعالى.

ونحاول الآن أن نوضح طريقة التصوير الفنى وأساليبها وذلك بالمقارنة بين طرق البلاغيين القدماء وبين طريقة الشهيد سيد قطب فى الكشف عن إعجاز القرآن. ففى قوله تعالى «واشتعل الرأس شيباً» وقوله «وفجرنا الأرض عيونا» اكتفى القدماء بإبراز ما فى هذه الآية من استعارة حيث أن الرأس لا يشتعل وإنما الاشتعال للشيب، كما أن التفجير إنما يكون للعيون. ولكنه أسند إلى الأرض على سبيل الاستعارة، وهذا أوقع من التعبير على سبيل الحقيقة فلو أننا قلنا اشتعل شيب الرأس وفجرنا عيون الأرض لما أفادنا النص العموم والشمول الذى يفيده تعبير القرآن حيث يفيد بأن الشيب قد لم فى الرأس وشاع فيه من كل ناحية حتى لم يبق من السواد شىء، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، كما أن التعبير البلاغى فى الآية الثانية أفاد أن الأرض قد أصبحت عيونا كلها وأن الماء قد فار فى كل مكان فيها وهذا ما لايستفاد من التعبير الحقيقى «فجرنا عيون الأرض» إذ المفهوم منه أن الماء فار من عيون متفرقة فى الأرض ولكنه لا يفيد العموم والشمول الذى أفاده التعبير القرآنى(١).

أما المرحوم الشهيد سيد قطب فقد قال عن مثل هذه الآيات: نعم إن ما ذكروه نوع من الجمال نظروا فيه إلى ناحية نظم الآية نظرة جزئية ولكن هناك شىء آخر وراء ذلك، هو هذه الحركة التخييلية السريعة التى يصورها التعبير: حركة الإشتعال التى تتناول الرأس فى لحظة وحركة التفجير التى تفور بها الأرض فى ومضة فهذه الحركة التخييلية تلمس الحس وتثير الخيال وتشرك النظر والمخيلة فى تذوق الجمال وهى فى «واشتعل الرأس شيباً» أوضح وأقوى، لأن حركة الإشتعال هنا حركة ممنوحة للشيب وليست له فى الحقيقة وهذه الحركة هى

---

(١) راجع دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى صـ ٢.

عنصر الجمال الصحيح، ويدل على ما نقول، أن الجمال في قولك اشتعل البيت ناراً لا يقرب من قول القرآن «اشتعل الرأس شيباً» ففي التعبير بالإشتعال عن الشيب جمال وفي إسناد الإشتعال إلى الرأس جمال آخر يكمل أحدهما الآخر[١].

وهكذا وقف السابقون عند حدود المصطلحات الفنية في البلاغة وكيفية تطبيقها على آيات الكتاب الكريم بينما تجاوز السيد قطب هذه المرحلة حين أبرز الصورة الفنية في النص[٢] بصورة شاملة وهذا ما سوف يزداد وضوحاً في الأسطر التالية:

أساليب التصوير الفني في القرآن :

للتصوير الفني في القرآن أساليب كثيرة ومنها:

١ – التعبير عن المعنى الذهني بالصورة الحسية:

وذلك ما ورد في آيات كثيرة منها قول الله تعالى «إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط».

فالآية بطريقة التصوير الذهني تريد أن تقول إن الذين كفروا لن يدخلوا الجنة أبداً، ولكن أسلوب التصوير الحسي عرض الآية بهذه الصورة حيث ترك الإنسان يرسم بخياله صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سم الخياط – ويختار من أسماء الحبل الغليظ إسم (الجمل) خاصة في هذا المقام لاستكمال الصورة ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير ليستقر في النهاية معنى إستحالة دخولهم الجنة في

---

(١) التصوير الفني في القرآن صـ ٢٩.

(٢) ويلاحظ أن الباقلاني له إرهاصات في هذا المجال حيث نظر إلى الوحدة الفنية أيضاً، وكذلك الزمخشري في كشافه له نظرته النفسية التحليلية راجع صـ ٤٢ وصـ ٤٩ من كتاب «الإعجاز القرآني من الوجهة التاريخية» د. محمد العزب.

أعماق النفس وقد ورد إليها هذا المعنى من طريق العين والحس - تخييلا - ومع وروده من طريق الذهن أيضاً(١).

٢ - التعبير عن الحالة النفسية بالصورة المحسوسة:

وهو ما يسمى بالتجسيم النفسى وإخراج ما يدور فى النفس إلى عالم المحسوسات(٢).

ومن ذلك قوله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة».

والحالة النفسية هنا هى حالة تزعزع العقيدة حيث لا يستقر الإنسان على يقين ولا يحتمل قضاء الله بقلب مطمئن، ولا يجعل عقيدته بمعزل عن ملابسات حياته بعيدة عن ميزان الربح والخسارة - ولكن القرآن يعبر عن هذه المعانى النفسية «التزعزع» بصورة مجسمة محسوسة. فالخيال يكاد يجسم هذا الحرف الذى يعبد الله عليه هذا البعض من الناس وإنه ليكاد يتخيل الإضطراب الحسى فى وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والإنقلاب وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع لأنها تسطع فى الحس وتتصل منه بالنفس(٣).

ومن ذلك رسم القرآن وتصويره لحالات الفزع والخوف من خلال عرضه لمشاهد القيامة فى أول سورة الحج «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

ففى الآية تصوير حسى مجسم لمعانى نفسية، فالمشهد الذى تعرضه الآية حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت، تنظر ولا ترى وتتحرك ولا تعى، وبكل

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الثالث - صـ ١٢٩١ دار الشروق.

(٢) د. ذكى المحاسنى - الأدب الدينى صـ ٣٣ - القاهرة سنة ١٩٧٩.

(٣) التصوير الفنى صـ ٤٠.

حامل تسقط حملها وبالناس سكارى وماهم بسكارى يتبدى السكر فى نظراتهم الذاهلة وفى خطواتهم المترنحة هذا مشهد مجسم تكاد العين تبصره ويكاد الخيال يرسمه[١].

٣ – خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية وهو ما يسمى بالتشخيص، وقد سماه علماء البلاغة القدامى مجازا أو استعارة.

وهذا ما ورد فى آيات كثيرة منها قوله تعالى «والصبح إذا تنفس»[٢].

فالآية أحالت الصبح إنساناً يشارك الناس فى تنفسه فتركت للخيال مجالاً واسعاً لكى يتصور هذه الحياة الوديعة الهادئة التى تنفرج عنها ثناياه وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة ويدب النشاط فى الأحياء على وجه الأرض[٣].

فأين هذا التصوير المبدع من قول علماء البلاغة القدامى إن فى الآية مجازاً حيث شبه الصبح بالإنسان فى التنفس، ثم حذف المشبه به، وعبر عنه بشى من لوازمه.

٤ – رسم الصورة المجسدة بالكلمات :

ومثال ذلك قول الله تعالى: «فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد»[٤].

فالمعنى المقصود من الآية هو لفت النظر إلى الأمم التى جاءت ومضت وكذبت أنبياءها، فأهلكها الله وتركت آثارها من ورائها.

فجاءت الآيات لتظهر لنا هذا المعنى فى صورة لوحة مرسومة بريشة مبدعة ترسم لنا صورة أمام الخيال شاخصة صامتة لا حراك فيها، صورة نبصر فيها

---

(١) راجع مشاهد القيامة فى القرآن.

(٢) التكوير – ١٨.

(٣) التصوير الفنى صـ ٦٢.

(٤) الحج – ٤٥.

أطلالا خالية وبيوتا سقط بعضها على بعض، ونبصر فى جانب من اللوحة بئرا متروكة معطلة وقصراً لا تزال فيه جدران باقية وهكذا نشاهد لوحة فنية رائعة صورتها كلمات هذه الآية فى رسم معبر نادر يغشاه صمت رهيب تلوح عليه آثار القرونوالسنين(١).

٥ – التعبير بالتصوير الموسيقى :

يرى الشيخ سيد قطب أن فى القرآن إيقاعا موسيقيا متعدد الأنواع يتناسق مع الجو، ويؤدى وظيفة أساسية فى البيان ففى سورة النازعات على سبيل المثال أسلوبان موسيقيان وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيها تمام الإنسجام:

أولهما : يظهر فى هذه المقطوعة، السريعة الحركة القصيرة الموجة القوية المبنى تنسجم مع جو مكهرب سريع النبض شديد الارتجاف على النحو التالى.

«والنازعات غرقا، والناشطات نشطا والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا، فالمدبرات أمرا، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة، يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة، أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذاً كرة خاسرة فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة»(٢).

والثانى : يظهر فى هذه المقطوعة الرخية الموجه التى تنسجم مع الجو النفسى الذى يلى مباشرة حديث الكرة الخاسرة والزجرة الواحدة على النحو التالى «هل أتاك حديث موسى، إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى»(٣).

والفرق واضح بين الإيقاعين وكيف أنهما ينسجمان مع معانى الآيات(٤) ولنأخذ مثلا آخر من سورة الرحمن، وإن المرء ليحار حين يقرأ هذه السورة

---

(١) د. محمد سعيد رمضان – من روائع القرآن صـ ٣١٢.
(٢) النازعات ١ – ١٤.
(٣) النازعات ١٥ – ١٩.
(٤) التصوير الفنى ص ٩٢ وقارن ص ٣٨ وما بعدها من كتاب الأدب الدينى.

فيتساءل: هل انبعث إيقاعها الرخي المنساب من مطلعها، أم من نهايتها، أم من خلال آياتها؟ وإذا به يكتشف بأن النغم يسرى فى كل فصلة من فواصلها، وفى كل مقطع من مقاطعها، بل فى كل لفظ من ألفاظها، فكل جزء فيها هو لحن شجى من ألحان السماء[1].

اقرأ فى مطلعها «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» وتذوق هذا النغم الرخيم الهادىء[2].

ثم اقرأ فى وسطها «ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، ذواتا أفنان، فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما من كل فاكهة زوجان، فبأى آلاء ربكما تكذبان» ولاحظ مافى المقاطع من إيقاع متوازى يأخذ الألباب والأسماع.

واقرأ فى خاتمتها «حور مقصورات فى الخيام، فبأى آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام».

ثم استمع معى إلى لون آخر من موسيقى القرآن متهادى شجى يثير الأحاسيس يعرضه القرآن من خلال الأدعية المتعددة التى وردت فيه، واستمع إلى دعاء ذكريا وهو ينادى ربه «رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب راضيا».

إن البيان هنا لا يرقى إلى وصف العذوبة التى تنتهى فى فاصلة كل آية بيائها المشددة، وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها فى الشعر ألف الإطلاق.

---

(١) د. صبحى الصالح – مباحث فى علوم القرآن ص ٣١٣.
(٢) الرحمن (١ – ٤).

والجدير بالذكر أن الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى قد سبق أن أشار إلى أسلوب التصوير الموسيقى فى القرآن من خلال كتابه «تاريخ آداب العرب»(١).

كما يقول بعض الباحثين إن أبا زكريا الفراء فى كتاب «معانى القرآن» كان أول من عنى بالموسيقى الصوتية للقرآن الكريم(٢).

٦ - التصوير والتعبير بالقصة.

وقد ورد فى القرآن الكريم كثير من قصص الأنبياء، وكل قصة لها هدف معين والقصة المكررة كانت تستكمل ما سبق وتضيف حقائق جديدة وكل قصة لها بداية ولها نهاية ولها أبطال، وهذا ما فصله الشيخ سيد قطب تفصيلا رائعا فى هذا الكتاب مما يعفينا من عرضه هنا(٣).

هذا وقد اعترض بعضهم على هذا الوجه من إعجاز القرآن بأن الفن هو التلفيق والاختراع على غير أساس من الواقع بل يكون من خلق الخيال فكيف ينسب الفن إلى القرآن الكريم بل ويكون وجها من وجوه الإعجاز فيه.

وقد أجاب الشيخ سيد قطب بأن هذا التعريف للفن غير صحيح وإن الفن يتسع أيضاً للتعبير عن الحقائق الواقعية.

وإنما نشأ هذا الوهم فى أذهان المعترضين لأن رواد القصة والفن فى العالم كانوا من هذا الصنف الذى يعتمد فى قصصه على الخيال الكاذب الذى لا أصل له من الحقيقة كما كان يصنع «هوميروس» (وهزيود» فى (الإلياذة) (والأوديسا) (والأعمال والأيام).

وكما صنع رواد الفن فى أوربا حيث إنهم لم يكونوا يتوخون الحقيقة فى أعمالهم وفنونهم.

---

(١) راجع الجزء الثانى صـ ٣٣٦.

(٢) قارن صـ ٣٧ من الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.

(٣) التصوير الفنى صـ ١٥٤ وما بعدها.

ولكن الفن الحقيقى يتسع أيضاً للتعبير عن الواقع فالحقيقة تصلح أن تعرض عرضا فنيا كاملا وليس من العسير أن نتصور هذا متى تخلصنا لحظة من العقلية المترجمة التى نعيش بها، ومتى خلص تصورنا من النماذج الغربية البحتة ونظرنا إلى الاصطلاحات نظرة موضوعية شاملة[١].

فالفن هو جمال العرض وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج سواء أكان ذلك التعبير عن حقيقة كما صنع القرآن الكريم أم عن خيال كما صنع كتاب القصة الغربيون قديما وحديثا.

---

(١) السابق صـ ٢٠٥.

الفصل الثالث

الإخبار عن المغيبات

أخبر الرسول ﷺ عن كثير من المغيبات التى لم يكن لأحد علم بها، ومن ذلك:

إخباره عن الله القادر الموصوف بكل صفات الجلال والجمال هو المستحق للعبادة فى الوقت الذى كان يعبد فيه الناس آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، فاليهود والنصارى يعبدون آلهة بشرية مجسدة توصف بما لا يليق بالله الحق، وعباد الأصنام يعبدون أحجاراً لا تضر ولا تنفع، وفى وسط هذه البيئة يخبر محمد ﷺ بحقيقة الإله الذى يستحق العبادة - فمن الذى علمه ذلك - والبيئة العربية كلها جاهلة بهذه الحقائق...

ومن ذلك أيضاً إخبار الرسول ﷺ عن كثير من الوقائع والأحداث التى حدثت فى الأزمان الغابرة، وكثير من الوقائع التى حدثت فى زمنه الحاضر مع أنه لاسبيل إلى رؤيته ومعاينته، وكذلك إخباره عن وقائع المستقبل الذى لم يحدث بعد.

وسوف نضرب نماذج لكل لون من هذه الألوان.

إخبار القرآن عن الغيب الماضى:

أخبر القرآن الكريم عن غيبيات ماضية لم يشهدها رسول الله ﷺ ولم يكن على علم بتفاصيلها، ولم يقرأ كتابا فى ذلك.

ومن هذا إخباره عن بداية نشأة الكون وما وقع فيه من أحداث منذ خلق الله السموات والأرض ومن ذلك قصة آدم وحواء، وقصة نوح وماحدث بينه وبين قومه والتى عقب عليها القرآن الكريم - لفتاً لأنظار العقلاء - بقوله: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا»[١].

---

(١) هود (٤٩).

وبعد أن سرد القرآن الكريم تفاصيل قصة موسى يعقب عليها بقوله: «وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون»(١).

وبعد أن قص القرآن قصة مريم عقب عليها بقوله «وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم»(٢).

وبعد إخباره بما حدث بين يوسف وإخوته يقول «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»(٣).

ومن اللافت للنظر أن يخبر القرآن الكريم عن دقائق أخبار الأنبياء السابقين مثل إخباره عن نوح أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ونجد فى سفر التكوين من التوراه أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، ومثل إخباره عن أصحاب الكهف أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا - ونجد أنه ورد فى التوراة أن أهل الكهف لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية وهذه السنون التسع الزائدة فى القرآن الكريم هى الفرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية(٤).

وقبل عرض القرآن الكريم لقصة آدم يلفت أنظار الناس إلى وجه الإعجاز فى هذا الإخبار، وهو أن محمدا لم يكن له أى علم بالملأ الأعلى ولم يشاهد ماحدث بين الملائكة وبين الله وهذا ما ورد فى قول الله تعالى: «قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين»(٥).

---

(١) القصص ٤٤ - ٤٦.

(٢) آل عمران ٤٤.

(٣) سورة يوسف ١٠٢.

(٤) النبأ العظيم ص ٣٨.

(٥) سورة (ص) الآيات (٦٧ - ٧١).

وقصص الأنبياء كثير فى القرآن الكريم ووجه دلالة هذا الأمر على صدق الرسول وإعجاز القرآن، هو أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب الأولين ولا قصصهم ولا سيرهم، فحين يخبر بهذه القصص وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولم يذهب إلى القصاص يسمع منهم، إذ لابد أن يكون مؤيداً من الله سبحانه وتعالى فهو وحده العليم بتفاصيل ودقائق هذه الأخبار ولذلك قال الله عزل وجل «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»(١).

فمحمد لم يتعلم على يد أحد ولم يقرأ فى كتب السابقين ولو فعل ذلك لم يخف على الناس أمره(٢) إذا فما أخبر به هو من عند الله علام الغيوب الذى يملك مفاتيح الغيب «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر»(٣).

وقد حاول بعض الملحدين تكذيب القرآن الكريم فى إخباره عن الماضى البعيد فأنكروا وجود عاد وثمود وأنكروا وجود أبرهة وقصة الفيل، كما أنكروا قصة نوح وما حدث لقومه من الطوفان، أنكروا كل هذه الحقائق تحت دعوى النقد العلمى التاريخى. ولكن تأتى أبحاث العلماء والمؤرخين والمنصفين لكى تثبت كذب هؤلاء وتعترف وتقر بصدق القرآن الكريم.

فقد أثبت العلماء أن عاداً وثمود مذكورتان فى تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم (إرم) فى كتب اليونان فهم يكتبونها (ادراميت) ويؤيدون تسمية القرآن لها «بعاد إرم ذات العماد».

كذلك عثر المنقب «موزيل التشيكى» على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود.

---

(١) العنكبوت ٤٨.

(٢) راجع ص ٣٥ من إعجاز القرآن للباقلانى وص ٢٠٥ من كتاب التوحيد لأبى منصور الماتريدى.

(٣) الأنعام (من ٥٩).

وعثر علماء الآثار على نقوش مرسومة على خرائب سد مأرب تنبىء عن تاريخ أبرهة وتلقبه بالأمير الحبشي، كما يروى الرحالة (بروس) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه المرض.

وأما طوفان نوح، فقد أثبت التنقيب الحديث صحته وحدد مكانه[١] مما يقطع ألسنة المتخرصين. فهذا الكتاب كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من علام الغيوب.

إخباره عن غيب الحاضر :

ومن ذلك كشف القرآن الكريم لدخيلة نفوس المنافقين وما كانوا يدبرونه فى الخفاء لرسول الله، كقوله «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»[٢].

ومن ذلك قول القرآن الكريم عن المنافقين «لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون»[٣].

«ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون»[٤].

وغير ذلك من الآيات التى كشفت عن الغيب الحاضر الذى ماكان من الممكن أن يعلمه رسول الله بعلمه البشرى، فكلها أمور كانت تدور فى نفوس المنافقين ولم يكن يعلمها إلا علام الغيوب والذى أخبر بها نبيه ﷺ.

---

(١) سعيد حوى – الرسول صـ ٢٧٩.
(٢) البقرة (٢٠٥).
(٣) التوبة ٤٢.
(٤) التوبة ٥٧.

إخباره عن غيب المستقبل:

أخبر القرآن الكريم عن كثير من الأمور الغيبية التى كشف التاريخ عن صدقها وتحقيقها.

ومن ذلك إخبار القرآن الكريم عن الروم بأنهم سوف ينتصرون على الفرس بعد بضع سنين يقول الله تعالى «الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم».

وتوضيح ذلك أن دولة الرومان المسيحية قد انهزمت هزيمة منكرة أمام دولة الفرس الوثنية سنة ٦١٤ فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة من أهل الكتاب أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين فى شماتة إن الروم أهل الكتاب قد غلبهم المجوس وسوف نغلبكم على الرغم من كتابكم. وهنا تنزل الآيات لكى تبشر المؤمنين بأن الروم سوف ينتصرون على الفرس خلال بضع سنين، أى فى مدة تتراوح بين ثلاث وتسع سنين، ولم يكن أحد يتصور تحقق مثل هذه النبوءة لأن الحروب انهكت الرومان حتى غزاهم الفرس فى عقر دارهم كما يدل عليه النص القرآنى «فى أدنى الأرض» فقد احتل الفرس معظم الدولة الرومانية فى حلب ودمشق ومعظم المدن السورية الأخرى سنة ٦١١ كما سقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤ وقد أحرقت القدس وحوصرت وأحرقت الكنائس ونكل الفرس بالمسيحيين هناك بل سرقوا مقدساتهم وعلى رأسها الصليب الذى يزعم النصارى أن المسيح قد صلب عليه(١).

ولأن دولة الفرس كانت قوية ومنيعة، ولذلك راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقيق هذه النبوءة(٢) ولكن الله تعالى أنجز وعده وانتصر الروم على الفرس

(١) التوبة ٤٢.

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أهل أوثان، فذكر أبو بكر ذلك للنبى ﷺ فقال الرسول: أما إنهم سيظهرون فذكر أبو بكرلهم ذلك فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا =

سنة ٦٢٢ م ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى وهى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز فى هذا الوقت الذى ينتصر فيه الروم «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» ولقد صدق الله وعده ونصر المسلمين فى معركة بدر الكبرى فى نفس الظروف التى انتصر فيها الرومان على الفرس[1] كما نصر المسلمين على الروم والفرس بعد ذلك.

ومن ذلك إخبار القرآن الكريم بأنه محفوظ من التبديل والتغيير والتحريف «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» حيث كانت آيات القرآن تثبت فى ذاكرة الرسول وصحابته وقت نزوله، وتسجل فورا بأيدى أمناء الوحى الذين كتبوها على كل ما يمكن الكتابة عليه من الجلد وعظام الكتف[2].

وكان من حفظ الله لكتابة أن وفق أصحاب رسول الله فى عهد أبى بكر الصديق إلى جمع القرآن ممن كتبوه عن رسول الله وقد بالغوا فى الاحتياط فلم يقبلوا منه شيئا مكتوبا إلا بشاهدين. إلا آيتين فى آخر سورة براءة وهما «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم».

وقد وجد الصحابة هاتين الآيتين عند أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى شهادته بشهادتين حيث قبل شهادته وحده فى قضية معينة، كما وفقهم الله سبحانه فى عهد عثمان بن عفان إلى جمع المسلمين على قراءة واحدة من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن وكما حفظ الله نفس القرآن مكتوباً حفظه الله من اللحن مقروءاً فوفق المسلمين فى عهد على بن أبى طالب إلى وضع

= إن ظهر كان لك كذا وكذا، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا. فجعل بينهم أجل خمس سنين، فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال ألا جعلته دون العشرة فظهرت الروم يوم بدر وكسب أبو بكر الرهان وأمره الرسول بالتصدق به.

(١) د. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم صـ ٤٩ – وقارن صـ ٤٣ من الدين والدولة فى إثبات نبوة النبى محمد – تأليف على بن الطبرى وجعفر المتوكل – الرياض.

(٢) قارن صـ ١١٢ من الظاهرة القرآنية.

أساس النحو، وفى عهد عبد الملك بن مروان إلى إدخال النقط فى الكتابة ثم إلى إدخال الشكل بعد ذلك حتى لا يحدث اللحن فى كتاب الله.

وبعد ذلك سهل الله حفظ القرآن على الناس حتى صار الصبيان يحفظونه فى تجويد عن ظهر قلب ولما يبلغوا الحلم، وهذا خلافا للكتب السابقة التى لاتستطيع الجهابذة حفظ كتاب منها(١).

ويبدو إعجاز هذه الآية الكريمة من زاوية ثانية وهى: من ذا الذى يملك هذا الضمان بحفظ القرآن أبد الدهر إلا رب الدهر الذى بيده زمام الحوادث كلها، فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما فى هذه الآية لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التى أقيمت ولا تزال تقام ضد القرآن، فلقد تعرضت بلاد الإسلام لكثير من الهزائم على يد الصليبيين والهكسوس والتتار الذين أحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع القرآن كما حدث للكتب السماوية من قبله، لولا أن يد العناية الإلهية تحرسه.

وفى العصر الحديث يحاول كل أعداء الإسلام من الصهاينة والماسون والنصارى والشيوعيين والوثنيين فى الهند وجنوب شرق آسيا - يحاول كل هؤلاء القضاء على القرآن، وينفقون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لمحوه وتحريفه، ولم يظفروا إلا بالحسرة والهزيمة التى بشر بها القرآن بقوله: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون»(٢).

ومن ذلك إخبار القرآن بأن المعاندين له لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله أبدا مهما حاولوا «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا».

فكيف يخبر محمد ﷺ بأن إنسانا كائناً من كان أو حتى جنا لن يستطيع أن يأتى بمثل القرآن لا فى الحاضر ولا فى المستقبل مع أن المستقبل غيب لايملكه

---

(١) راجع صـ ١٢٠، صـ ٧١ وما بعدها من كتاب الإسلام فى عصر العلم.

(٢) الأنفال آية ٣٦.

محمد ﷺ ولا أى مخلوق، ومع ذلك تحققت هذه النبوءة حيث انقرضت طبقة المخاطبين دون أن يعارضوا القرآن الكريم. ومضت بعدهم أجيال وأجيال إلى اليوم ولم يستطع أحد أن يأتى بمثله على الرغم من أن أعداء الإسلام كثيرون ومحاولاتهم فى القضاء عليه متعدده ومع ذلك لم يحاول واحد منهم حتى الآن أن يهاجم الإسلام من هذا الباب.

فمن كان على علم بعجز البشرية على اختلاف أجيالها عن الاتيان بمثل القرآن سوى الله سبحانه وتعالى الذى أوحى إلى محمد بما قال.

وقد أشار الإمام الرازى فى تفسيره لقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» إلى أن هذه الآية قد دلت على إعجاز القرآن من وجوه:

أحدها : أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا فى غاية العداوة لرسول الله وفى غاية الحرص على إبطال أمره، فإذا انضاف إلى ذلك مثل هذا التقريع وهو قوله «ولن تفعلوا» فلو كان فى إمكانهم الإتيان بمثل سورة واحدة من القرآن لأتوا به، وبما أنهم لم يأتوا إذاً فالقرآن صادق فى إخباره ومعجز لكل بنى البشر.

وثانيهما : الثقة التى ألقى بها محمد ﷺ هذا الخبر وهو المعروف بالعقل والحكمة والنظر فى عواقب الأمور فلو لم يكن نبى الله حقا لما سمح لنفسه أن يتحداهم بهذه الصورة، بل كان يخاف من أن يتمكن أحدهم من ذلك فيقضى على دعوته فلولا معرفته اليقينية وثقته فى الله الذى أعلمه بأنهم سيعجزون عن المعارضة، لما سمح لنفسه بهذا التحدى الواضح.

وثالثها : أن هذا الخبر قد أثبتت الأيام صحته، لأن من أيامه ﷺ إلى عصرنا هذا لم يخل وقت من الأوقات ممن يعادى الإسلام، ومع هذا العداء الشديد لم يوجد من عارض القرآن الكريم[١].

ومن الغيب المستقبل أيضاً الذى كشف عنه القرآن الكريم عصمة الله لرسول الله من شر الناس «والله يعصمك من الناس»[٢].

(١) الرازى – مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٣٢.
(٢) المائدة – ٦٧.

فقد كان الرسول يتخذ لنفسه حرسا خاصا حيث كان سعد بن مالك يتابع الرسول ويحرسه بسيفه، وما إن نزلت هذه الآية حتى نادى النبى فى حرسه يأيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله «ومعنى هذا أن الرسول لن يقتل بيد بشر وهذا إخبار عن غيب. إذ من الذى يستطيع أن يجزم بأن محمدا لن يقتل مع كثرة أعدائه وتوفر دواعيهم على قتله فقد أذل كرامتهم وأهانهم فى تراثهم وعقيدتهم.

ولقد حاول المشركون أن يقتلوا محمد ﷺ فى ليلة الهجرة، وحاول اليهود مرات عديدة، وغير هذه المحاولات كانت معارك الرسول ﷺ كثيرة، وكان هو هدف العدو فيها، وما حدث أبدا أن ولى الرسول ﷺ ظهره للعدو، بل كان أقرب أصحابه إلى العدو ساعة المعركة، وكانوا يلوذون به إذا حمى الوطيس، حتى أنه فى غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين، وإذا بالرسول يسير فى اتجاه العدو راكبا بغلته، وعمه العباس آخذ بلجامها يحاول كفها عن الاتجاه إلى الأعداء حتى أصبح الرسول بين المشركين، فلم يفر بل نزل عن بغلته كأنه يمكنهم من نفسه وراح يقول: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فما نالوا منه شيئا وهم الحريصون على قتله، إن نبوءة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل لن تقتل، لا يمكن أن تكون إلا من الله الذى يعلم الغيب وبيده الموت والحياة[1].

ومن ذلك الأخبار التى بشرت بانتصار الإسلام وتمكين الله للمسلمين فى الأرض يقول الله تعالى «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[2].

وقد حدث ذلك حيث نشر صحابة رسول الله ﷺ شهادة التوحيد على ربوع الدنيا من المشرق إلى المغرب وقضوا على سلطان قيصر وكسرى وكان أبو بكر الصديق إذا أرسل جيوشه ذكرهم بهذه المبشرات، وكذلك كان يصنع عمر بن الخطاب[3].

---

(١) سعيد حوى – الرسول ص ٢٨١.
(٢) التوبة ٣٣.
(٣) أبو بكر الباقلانى اعجاز القرآن ص ٤٣٨.

ومن هذا القبيل إخبار القرآن بدخول المسلمين مكة منتصرين على أعداءهم يقول الله تعالى «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون».

وقد تحقق ذلك لرسول الله ﷺ حيث دخل مكة ظافرا منتصرا(١).

ومن أعجب الدلائل على صدق أخباره المغيبة أن يتحدى القرآن الكريم أعداءه من اليهود فى شيء سهل بسيط وفى متناول أيديهم وهو تمنى الموت حين ادعوا أنهم الشعب المختار وأن الجنة وقف عليهم دون سائر البشر فتحداهم القرآن بقوله «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» ثم قال «ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين».

ولقد كان بمقدور اليهود أن يقولوا ولو بألسنتهم: نحن نتمنى الموت حتى يقيموا الحجة على محمد ويكذبوا أخباره ولكنهم لم يقولوا ذلك وصدقت نبوءة القرآن الكريم وثبت أنه من عند الله علام الغيوب وخبير النفوس، وعالم الطوايا والسرائر.

وآيات الإخبار عن المغيبات كثيرة وكثرتها وجه آخر من وجوه الإعجاز، لأنه مع كثرتها لم تكذب منها نبوءة واحدة بل وقعت جميعها وصدقت كما أنبأ القرآن الكريم ولو تخلفت واحدة من هذه النبوءات الكثيرة لقامت الدنيا وقعدت، ولهلل أعداء الإسلام فرحا بالعثور على سقطة لهذا الكتاب الذى تحداهم.

ويزيد فى أمر هذا الإعجاز أن المتحدث بهذه الأنباء كان أميا نشأ بين الأميين، بل إنه كان أحيانا يفعل خلاف الأولى فى المسائل التى لم ينزل فيها وحى كما حدث فى أمر الأسرى فى معركة بدر(٢).

ومعقد الطرافة بعد هذا كله أن ينطق الرسول ﷺ بهذه الحقائق المذهلة.

---

(١) راجع ص ٣٥٠ وما بعدها من كتاب «شمائل القرآن».

(٢) راجع ص ٢٧٨ جـ ٢ من مناهل العرفان.

«قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون».

إذا فالقرآن هو من عند الله الذى يملك بيده مفاتح الغيب.

ومما ينبغى التنبيه إليه أن هذا الوجه لايستقل وحده بإثبات إعجاز القرآن جملة؛ ذلك أن القرآن معجز فى كل آية من آياته وفى كل سورة مع أن بعض السور لا تنطوى على إخبار بالمغيبات إذا فهذا الوجه يثبت إعجاز القرآن بانضمامه إلى باقى الأوجه لا منفردا بنفسه.

وهذا ما أشار إليه الخطابى فى كتابه إعجاز القرآن بقوله: «ولا يشكك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره، نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن وقد جعل سبحانه فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها فقال: «فأتوا بسوره من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه»[1].

وبقيت نقطة أخيرة يجب التنبيه عليها وهى أن ما يدعيه الكهان والعرافون والمنجمون وقارئوا الكف والفنجان، لايعد إخباراً بالمغيبات، فإن كذب هؤلاء أكثر من صدقهم، إن صح تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم[2] ذلك أن أخبارهم كلها أخبار عامة وموهمة كما يصنع كتاب باب الحظ فى بعض الجرائد، فهى للضحك على الناس وتضييع وقتهم ليس غير.

وأما مايعرفه الفلكيون ورجال المراصد من الأحوال والظواهر الجوية مثل الخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها وحالة الأمطار والرياح والحرارة والبرودة فكل هذا ليس إخباراً عن الغيب، وإنما هى احتمالات قائمة على أسس علمية وحسابات رياضية يعرفها أصحاب الإختصاص، ويعرفها كل من يتعلمها، ومع ذلك فأخبارهم كلها مجرد توقعات، تصدق أحيانا وتتخلف كثيراً.

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ السيد صقر لكتاب إعجاز القرآن.

(٢) تفسير المنار جـ ١ صـ ٢٠٥.

الفصل الرابع

تأثيره فى القلوب

ومن الوجوه المهمة لإعجاز القرآن: أثره فى نفوس أعدائه وعمله فى قلوبهم، فإن مجرد سماع القرآن الكريم له لذة وحلاوة وروعة ومهابة تسيطر على القلب وتأخذ السمع والعقل ذلك أن القرآن له سلطانه الروحى الخفى على القلوب، وولايته المطلقة على مدارك الإنس والجن على السواء، حتى قالت الجن حين سمعته «إنا سمعنا قرآنا عجيباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً».

وهذا الوجه أشار إليه الخطابى فى كتابه إعجاز القرآنى بقوله «وفى إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس: فلا يكاد يعرفه إلى الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره فى النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولامنثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال، ومن الروعة والمهابة فى أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود. وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا»(١).

وقد أعجب فريد وجدى بهذا الوجه حتى أنه قدمه على النظم والبلاغة فقال: لقد حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كل عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهه بلاغته، ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه.

---

(١) مقدمة إعجاز القرآن الباقلانى صـ ١٧.

ثم يرد فريد وجدى جهة إعجاز القرآن إلى كونه روحاً من أمر الله بدليل سلطانه البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحدين ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولاالإيمان»[١].

فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد، فيحركها ويتسلط على أهوائها[٢].

وهذا الذى أشار إليه الخطابى وفريد وجدى حق لاشك فيه، فللقرآن جاذبيته وتأثيره وهناك كثير من الوقائع التى تثبت ذلك منها:

١ - قصة المهاجرين إلى الحبشة، ذلك أن جعفر بن أبى طالب لما قرأ على النجاشى ومن حوله من القساوسة والرهبان - بعض آيات من القرآن الكريم «أخذت الخشية تتغشاهم فأجهشوا بالبكاء جميعاً حتى فرغ جعفر من القراءة، ثم أرسل النجاشى إلى رسول الله سبعين عالما من علماء النصارى فقرأ الرسول عليهم سورة (يس) فبكوا وآمنوا[٣]، وإلى هذا يشير قوله تعالى «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»[٤].

٢ - قصة إسلام جبير بن مطعم حيث دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة «والطور وكتاب مسطور» حتى وصل إلى قوله تعالى «إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع» فإذا بجبير ترتعد فرائصه ويرتجف قلبه ويقول خشيت أن يدركنى العذاب فأسلم فى الحال وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأليس هذا من إعجاز القرآن وتأثيره فى النفوس.

---

(١) الشورى الآية (٥٢).

(٢) راجع ص ٣٤٣ وما بعدها من كتاب الإعجاز فى دراسات السابقين.

(٣) راجع ص ٢٦٧ من العقيدة الإسلامية وأسسها - لعبد الرحمن حبنكة.

(٤) المائدة آية ٨٣.

٣ – قصة إسلام عمر بن الخطاب وكيف أنه أسلم بعد أن سمع سورة (طه) على الرغم من عناده وحربة للإسلام فقد روى ابن إسحاق أن عمر خرج متوشحاً بسيفه يريد ضرب رسول الله وأصحابه فلقيه نعيم بن عبد الله فى الطريق – فأخبره بأن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد آمنا بمحمد فذهب إليهما عمر وهناك سمع (خباباً) يتلو عليهما القرآن فاقتحم الباب وبطش بسعيد وشج رأس فاطمة ثم أخذ منهما الصحيفة وفيها سورة (طه) فلما قرأ صدرها قال «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» ثم أسلم[1].

وفى رواية أخرى أنه قال: لما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلت الإسلام.

٤ – واقعة إرسال المشركين عتبة بن ربيعة إلى رسول ﷺ يحاول إثناءه عن دعوته، فقرأ الرسول ﷺمن أول سورة فصلت إلى قوله (فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون، وكان عتبة حسن الحديث عجيب البيان قوى الحجة ولكنه ما إن سمع من الرسول ما سمع حتى وثب مخافة أن يقع عليه العذاب فسأله المشركون عما سمع فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه. بل قال لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولاهو من كلام الجن، أن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن سفله لمغدق وأنه يعلو ولايعلى عليه ، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه[2].

٥ – إن هؤلاء المشركين مع حربهم للرسول ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون فى جنح الليل يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه فى بيوتهم فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم وأثر فى قلوبهم، ولكن أبى عليهم عنادهم وكبرهم أن يؤمنوا به.

• وفى العصر الحديث يبدى أحد الشعراء الملحدين إعجابه بالقرآن ومافيه من محكم الآيات على الرغم من كفره وإلحاده، فيقول شبلى شميل.

---

(١) راجع السيرة، لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤.

(٢) إعجاز القرآن ص ٢٨.

دع من محمد فى صدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات

إنى وإن أك قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الايات

ومواعظ لو أنهم عملوا بها ... ماقيدوا العمران بالعادات

من دونه الأبطال فى كل الورى ... من حاضر أو غائب أو آت(١)

وهكذا تلحظ تأثير القرآن فى نفس هذا الملحد فعبر بلسانه عن الحقيقة التى جحدها بقلبه.

٦ - أنه من شدة تأثير القرآن وجاذبيته كان صناديد الكفر يحاولون منع الرسول ﷺ من قراءته فى المساجد وفى مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره حتى لقد هالهم من أبى بكر أن يصلى فى فناء داره وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه ويستمتعون بلذة القرآن ويتأثرون به وتهتز قلوبهم له. ولقد كان ذعر المشركين من تأثير القرآن شديدا حتى أنهم تواصوا فيما بينهم على عدم سماعه «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» فإن هذا ليدل على الذعر الذى كان يضطرب فى نفوسهم من تأثير القرآن فيهم وفى أتباعهم وهم يرون الأتباع يؤمنون بالقرآن بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورتين يتلوها محمد ﷺ أو أحد أتباعه فتنقاد إليهم النفوس وتهوى إليهم الأفئدة.

فلولا أن الكافرين أحسوا بعمق تأثير القرآن ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما حذروهم هذا التحذير الذى يدل أعمق الدلالة على عمق تأثير سماع القرآن(٢).

---

(١) راجع ص ١٦٠ من كتاب (نظرات فى القرآن) للأستاذ محمد الغزالى.

(٢) الأستاذ الشهيد - سيد قطب - التصوير الفنى ص ١٢.

٧ – واقعة إسلام سعد بن معاذ هو وابن أخيه أسيد بن حضير حيث ذهبوا إلى مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم وقد أرسلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم – لنشر الإسلام فى المدينة – وقد نجحا نجاحا منقطع النظير فى نشر الإسلام هناك مما هال سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس فذهب إلى مصعب يهدده ويمنعه من تلاوه القرآن، فطلب منه مصعب أن يجلس ليسمع شيئاً من القرآن، فإن أعجبه قبله وإن كرهه امتنع عن القراءة، وما أن سمع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير كلام الله حتى أثر فى قلوبهم وأسلموا فى الحال[1].

ولقد صدق الله حين قال: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله». «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم بالغيب».

وهكذا فللقرآن روعة تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم وهيبة تعتريهم عند تلاوته[2]، وقد أسلم كثير من الصحابة بمجرد سماعهم لآياته.

يقول أحد الفلاسفة الفرنسيين فيما ينقله الشيخ الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان: «إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألها، فتفعل قراءته فى جذب الناس إلى الإيمان به مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين»[3].

وقد يعترض بعض المنحرفين على هذا الوجه بأنه لو كان صحيحا لوجب أن يسلم كل من استمع إلى القرآن مع أن المشركين ظلوا يعاندون رسول الله السنين المتوالية على الرغم من سماعهم إياه.

وقد أجاب الباقلانى على هذا الاعتراض بأن الناس ليسوا سواء فقد كانت صوارفهم كثيرة، فمنهم من يشك فى إثبات الصانع، ومنهم من يشك فى التوحيد، ومنهم من يشك فى النبوة، ألا ترى أن أبا سفيان ابن حرب لما جاء الرسول–

---

(١) راجع الرحيق المختوم ص ١٧٢ للشيخ صفى الرحمن المبار كفورى.

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٢٣.

(٣) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٠٧، وقارن ص ٢٠٣ جـ ١ من تفسير المنار.

ﷺ ليسلم علم الفتح، قال له النبى عليه السلام: أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال بلى فشهد فقال: أما آن لك أن تشهد أنى رسول الله؟ قال: أما هذه ففى النفس منها شىء».

إذا كانت وجوه شكوك المشركين مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم من عاد إلى فطرته وترك عناده وكبره فأسلم بمجرد سماعه، ومنهم من انحرفت فطرته وكثرت شكوكه فأعرض عن تأمل القرآن فصرفه الله عنه يقول الله تعالى «سأصرف عن أيتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق».

ومنهم من كذب بالقرآن، قبل أن يتصوره أو يحط به علما، كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين»(١).

وهكذا يشير القرآن إلى سبب من أسباب كفرهم بالقرآن وهو عدم موضوعيتهم حيث رفضوا أن يؤمنوا بالقرآن رفضا مسبقا قبل أن يفهموه ويتصوروه، ثم يحكموا عليه بعد ذلك، هل هو أهل للقبول أو الرفض.

– ومنهم من منعه الحقد والحسد والتنافس من الإيمان، فقد كان أمية ابن أبى الصلت ممن تنبأ بظهور نبى فى العرب قبل ظهور محمد ﷺ حتى طمع هو فى النبوة وأكلت قلبه الغيرة حين لم ينزل عليه الوحى، وإنما نزل على محمد ﷺ على الرغم من أن شعره كان مليئاً بالحكم والمعانى السامية حتى قال عنه الرسول ﷺ «أميه آمن شعره وكفر قلبه».

وكان الوليد بن المغيره يقول: أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما الفريقين.

ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة، ثم

---

(١) يونس ٣٩.

محمد؟ فكان جواب أبي جهل «ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى سندرك مثل هذه والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه»[١].

ولو كان المشركون على درجة واحدة من الفهم والعقل والفصاحة والبلاغة وكانت صوارفهم وشكوكهم متفقة لدخلوا في الإسلام جملة واحدة بمجرد سماع القرآن ولكن سبحان مقلب القلوب[٢].

---

(١) قارن صـ ١٧٦ من حياة محمد – د. محمد حسين هيكل.

(٢) راجع صـ٢٨ من إعجاز القرآن للباقلاني.

الفصل الخامس

مـن الوجـوه المرفوضـة

القول بالصرفة

إدعى بعض العلماء أن وجه إعجاز القرآن هو فى صرف الله للعرب عن الإتيان بمثله، لكن القرآن نفسه غير معجز - كما ادعى النظام من المعتزلة حين قال:

«إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به»[١].

ومثل النظام فى هذه المقالة عيسى بن صبيح الملقب بالمردار وهو تلميذ بشر بن المعتمد فإنه يقول: «إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظما»[٢].

كذلك ذهب الرمانى من المعتزلة إلى القول بالصرفة واعتبره وجها من وجوه الإعجاز حيث يقول: «وأما الصرفة فهى صرف الهمم عن المعارضة. وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم فى أن القرآن معجز من جهة صَرف الهمم عن معارضته وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التى دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز»[٣].

وواضح من هذا النص أن القرآن فى حد ذاته مقدور عليه إلا أن العائق عن معارضته مع القدرة عليه هو وجه الإعجاز.

وغريب هذا الكلام من الرمانى وهو الذى أشار إلى إعجاز القرآن بالنظم والبلاغة ولا يمكن الجمع بين القول بالصرفة والقول بالنظم، ومن هنا رأى بعض

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٠١.

(٢) الملل والنحل جـ ١ صـ ٦٨.

(٣) السابق ص ١٢.

الباحثين أن الرماني في حكايته للقول بالصرفة أراد أن يذكر رأى جماعته «المعتزلة» أما رأيه الخاص الذى يدين به فهو أن القرآن معجز بنظمه وبذاته»[١].

كذلك ذهب ابن حزم الظاهرى إلى القول بالصرفة وراح يعرض آراء المعارضين ويغالط فى تفنيدها حتى ينتصر لرأى القائلين بالصرفة»[٢].

وذهب المرتضى من الشيعة إلى أن معنى الصرفة أن الله سلب العرب العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة لكى يأتوا بمثل القرآن «وكان مراد المرتضى من هذا المعنى أن العرب بلغاء يقدرون على مثل نظم القرآن وأسلوبه ولكنهم لا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعانى إذ لم يكن أحدهم أهل علم ولا كان العلم فى زمانهم»[٣].

وإلى مثل هذا الخلط ذهب ابن سنان الخفاجي فى كتابه: (سر الفصاحة) حيث قال «وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة(..) ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن فى تأليفه»[٤].

هذا هو كلام القائلين بالصرفة وهو كلام لا دليل عليه بل الأدلة تنقضه وتهدمه وكل مالهم فى هذا المجال هو شبه يقولون فيها:

١ - إن من يستطيع أن ينظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل عنده قدر الآية والسورة[٥].

---

(١) راجع ص ٤٤ من كتاب الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.

(٢) راجع الفصل جـ ٣ ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) راجع إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٢.

(٤) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم.

(٥) إعجاز القرآن للباقلانى.

ومعلوم أن العرب كانوا قادرين على ذلك لأنهم أصحاب البلاغة والفصاحة ولكن صرفهم الله عن المعارضة.

٢ - إن كبار الصحابة عند جمعهم للقرآن الكريم بعد وفاة النبى كانوا يتوقفون فى بعض السور ويطلبون شهادة الثقات عليها، فقد تردد عبد الله بن مسعود فى الفاتحة والمعوذتين، فلو كان القرآن معجزا بفصاحته متميزا عن سائر الكلام لما احتاج هؤلاء إلى التثبت والتاكد[١].

مناقشة القول بالصرفة:

يرى بعض الباحثين أن الأصول الأولى لفكرة الصرفة موجودة عند الهنود البراهمة حيث ورد فى كتاب «تحقيق ما للهند من مقوله» للبيرونى أن الهنود قد نسبوا لله كلاما صار عندهم كتابا مقدسا وقد اختلفوا فى إعجازه، فمنهم من يقول بأن إعجازه فى نظمه إذ نظمه مخالف للنظم المعروف، ومنهم من يرى أنه فى مقدورهم ولكنهم ممنوعون عنه احتراما»[٢].

فهذا القول الثانى قريب من القول بالصرفة.

وإذا صح هذا القول، فلربما استطاع النظام أن يستقى قوله من الكتب المترجمة التى نقلت فى عهد الدولة العباسية، وفى هذا يقول الشهرستانى فى الملل والنحل «إبراهيم سيار بن هانىء النظام - طالع - إبراهيم كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها: قوله فى إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين من أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما»[٣].

---

(١) سعد الدين التفتازانى جـ ٢ صـ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) قارن صـ ٣٠ من كتاب الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.

(٣) الملل النحل جـ ١ ص ٥٧.

ويفصح الشهرستانى أيضاً (فى نهاية الإقدام) عن الأساس الذى قام عليه هذا المذهب وهو «إعتقادهم أن القرآن مخلوق خلقه الله فى بعض الأجرام ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق»(١) أى بين كلام وكلام.

ومما هو جدير بالذكر أن القاضى عبد الجبار وهو من كبار أساتذة المذهب المعتزلى ينكر القول بالصرفة ويناقشه فى أكثر من موضع من كتابه المغنى(٢).

ذلك أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن مسلم مؤمن بكل ماورد فى القرآن الكريم فمن المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن هو معجزة رسول الله الكبرى وحجته على الخلق إلى يوم الدين فكيف يستبيح لنفسه أن يقول «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة».

وكيف يستبيح لنفسه أن يسوى بين القرآن وبين سائر الكتب السابقة – مع أن هذه الكتب لم تكن معجزات لأنبيائها خلافا للقرآن الذى كان معجزة الرسول الكبرى.

فمن البدهيات فى تاريخ الأديان أن الكتب السابقة لم يَتَحَدَّ الله بها البشر، ولم يصفها بما وصف به القرآن الكريم حيث وصفه بأنه «بلسان عربى مبين» وأن البشر عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله على الرغم من أنهم يتحدثون بلغته.

ولم نسمع فى تاريخ الأديان أن أهل التوراة والإنجيل قد ادعوا الإعجاز لكتابهم، ذلك أن الإعجاز فى الكتاب هو من خصوصيات القرآن الكريم، فلا ندرى بعد ذلك كيف يسوى النظام بين القرآن وسائر الكتب السابقة مع أن هذه الكتب لم تكن معجزات أنبيائها فقد أعطاهم الله معجزات حسية أخرى، أما القرآن الكريم فقد كانت آياته هى المعجزة، يقول الرسول ﷺ «مامن نبى إلا وقد أوتى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

---

(١) نهاية الأقدام صـ ١٢٧.

(٢) المغنى جـ ١٦ صـ ٢١٧، ٣٢٧.

ومعنى هذا أن معجزة الرسول فى نفس الوحى وما أوحى إليه فيه الدليل على أنه من عند الله إذ هو ذاته المعجزة ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كان القرآن يلفت نظرهم إلى أن الآية والمعجزة بين أيديهم. «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون»(١) فأخبرت الآية أن الكتاب آية من آياته وتقوم مقام معجزات غيره من الأنبياء فظهر بهذا أن نبوة محمد ﷺ مبنية على إعجاز القرآن ودلالته على أنه من عند الله، وبهذا يتميز القرآن الكريم عن غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عنها «وهو المعجزة الحسية المرئية على يد النبى، لكن نظم نفس الكتاب غير معجز، وليس كذلك القرآن فإن نظمه معجز ومن يسمعه بإنصاف يعلم أنه كلام الله يقول الله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» فلولا أن نفس الكلام معجز فى ذاته لما جعل مجرد سماعه حجة على المشرك(٢).

وهذا ما يدحض إدعاءات النظام فى التسوية بين القرآن وبين سائر الكتب السابقة «والواقع أن أصحاب هذا الرأى كانوا من الحاقدين على القرآن الكريم المنكرين لإعجازه فى ذاته وهى محاولة خبيثة لإسقاط القداسة عن القرآن الكريم حتي تصل البجاحة والوقاحة بأحدهم أن يقول: إن فى كلام العرب مايضاهى القرآن في تأليفه!!

وإنه لقول عجيب، وكيف غاب هذا القول عن مشركى مكة، ولماذا لم يقولوا لرسول الله ﷺ إننا نستطيع أن نأتى بمثل هذا القرآن إلا أننا نجد قوة خارجة عن إرادتنا تمنعنا من ذلك؟

وهكذا يتبين لنا أن كل ماقالة دعاة الصرفة ينقضه العقل والمنطق وحقائق التاريخ. هذا ويمكن أن نناقش هذا الرأى الخاطىء بما يأتى:

أولا : أنه قول ينكر ما علم من الدين بالضرورة وهو أن القرآن معجزة رسول الله ﷺ وحجته على سائر الخلق.

---

(١) العنكبوت الآية : ٥٠، ٥١.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ١١٧.

ثانيا : أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن الكريم فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة الإعجاز، فالشأن فى المعجزة أن تكون أمراً خارقا للعادة خارجا عن إمكانات البشر، ولكن الصرفة تستلزم أن تكون المعجزة مما يدخل فى مكنة البشر ولكنهم يسلبون القدرة على مثلها فى حالة التحدى.

ثالثا : أنه قد يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وخلو القرآن من الإعجاز – ومعنى هذا أن الناس اليوم قادرون على الإتيان بمثله وهذا كلام ينقضه الواقع فالقرآن معجز بذاته لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله.

رابعاً : أن هذا القول فاسد بدليل قول الله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» فإن هذه الآية الكريمة إنما تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق هناك فائدة لاجتماعهم لأنه حينئذ يكون بمنزلة اجتماع الموتى، فما فائدة اجتماعهم مع سلب قدرتهم وهل عجز الموتى مما يحتفل بذكره[(١)].

خامسا : ولو كان الأمر كما قالوا لوجدنا عند عرب الجاهلية الذين لم يصرفوا عن معارضته مايضارع القرآن ولم يكن الأمر كذلك، وهذا ما عبر عنه أبو بكر الباقلانى بقوله: «على أنه لو كانوا صرفوا على ماادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا البتة ولم تلزمهم حجته فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله، علم أن ماادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان»[(٢)].

وتحليل هذا النص أنا لو سلمنا بأن العرب الذين نزل فيهم القرآن، قد منعوا من أن يأتوا بنظيره بصرف الله لهم عن ذلك، فماذا يقول أصحاب هذا المذهب فى أهل الجاهلية قبل نزول القرآن، فمنهم فحول الشعراء والخطباء الذين قالوا ماقالوا فى حرية تامة، ولم يصرفهم صارف عن الجودة والإحكام فى أشعارهم، ومع ذلك لا نجد لهم شيئاً يشبه القرآن فى إعجازه البلاغى.

---

(١) راجع صـ ١١٨ جـ ٢ من الاتقان فى علوم القرآن.
(٢) اعجاز القرآن ص ٣٠.

سادسا : ومما يهدم هذا الرأى أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها بالصرفة - لم يكن القرآن معجزاً وإنما يكون المنع هو المعجز فلايصبح هناك فرق بين كلام الله المنزل فى القرآن وبين سائر كلام البشر(١).

سابعا : ولو صح القول بالصرفة لما كان هناك ما يدعو إلى نزول القرآن على رسول الله ﷺ وهو فى قمة البلاغة والفصاحة والبيان، بل كان الأولى أن يأتى فى أدنى درجات الفصاحة حتى يكون وجه إعجازه أعمق حيث صرفوا عن شىء أدنى مما برعوا فيه وهذا ما يعبر عنه أبو بكر الباقلانى بقوله «على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمة الممتنع لكان مهما حط عن رتبة البلاغة ومنع من مقدار الفصاحة فى نظمه كان أبلغ فى الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه فى المعرض الفصيح العجيب(٢).

ثامنا : وأما شبهتهم التى ادعوا فيها أن العرب كانوا قادرين على نظم كلمتين بديعتين فيكونون قادرين على نظم مثلهما حتى يتكامل قدر السورة فالجواب عنها: أنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنة نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ومعلوم أن ذلك غير ممكن(٣) فحكم الجملة يخالف كل واحد من الأجزاء، ولو صح ما ذكره هؤلاء، لكان كل واحد من العرب قادرا على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم مثل امرىء القيس وغيره لكن اللازم باطل فبطل ما أدى إليه من القول بالصرفة.

تاسعا : وأما الشبهة الثانية التى ادعوا فيها أن كبار الصحابة قد توقفوا فى بعض الآيات، فالرد عليها أن هذه الرواية لايقبلها عقل منصف وإلا فكيف يتوقف ابن مسعود فى الفاتحة التى كان يصلى بها خلف رسول الله خمس مرات

---

(١) السابق ونفس الموضع.

(٢) السابق ص ٢٩.

(٣) السابق ونفس الموضع.

يوميا، فحتى ولو كان سند الرواية صحيحا فإننا نطعن فى متنها لأنه لا يتفق مع العقل.

وعلى فرض صحة هذه الرواية فإن توقف بعض الصحابة فى بعض سور القرآن ليس معناه أن القرآن غير معجز بذاته، بل معناه أنهم كانوا يحتاطون للقرآن الكريم ويدققون فى جمعه، فالرواية التى أوردوها لاتثبت مدعاهم وهو أن القرآن الكريم غير معجز بذاته ولا يتميز عن كلام البشر فى شىء وإلا فليخبرنا هؤلاء لماذا كان يتعجب فصحاء العرب من حسن نظم القرآن وبلاغته ويطربون لسماعه، ولماذا قال الوليد بن المغيرة ما قال فى شأن القرآن؟ أيصدر مثل هذا القول عن رجل لايدرك أن القرآن معجز فى ذاته، أيصدر عن رجل يشعر من نفسه القدرة على الإتيان بمثل القرآن؟ إن مقولة الوليد بن المغيرة عن القرآن الكريم لتقطع ألسنة القائلين بالصرفة وتثبت بما لايدع مجالا للشك أن القرآن معجز بذاته وأن كل سورة فيه إنما تنطق بهذا الإعجاز الذاتى.

وأخيراً فقد رأى بعض الباحثين أن ترك المعارضة لا يمكن أن يكون وجها فى الإعجاز، وغاية مايعطيه هذا القول فى قضية الإعجاز أنه دليل على قيام الإعجاز فى القرآن حيث لم يعارض مع طول التحدى فهو والأمر كذلك مسألة سلبية .. بخلاف النظم الذى هو صفة قائمة فى نص القرآن وأسلوبه يمكن تلمسها على مدى الزمن، وكان الجاحظ أدق نظرا وأصح تعبيرا حين قال: «وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة فمتى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها، فقد عارضونا فأما الإنكار فليس بحجة»(١).

ولقد قال الرافعى عن القول بالصرفة إنه لايختلف عن قول العرب «إن هذا إلا سحر يؤثر»(٢) وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربا من العمى فقال «أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون»(٣).

---

(١) راجع كتاب حجج النبوة – على هامش الكامل جـ ٢ صـ ٤٥.

(٢) المدثر ٢٤.

(٣) الطور ١٥.

والتشابه بين القولين يجمعه تعليلهما عدم القدرة على الإتيان بالمثل لسبب خارج عن القرآن - لا لما تضمنه من وجوه الإعجاز، فالقول بالصرفة يعطى أن العرب لم يكونوا عاجزين وكذلك الأمر فى السحر[١].

• • •

(١) الرافعى - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ ١٨٩ القاهرة سنة ١٩٢٨.

الفصل السادس
الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

امتازت معجزة رسول الله ﷺ الكبرى (القرآن الكريم) بكثير من المعجزات التى افتقدتها الكتب السماوية السابقة ومنها:

- أن هذه الكتب السابقة إنما نزلت كى تخاطب عقولا معينة لها فكر معين وثقافة محددة، ومن هنا جاءت نصوصها محدودة لاتصلح إلا لأهل الزمان الذى نزلت فيه هذه الكتب.

بينما نزل القرآن الكريم لكى يخاطب العقل الإنسانى أياً كان زمانه وأياً كان مكانه، ومن هنا امتازت نصوصه بعطائها الذى لاحدود له يأخذ منها أهل كل عصر ما يناسب حياتهم، فهى نصوص كلية صالحة للانطباق على جزيئات كثيرة، وفى الوقت نفسه يخاطب القرآن الكريم الناس على قدر عقولهم من غير مخالفة للحقائق العلمية، فيفهمون نصوص الآيات بقدر ما يتيسر لهم من العلم فى كل زمان.

- ومن هنا امتاز القرآن الكريم على هذه الكتب أيضا بالإعجاز العلمى، ففى عصر العلم والنظريات العلمية وجد المؤمنون من العلماء التجريبيين فى القرآن الكريم كثيراً من الآيات التى أثبتت نظريات علمية لم يعرفها العلماء إلا فى هذا العصر.

يقول المفكر الفرنسى موريس بوكاى «على عكس القرآن لا تشتمل التوراة والإنجيل على نصوص حول الظواهر الطبيعية التى يمكن أن تشكل - فى أى وقت من التاريخ الإنسانى - موضوعا جديراً بالملاحظة (...) فإن مثل هذه النصوص ينفرد بها القرآن حيث تم التعبير عنها بشكل يسمح لنا بمقارنة حقائق كثيرة بمعارفنا اللادينية»(١).

---

(١) راجع ص ١٥٩ من كتاب «ما أصل الإنسان».

- ومن العجيب أن القرآن الكريم يورد هذه الحقائق فى أسلوب حكيم خاص به. يفهم منه الناس وقت نزوله على قدر عقولهم، وما يبدو لهم فى الكون، ثم بتقدم العلوم والوصول إلى حقائق جديدة نجد آيات القرآن الحكيم تتفق معها، ولذا يتجدد إيمان الناس بإعجاز القرآن كلما ظهرت لهم حقائق جديدة يرون القرآن قد أشار إليها أو عبر عنها»(١).

بينما نجد أن هذا الإعجاز العلمى مفقود فى الكتب السابقة ومن هنا كفر الغرب النصرانى بدينه وكتبه حين ظهرت النهضة العلمية ولم يجد علماء الغرب فى دينهم ما يؤيد نظريات العلم الحديث، بل على العكس وجدوا فيه ما ينقض هذه النظريات ويهدمها، ومن هذا: النص على عمر الأرض فقد ادعت التوراة والإنجيل بأن عمر الأرض محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين فى حين أن نظريات العلم الحديث وأبحاث علماء الفلك والجيولوجيا أثبتت أن عمر الأرض يقدر بالملايين، وكذلك حديث التوراة عن بداية خلق الكون وما أثبته من أخطاء علمية يهدمها العلم الحديث(٢).

وكان هذا هو سر الصراع الذى حدث بين الدين والعلم فى أوربا «فقد تمسك القساوسة والأحبار بنصوص بالية فى كتبهم دحضها العلم الحديث بينما تمسك العلماء المحدثون بما أثبته الواقع وبما أيدته المشاهدة، لدرجة أن برونو وجاليلو حينما اكتشفوا نظرياتهم الجديدة فى علم الفلك ودوران الأرض حول الشمس وإثبات كواكب أخرى تدور فى الفضاء وطلبوا من القساوسة أن يخرجوا معهم لمشاهدة هذه الحقائق العلمية رفض القساوسة أن ينظروا فى المجهر، وبدلا

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ١٧ محمد أحمد الغمراوى.

(٢) راجع ص ٤٠ - ٤٥ من كتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل فى ضوء المعارف الحديثة وقارن ص ١٦ من كتاب (ما أصل الإنسان) لموريس بوكاى أيضاً حيث ينقل نصا عن المفكر المسيحى المشهور «جان جويتون» يقول فيه: «والأخطاء العلمية التى فى التوراة إنما هى أخطاء بشرية، لأن الإنسان فى الأزمان التى خلت كان كالطفل لجهله بالعلم». ويقول بوكاى أيضاً «كان الدين والعلم فى الغرب فى موقف التعارض وكانت الحجة وراء ذلك تكمن فى التناقض بين ما جاء فى النص التوراتى وبين المعلومات العلمية» قارن ص ٢١ من المرجع السابق.

من أن يتحققوا من اكتشافات العلم الحديث حكموا بالموت على (جاليلو وبرونو)، لأن ما أثبتوه من حقائق يخالف مانشأوا عليه من أباطيل التوراة وخرافات الإنجيل ولذلك امتاز القرآن الكريم بالإعجاز العلمى حيث دعا إلى دراسة الواقع ومشاهدته وملاحظاته وبذلك وضع أسس المنهج العلمى، بل زاد على ذلك بكشفه لكثير من حقائق العلم الحديث وتأييدها.

وفى ذلك يقول الفيلسوف الفرنسى الشهير «اليكس لوازن» «خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق، وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن الكريم وبين القوانين الطبيعية مع مانبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية»[١].

فإذا كان العلم فى العصور الوسطى المسيحية قد صار الخادم المطيع للإيمان الكنسى، يحاول أن يبرر نظريات الكنيسة الكونية الباطلة، فإنه قد أصبح مع الماديه الحديثة عدوا لدودا لهذا الإيمان حيث حطم كل نظريات الكنيسة السابقة، أما العلم فى الإسلام فهو يقف بين هذين المفهومين المتطرفين شامخا منسجما مع الإسلام[٢].

وقد ساعد الإسلام على ظهور العلوم الطبيعية بصورة أخرى وذلك من خلال دعوته لعقيدة التوحيد، فقد كان الشرك قبل الإسلام من أكبر العوائق فى سبيل البحث العلمى والعلوم الطبيعية حيث كانت مظاهر الطبيعة آلهة تعبد لا مواضيع تدرس وتبحث، فقد كان الإنسان المشرك يعتبر القمر معبودا، فكيف يجترىء على أن يطأه بقدميه، وكان ينظر إلى السيول على أنها قوة تستحق العبادة فكيف له أن يفكر فى توليد الكهرباء منها بعد تسخيرها.

أما الإسلام فقد حول كل هذه المقدسات إلى مواضيع للبحث والدراسة ففتح الطريق أمام البحث العلمى وهذا ما يعترف به المؤرخ الشهير أرنولد توينبى حين

(١) د. أحمد عزت - الدين والعلم - ترجمة طاهر حمزة ص ٢٤.

(٢) الإنسان فى الكون بين القرآن والعلم ص ١٧٠ د/ عبد العليم عبد الرحيم خضر - عالم المعرفة جدة.

يقول فى كتابه «موجز دراسة التاريخ «إن إحدى نتائج الثورة الفكرية التى برزت إلى حيز الوجود على أساس (التوحيد) أن الإنسان بدأ يلقى نظرة على عالم الطبيعة على أساس أنها مخلوق، وأن له أن يعلمه ويسخره»[(١)].

ومن هنا كان اهتمام العلماء المسلمين بإبراز الجانب العلمى فى القرآن الكريم، لكى يثبتوا من جديد أن القرآن كتاب لكل عصر ولكل زمان وليس معنى هذا أن التفسيرات العلمية للقرآن الكريم وليدة القرن العشرين فقط، فقد سبق أن نبه عليها بعض المفسرين القدامى ومنهم الرازى حيث أشار إلى كثير من النظريات الفلكية من خلال تفسيره للقرآن الكريم.

إلا أن اهتمام العلماء والمفسرين بهذه النواحى فى هذا القرن كان أكثر وخصوصا مع اكتشاف الكثير من النظريات العلمية.

وكان أهم من أبرز الجانب العلمى فى القرآن الكريم الشيخ طنطاوى جوهر فى تفسيره للقرآن الكريم وكانت هناك اللمحات العلمية التى أشار إليها المرحوم الأستاذ سيد قطب فى تفسيره القيم «فى ظلال القرآن».

وكذلك كتاب «المنتخب من تفسير القرآن» الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

كما كان للشيخ محمد عبده كثير من الإشارات إلى نظريات علمية، وأيضاً لا نستطيع أن نغفل ماكتبه المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه القيم «الإسلام فى عصر العلم» ولا ما كتبه الدكتور عبد الرزاق نوفل فى كتبه المتعددة وكذلك كتاب معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بإبراز الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

قضية الإعجاز العلمى بين المؤيدين وبين المعارضين :

أثار موضوع إبراز الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم كثيراً من الجدل والأخذ والرد، فقد عارضة بعض العلماء والباحثين والغيوريين على القرآن الكريم

---

(١) راجع ص ٩٢ من كتاب «قضية البعث الإسلامى» وحيد الدين خان ترجمة محسن الندوى طبع دار الصحوة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٤ القاهرة.

ومنهم الإمام الشاطبى صاحب الموافقات، واستاذنا الشيخ عبد العظيم الزرقانى والدكتورة عائشة عبد الرحمن وكثير غيرهم من الذين عارضوا بشدة محاولة إبراز الإعجاز العلمى لوجهة نظر خاصة سوف نعرضها ونناقشها.

وهناك فريق آخر عالج المسألة بتعقل فلم يرفض التفسير العلمى مرة واحدة، ولم يؤيده كذلك على إطلاقه وإنما وضع للمسألة قيودا وقواعد ومن هؤلاء د.محمد أحمد الغمراوى - الشيخ المراغى - د. عبد الرزاق نوفل - د. جمال الدين الفندى - والشيخ الشعراوى والشيخ عبد المجيد الزندانى.

وهناك فريق ثالث: أطلقوا المسائل على عواهنها، وفتحوا الباب على مصراعيه دون تفرقة بين حقائق العلم وأوهامه وسوف نعرض فيما يأتى وجهة نظر الرافضين، ثم نناقشها بتوضيح القواعد والأصول التى وضعها المؤيدون.

المعارضون:

أنكر هؤلاء التفسير العلمى(١) للقرآن الكريم ووجهة نظرهم فى ذلك.

أولاً : الخوف من أن تفهم آيات الكتاب الكريم على غير وجهها الصحيح، فيفسر القرآن بالرأى المنهى عنه فى مناهج المفسرين.

ثانياً : أن نظريات العلم متغيرة وفى كل يوم يظهر الجديد، فلو أننا ربطنا آيات الكتاب الكريم بهذه النظريات لاهتز القرآن الكريم حين تكتشف نظريات جديدة تهدم النظريات السابقة، وبذلك يتعرض المسلم لفهم متناقض ومتغير لآيات القرآن الكريم مما يصل به إلى الشك.

وهذا ما يشير إليه المرحوم الشيخ عبد العظيم الزرقانى بقوله: «إن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة المد والجذر، وإن أبحاثا كثيرة منها لاتزال قلقة حائرة بين إثبات ونفى، فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم وماقرره

---

(١) فرق بعضهم بين الإعجاز العلمى والتفسير العلمى، بأن التفسير العلمى هو إنتفاع المفسر بما ظهر فى عصره من معلومات كونية، فيستفيد بها فى تفسير الآية، أما الإعجاز العلمى فهو الحقيقة الكونية التى يئول إليها معنى الآية ويشاهد الناس مصداقها فى الكون، ونرى أنه لافرق بينهما.

علماء الطبيعة فى الماضى يقرر غيره علماء الطبيعة فى الحاضر، وما أثبته المؤرخون قديما ينفيه المؤرخون حديثا، وما أنكره الماديون وأسرفوا فى إنكاره باسم العلم، أصبحوا يثبتونه ويسرفون فى إثباته بإسم العلم أيضاً، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم، ومما جعلنا لانطمئن إلى كل ماقرروه باسم العلم»(١).

ثالثا : أن القرآن كتاب هداية وإعجاز فقط، وليس من مهمته معالجة المسائل الكونية أو شرح المسائل العلمية(٢).

رابعاً : أن القرآن يجب أن يفهم على نحو ما أنزله الله للعرب المخاطبين به أول الأمر، وهذا هو رأى الإمام الشاطبى وبما أن الإعجاز العلمى غير داخل فى إعجاز العرب، فلا مبرر له.

يقول الإمام الشاطبى فى هذا: «أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (....) وهذا إذا عرضناه على ماتقدم لم يصح، وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ماتقدم، وماثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة (...).

ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر، لبلغنا منه مايدل على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم(٣).

وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب المرحوم الدكتور صبحى الصالح والذى يقول: «إن موضوع العلوم التى اشتمل عليها القرآن هى أدخل فى الفلسفة القرآنية منها فى بلاغة القرآن، وليست هى مادة التحدى لفصحاء العرب، وإنما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل أسلوبه(٤).

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ٢٥٣.
(٢) المرجع السابق صـ ٢٥٠.
(٣) الموافقات جـ ١ صـ ٨١.
(٤) د. صبحى الصالح مباحث علوم القرآن ص ٣٢٠.

خامسا : وتضيف الدكتوره بنت الشاطىء وجهة نظر جديدة وهى الخوف أن يتسرب إلى العقول أننا لو لم نفهم القرآن فهما عصرياً، أنه لن يقنعنا، ولن نسلم به لو فهمناه، كما فهمه الرسول وصحابته، كذلك تخشى أن يلتبس الحق بالباطل، والعمل بالدجل وهى تذكرنا بما حدث فى التاريخ قديماً من إدخال الإسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم..

وتستشهد على ذلك بما يصنعه الدكتور مصطفى محمود من تفسير القرآن بنصوص من التوراه ورؤيا يوحنا اللاهوتى وكل هذا تحت محاولة الفهم العصرى للقرآن الكريم[1].

المؤيدون للإعجاز العلمي :

والواقع أن وجهة نظر المعارضين السابقة لها احترامها ولها مكانتها وخصوصاً إذا نظرنا إلى الغاية منها وهى الخوف على القرآن، وعلى عقيده المسلم التى ينبغى أن تظل ثابتة بمعزل عن احتمالات العلم، إلا أن المؤيدين للتفسير العلمى من المعتدلين والمتعقلين، لم يتركوا الأمور على عواهنها – كما صنع الفريق الثالث – وإنما وضعوا للتفسير العلمى قواعد وأصول حين يطبقهما المفسر أو العالم، تزول عنّا كل التخوفات التى أثارها الرافضون.

ومن هذه القواعد.

أولاً : ينبغى ألا نفسر القرآن الكريم إلا باليقين الثابت من الحقائق العلمية، وليس بالفروض أو النظريات التى لاتزال موضع فحص وتمحيص، ذلك أن الظنيات والحدثيات عرضة للتصحيح والتعديل إن لم تكن عرضة للإبطال فى أى وقت.

وللأسف الشديد لم يلتزم الفريق الثالث بهذه القاعدة فكتبوا بلاروية ولا تعقل وادعوا مالم يؤكده العلم، ومالم تثبته التجربة، وقالوا فى القرآن بغير علم

(١) راجع كتابها القيم – القرآن وقضايا الإنسان بيروت سنة ١٩٧٥ ص ٢٧٩، ٢٩٩.

ولاهدى، قالوا: إن فى القرآن معادلات كيميائية، ونظريات رياضية وهندسية، وعلوم جزئية[١].

وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه الدكتور مصطفى محمود وغيره من صغار الباحثين الذين لم يحصلوا من علوم القرآن وشروط الإجتهاد القدر الكافى لقولهم فى القرآن برأيهم.

وهو منهج مرفوض.

فمن المسلم به أن القرآن الكريم قد أمر بالبحث والنظر والإحاطة بكل معلوم، كما أنه قد عالج كثيراً من المسائل الكونية والعلمية ولكن ليس معنى ذلك أن نزعم إن كل ما تستنبطه العقول أو يصل إليه العلماء مطابق للكتاب مندرج فى ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء ونظرياتهم التى استنبطوها أول الأمر تعرضت لتغيير وتبديل، ونقض وهدم والقرآن أسمى وأكمل من أن نربطه بأفكار جزئية أو نظريات لم تتحول إلى قوانين علمية ثابتة لاتقبل الشك.

ويجب هنا أن نفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية:

فالنظرية عبارة عن فرض[٢] لتفسير بعض الظواهر الكونية وتعليلها، وقد تصدق بعض الوقت، ثم تتعرض للتغيير بعد ذلك، وتحل نظرية أخرى محلها على ضوء المتغيرات العلمية أما الحقيقة العلمية، فهى على عكس ذلك، إنها قانون ثابت غير قابل للتغيير ولا التبديل، نعم قد يمكن التعرف على سماتها بشكل أحسن، ولكنها تظل على ما كانت عليه من قبل[٣].

فإثبات أن الأرض تدور حول الشمس، وأن القمر يدور حول الأرض وأنه مظلم، وأن الكون محفوظ بقانون الجاذبية، وأن الإنسان خلق من علق، وأنه فى

---

(١) راجع فى هذا على سبيل المثال كتاب - القرآن محاولة لفهم عصرى للدكتور مصطفى محمود، وكتاب «قوانين الله وليست قوانين الطبيعة» ص ١١٢ محمود سراج الدين عقيفى.

(٢) راجع - أصول البحث العلمى ومناهجه ص ١٠٦ د. أحمد بدر - الكويت سنة ١٩٨٤ وقارن المنطق الحديث ومناهج البحث للمرحوم الدكتور/ محمود قاسم.

(٣) الشيخ محمد الشعراوى - الإسلام عقيدة ومنهاج ص ٤٨.

مرحلة تكوينه يكون فى ظلمات، ثلاث، وأنه يتحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة، كل هذه الحقائق علمية أثبتها العلم عن طريق الملاحظة الحسية والتجربة العملية، ولايمكن أن تتعرض لتغيير أو تبديل، لأنها أصبحت من قبيل القضايا الضرورية المنطقية، فهل إذا وجدنا فى القرآن آية كشفت عن هذه الحقائق وفسرناها بها، نكون قد جافينا المنطق السليم؟

كلا!!

إن الخطأ أتى من أناس لم يفرقوا بين العلم والظن، ولا بين الحقيقة والفرض، ونحن لانقبل بأية حال إخضاع القرآن لأى نظرية علمية مالم تتحول هذه النظرية إلى حقيقة علمية تختمر فى وعاء التجربة والملاحظة والإستنتاج والشمول والوضوح وأخيراً التطبيق، عندئذ نبحث عنها فى القرآن الكريم، فإذا وجدناها قلنا، إنها جزئية صادقة من معادلة كلية مطلقة فى قانون الله العام الذى وضعه فى كونه(١).

ثانيا : لا ينبغى فى فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التى تمنع من إجراء اللفظ على ظاهرة.

ويلاحظ أن مخالفة هذه القاعدة أدت إلى كثير من الآراء الخاطئة فى التفسير، ومن ذلك تفسير بعضهم لقوله تعالى «كانتا رتقاً ففتقناهما» بأن الرتق مجاز عن العدم والفتق مجاز عن الإيجاد والإظهار. فقد أثبت العلم الحديث أن السموات والأرض كانتا رتقا على الحقيقة أى كتلة واحدة، ثم فتقها الله على الحقيقة بمعنى فصلها(٢).

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن – الإنسان فى الكون بين القرآن والعلم ص ١١٤.

(٢) راجع كتاب – ظواهر جغرافية فى ضوء القرآن الكريم ص ٢٨ للأستاذ إبراهيم حسن النصيرات – الأردن سنة ١٩٨٠، وهو كتاب قيم يعالج كثيرا من الظواهر الفلكية والجغرافية معالجة علمية يؤسس لها من القرآن الكريم – وراجع أيضاً المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر سنة ١٩٧٣.

ثالثاً : «يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها».

وهذه القاعدة : نص عليها الشيخ المراغى عليه رحمة الله(١).

رابعاً : يشير المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى إلى أنه لابد من التزام المنطق الصارم فى المطابقة بين آيات الكتاب الكريم ومايتصل بموضوعها من الحقائق العلمية من الآيات.

ثم تفسر هذه الحقيقة فى ضوء كل ما يتصل بها؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا ينبغى أن يقتصر التفسير على آية واحدة فقط، قد لاتدل على الحقيقة من جميع جوانبها بل تحتاج إلى توضيح من الآيات الأخرى التى عالجت نفس الموضوع(٢).

وذلك أن الآيات العلمية فى القرآن الكريم لم ترد مجموعة فى مكان واحد وإنما تفرقت على حسب المقاصد الأساسية للقرآن الكريم وهى إثبات وحدانية الله والتدليل على قدرته وإبداعه.

ولو جمعت الآيات التى تتحدث عن حقيقة من الحقائق العلمية فى موضع واحد لتعذر فهمها - على المسلمين الأوائل - قبل تحصيل مقدماتها بالبحث العلمى، ولكانت فتنة للعرب، وأنى لعرب الجاهلية الأولى بفهم واستيعاب مقررات العلم الحديث اليوم، حتى يجمع لهم القرآن آيات الحقائق العلمية فى موضع واحد منه(٣).

فالقرآن الكريم كتاب معجز لم يأت على النظم المعتاد فى التأليف والكتابة، وإنما جاء بأسلوب فريد فى ذاته، وإذا كنا نسير على هذا المنهج فى معالجتنا لقضايا العقيدة أو المسائل الفقهية والتشريعية حيث نجمع كل ما يتصل

---

(١) د. محمد حسين الذهبى - التفسير والمفسرون نقلا عن تفسير الآيات الكونية للدكتور عبد الله شحاته ص ٨.

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٩٩.

(٣) تفسير المنار المجلد السادس جـ ٢ صـ ٢٠.

بالموضوع الواحد من الآيات، ثم نجعل القرآن يفسر بعضه بعضا فإنه من الأولى أن نسير على نفس المنهج عند تفسير القرآن بنظريات العلم الحديث.

خامساً : وينبه الشيخ عبد المجيد الزندانى على قاعدة مهمة وخصوصا عندما يظهر التعارض بين النظريات العلمية وبين آيات الكتاب الكريم فيردنا إلى قاعدة المحكم والمتشابه ويقول(١).

إن المحكم من آيات الكتاب الكريم قطعى الدلالة والورود وأما المتشابه فهو ظنى الدلالة قطعى الورود.

وكذلك العلم ونظرياته منه: الظنى المحتمل وهو النظريات، ومنه القطعى اليقينى وهو الحقائق العلمية المشاهدة والمجربه.

ومن هنا فلا يمكن أن تتعارض آية قطعية من كتاب الله مع حقيقة علمية ثابتة.

١ - وإذا حدث تعارض بين آية قطعية وبين نظرية علمية فمرد ذلك إلى نقص فى العلم البشرى أو فى وسائله ومناهجه.

ومن ذلك التعارض بين نظرية التطور وبين آيات الكتاب الكريم التى تحدثت عن خلق الإنسان، وبالتالى لابد من الأخذ بالقطعى من كتاب الله والضرب عرض الحائط بالنظرية المنسوبة إلى العلم.

٢ - أما إذا حدث التعارض بين قطعى من العلم وظنى من القرآن كأن تكون الآية من المتشابهات التى تحتمل وجوها كثيرة ويفهمها كل إنسان على حسب مداركه وعلومه، فهناك آيات من القرآن حمالة لوجوه، فهنا لابد من مراجعة الفهم الذى عندنا لهذه الآية فهو لاشك فهم خاطىء وعلى وجه غير صحيح ومن ذلك فهم الذين أنكروا حركة الأرض ودورانها استناداً إلى فهم خاطىء لقول الله تعالى «والجبال أوتادا».

---

(١) محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز.

فقالوا إن الأرض ثابتة بالأوتاد فهى لاتتحرك، ثم اكتشف علماء الجيولوجيا أخيراً أن الأرض طبقات، وأن الجبال أوتاد تثبت القشرة الأرضية التى يبلغ سمكها خمسة وثلاثين مترا بطبقة من الصخور المنصهرة والتى تمور وتتحرك فى باطن الأرض ومع ذلك فالأرض تتحرك حركات مختلفة، إذا فالخطأ هنا أتى من فهم خاطيء لآية من كتاب الله ومن ذلك أيضاً خطأ الذين أنكروا حركة الأرض حول الشمس استنادا إلى قول الله تعالى «والشمس تجرى لمستقر لها».

فقد فهموا من جريان الشمس أن الأرض لابد أن تكون ثابتة، دون أن يفطنوا إلى أن حركة الشمس لاتنافى حركة الأرض إذ أن لكل منهما حركتها فى مدارها.

ومن ذلك أيضاً فهم من قالوا بأن الأرض غير كروية إستناداً إلى قول الله تعالى «والأرض مددناها» دون أن يفطنوا إلى أن الامتداد المشاهد بالعين المجردة لاينافى التكوير لهذا الجرم الهائل.

٣ - أما إذا حدث التعارض بين ظنى من القرآن وظنى من العلم، فلابد من تقديم الظنى من القرآن وإهمال الظنى من العلم.

٤ - وإما الاحتمال الرابع وهو تعارض قطعى من القرآن مع قطعى من العلم فهو احتمال غير وارد، لأن صانع الكون هو منزل الآيات، ومنهج البحث العلمى حيث يتصف بالموضوعية وتتوفر له الوسائل المناسبة، لابد أن يصل إلى ما قرره القرآن من حقائق علمية[١].

- وأما ما أثاره المعارضون لإعجاز القرآن العلمى من أن القرآن كتاب هداية فقط ولا شأن له بالعلوم الكونية، فهى وجهة نظر مرفوضة، لأنه لا تعارض إطلاقا بين الهداية وبين ذكر المسائل الكونية أو الإشارة إلى الحقائق العلمية فذلك من أسباب الهداية.

فقد علم الله أن وسائل الهداية سوف تختلف من عصر إلى عصر تبعا لتدرج الفكر البشرى ونموه، وأن هناك فريقا من الناس سوف يحتجون بمقررات

(١) المؤتمر العلمى المنعقد بالقاهرة سنة ١٩٨٥ لبحث موضوع الاعجاز الطبى فى القرآن الكريم.

العلم الحديث ونظرياته، فأراد الله سبحانه تعالى أن يكون هذا الكتاب هداية وإرشادا لكل إنسان مهما تكن ثقافته ومهما يكن فكره.

فالقدماء نظروا فيه فوصلوا إلى ماوصلوا إليه من إعجاز البلاغة والبيان، والمحدثون بحثوا عن العلم والكونيات فوجدوها فيه، إذا فلاتعارض بين كونه كتاب هداية وبين إشتماله على حقائق العلم.

ذلك أن القرآن الكريم هو كلمات الله المتلوه، والكون كلماته المجلوه، ولايمكن أن يكون هناك تعارض بين آيات الكتاب وحقائق العلم فكلاهما من وضع إله واحد، وإن حدث هذا فمردة إما إلى فهم غير واقعى لآيات الكتاب الكريم، وإما إلى فهم غير واقعى لحقائق العلم، حيث ينسجون من الوهم والخيال نظريات يدعون لها العلمية كما صنع داروين وماركس.

- وأما ما أشار إليه الإمام الشاطبى من وجوب الوقوف عند فهم العرب الأوائل للقرآن، ووافقه على ذلك الدكتور صبحى الصالح، فهو رأى غريب، ذلك أن القرآن لم ينزل كى يتحدى العرب وحدهم، وإنما لكى يتحدى الإنسانية كلها على اختلاف زمانها وثقافتها، ومدى إدراكها ولو كنا سنقف من القرآن هذا الموقف، لما استخرجنا منه علم الكلام وعلم الفقه والأصول والسياسة وغيرها فلم يصنع رسول الله ﷺ ولا صحابته هذا الأمر وإنما صنعه أهل القرون التالية.

ولا شك أن الإعجاز العلمى شأنه شأن أى علم من هذه العلوم السابقة، بل إنه اليوم أهم هذه العلوم.

- كما أن هذه النظرة المحدودة لآيات الكتاب الكريم إنما تتغافل عن طبيعة الآيات القرآنية المعطاءة المتجددة التى تفتح دائما المجال أمام العقل البشرى، فتدفعه إلى التفكير واستنباط الجديد، فآياته حية دائما لاتبلى ولاتخلق على كثرة النظر والاستنتاج منها مهما عمل فيها الفكر وأخذ منها العقل، وهذا هو جوهر الإعجاز القرآنى.

- وأخيراً فقد بقى أمامنا ما أثارته الدكتورة بنت الشاطىء من تحفظات وتخوفات تدل على غيرة حقيقة على كتاب الله.

والواقع أن بنت الشاطىء لها الحق فى موقفها هذا وخصوصا أنه جاء فى مواجهة المغالين الذين جنحوا بتفسيراتهم العلمية جنوحا لا يقبله منطق حين حاولوا لى عنق الآيات وتفسيرها تفسيرا بعيدا عن الحقيقة، ومنهم الدكتور مصطفى محمود الذى حاول بفهمه العصرى للقرآن الكريم أن يستخرج منه كيمياء وبيولوجيا وعلم سدود وحشرات، علما بأنه غير متخصص إلا فى الطب، ولكنه حاول أن يصنع من نفسه - على حد تعبيرها - ساحرا وحاويا يعرف كل شىء عن كل شىء ويخرج ما يريده من الجراب(١).

غير أن خطأ بعضهم لاينبغى أن يكون حجة على العقلاء الذين عالجوا الإعجاز العلمى معالجة موضوعية، فلم يلووا عنق الآيات، ولم يحملوها ما لم تحتمل بل راعوا القواعد الموضوعة فلم يفسروا القرآن إلا بما ثبت يقينا من الحقائق العلمية.

ولا أظن أن بنت الشاطىء تخالف هذا المنهج المعتدل خصوصا وقد صرحت بأنه لامانع أن ينظر المتخصصون فيما يتفق مع اختصاصهم من آيات ثم يستخرجون منها قدرة الله.

تقول بنت الشاطىء: «لا أحد يجبر أى إنسان فى أن يفهم القرآن كما يشاء، ولكن المحنة أن يؤلف فيه من ليسوا من أهل الإختصاص، وتروج فى البيئة الإسلامية أقاويل وتأويلات مقحمة على القرآن نصاً وروحاً»(٢).

وأما خوفهم من فهم القرآن فهما علميا ومدى تأثيره على فهم الصحابة للقرآن، فإنه لا مبرر له فنحن لانرفض الفهم الصحابى، للقرآن، وإنما نعتبره الأساس ثم نضيف إلى ذلك طريقاً جديداً من طرق الإيمان، وليقتنع كل إنسان بما يناسب عقله وفكره وثقافته.

وهكذا فنحن لانعلق إيماننا بالتفسيرات العلمية، وإنما هى فقط لمزيد من الإيمان من جهة، ولإلزام المتشككين من المتمسحين بالعلم من جهة ثانية، أو على

---

(١) راجع صد ٣٥٠ من القرآن وقضايا الإنسان وكذلك صد ٣٦٦ ومابعدها.

(٢) بنت الشاطىء - الإعجاز البيانى للقرآن الكريم صد ٨٥.

حد تعبير الإمام فخر الدين الرازى ... «كلما كان وقوف الإنسان على دقائق هذه العلوم فى كتاب الله تعالى أكثر، كان اعتقاده فى عظمته وجلاله أكمل»[١].

وإن موقف المعارضين لإبراز الإعجاز العلمي ليذكرنا بموقف بعض علماء الدين قديماً والذين عارضوا الحقائق الرياضية والعلمية مثل الكسوف والخسوف وغيرها فواجههم الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) بقوله: «ومن ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار مثل هذه العلوم، فقد جنى على الدين وضعف أمره فإن هذه الأمور تقوم على براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها، إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وإنما يسترب فى الشرع، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه، وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل»[٢].

وإذا فليس هناك مانع من إبراز الإعجاز العلمي مادام لايلوى عنق الآية ولايحاول الجرى وراء نظريات ظنية لم تثبت يقيناً؟.

وهل من نصرة الدين أن يكذب أحدهم بدوران الأرض وصعود الإنسان إلى القمر؟

أم أن هذا هو الصديق الجاهل الذى يضر الدين أكثر من العدو.

إذاً فإبراز الإعجاز العلمي مطلوب اليوم وله كثير من الفوائد التى نحاول الإشارة إليها فى الأسطر التالية:

فوائد الإعجاز العلمي:

لهذا النوع من الإعجاز فوائد كثيرة منها:

١ - أنه يزيد المؤمن إيمانا بأن هذا الكتاب من عند الله فنحن نؤمن بإعجاز القرآن البيانى والبلاغى والغيبى ولكن حين نكتشف أن للقرآن إعجازا علميا

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٤ ص ١٢١.

(٢) راجع المنقذ من الضلال صـ ١١٥ نشر وتقديم د. عبد الحليم محمود.

يواكب العصر نزداد إيمانا بأن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وتمتلىء النفوس بعظمة الله ومكانة هذا الكتاب الذى احتوى على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ماتصورها علوم الكون.

٢ - أنه يلزم المتشككين والطاعنين في الأديان، ذلك أنهم يدعون التعارض بين الدين والعلم، ويقولون إن الدين لم يثبته العلم بعد، ومن هنا يأتى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ملزما لهؤلاء وضاحدا شبههم.

فهذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكك فيه إلا أن يتبرأ من العقل، ذلك أن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا فى القرن العشرين والتى ذكرها القرآن، لابد أن تقيم عند كل ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن الكريم.

٣ - أنه يساعد المسلمين على السير في طريق العلم الذى قطع فيه أعداء الإسلام أشواطا بعيدة ومازال المسلمون فى بداية الشوط. فحين يشعر المسلم أن كتابه قد دعا إلى العلم التجريبى منهجا وعالجه موضوعا، لاشك أن ذلك يكون دافعا إلى السير فى طريق العلم التجريبى. فهذا واجب المسلمين اليوم حتى ينهضوا من كبوتهم ويعيدوا سنة آبائهم الأولين فى إهتمامهم بالعلم التجريبى ووصولهم من خلاله إلى كثير من الحقائق والمخترعات التى كان لها أكبر الأثر فى النهضة الأوروبية، فقد تقدمت الدنيا شرقا وغرباً وتأخر المسلمون، لأن الآخرين أخذوا بأسباب العلم ووقفنا نحن عندما انتهى إليه أجدادنا الأولون، مع غفلتنا عن قول الله تعالى «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة» وقد أصبح العلم هو أساس القوة اليوم وأصبحت المخترعات العلمية هى صاحبة الفصل فى قضايا الساعة.

وإذاً فالعلم هو القوة التى ينبغى أن يعتمد عليها المسلمون اليوم بعد قوة عقيدتهم وإيمانهم.

وفى هذا يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى: «إننا نحن - المسلمين - سوف نحاسب حسابا عسيراً على تخلفنا الفاضح فى العلوم الطبيعية، فالإنسان

لكى يدافع عن المسجد الأقصى مثلا يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ، بل إلى الشمس، معرفة تهيمن على مافى الأرض ومافوق الثرى حتى نجارى معارف أعدائنا عن الكون، ونعد أنفسنا كما أعدوا أنفسهم، إن هذا التخلف إذا بقى فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء، واننى لأصبح دون مواربة، بأن هذا التخلف جريمة دينية لاتقل نكراء عن جرائم الربا والزنا والفرار يوم الزحف»[١].

٤ - وفى إظهار الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أسلوبا وطريقا جديدا من طرق التبشير بالقرآن الكريم بين غير المسلمين واستمالتهم إلى الإسلام. هذا الطريق العلمى الذى يؤمنون به وينكرون ماعداه وبذلك يساهم أصحاب هذا الإتجاه فى هداية الإنسانية الحائرة فى الشرق والغرب والتى ما تزال تبحث عن مرشد تطمئن إليه وتسلس له قيادها وليس هناك سوى القرآن هاديا ومرشدا.

فالإعجاز العلمى هو اللغة التى تنقل إعجاز القرآن إلى جميع اللغات وقد ثبت هذا الأمر عمليا من خلال المؤتمرات العلمية التى عقدت لمناقشة موضوع الإعجاز العلمى فى القاهرة والسعودية، حيث بهرت كثير من العلماء الغربيين مما سمعوه من الأبحاث العلمية التى قدمت فى هذه المؤتمرات والتى كشفت عن سبق القرآن فى تقرير كثير من الحقائق العلمية التى وصل إليها العلماء الغربيون.

ومن هؤلاء العلماء «مارشال جونسون» وهو من كبار العلماء فى علم الأجنة فى جامعات أوربا، فقد اندهش بعد أن سمع بحثا مقدما عن علم الأجنة فى القرآن وراح يردد (مش معقول؛ مش معقول) ثم فى النهاية اسلم وألقى محاضرة عن أطوار خلق الإنسان فى القرآن.

ومنهم أيضاً (روبارت ادوارد) صاحب عملية تلقيح الأنابيب الذى خرج من المؤتمر وهو يردد عبارة، مدهش، مدهش.

---

(١) من مقالة بعنوان الإنسان فى القرآن نشرت بمجلة الوعى الإسلامى الكويتية فى العدد ١٨٢ صفر سنة ١٤٠٠ هـ.

كذلك كان للإعجاز العلمى فى القرآن أثر كبير فى إسلام عالم الأجنة الفرنسى «موريس بوكاى».

وعالم البحار الفرنسى أيضا جاك أوسترى، وغيرهم كثيرون كان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم سببا فى إسلامهم.

بل إن واحداً من هؤلاء وهو «أرثر ايلسون» بعد أن أعلن إسلامه فى أحد مؤتمرات الإعجاز العلمى فى القرآن راح يعاتب العلماء المسلمين ويقول لهم كيف يكون هذا العلم عندكم ولا تنشروه بيننا.

مجالات الإعجاز العلمى:

يظن بعضهم أن الإعجاز العلمى قاصرا على مقررات علم الفلك وعلوم الطبيعة وغيرها من المجالات التجريبية، ولكننا حين نفهم كلمة (علم) بمعناها الشامل، ندرك أن الإعجاز العلمى فى القرآن يشمل مجالات كثيرة، وعلوم عملية ونظرية، فقد اشتمل القرآن الكريم على أصول علوم التوحيد، والفقه وأصوله، والاقتصاد، والسياسة والإجتماع، والنفس، وسائر علوم اللغة، وعلوم الفلسفة والأخلاق، وأصول المنطق العقلى، ومناهج البحث العلمى[١] فضلا عن العلوم التجريبيه ودليلنا على ذلك الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقول الله تعالى «ما فرطنا فى الكتاب من شيء» وقوله «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء».

وأما السنة فقول رسول الله ﷺ ستكون فتن قيل وما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم، وحكم مابينكم»[٢].

واخرج البيهقى عن الحسن قوله «أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة منها: التوراه، والإنجيل، والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان».

---

(١) راجع كتابنا العقيده الإسلامية صـ ٥٢ ومابعدها.

(٢) أخرجه الترمذى.

إذاً فقد عالج القرآن الكريم كثيراً من مجالات العلوم إلا أن معالجته كانت فى إطار المنهج العام للقرآن الكريم والذى يتمثل فيما يأتى:

أولاً : أنه كتاب الكليات لا الجزئيات، ومن هنا كانت معالجته هذه العلوم معالجة كلية، ثم جاء العلماء وأخذوا هذه الكليات فبنوا عليها مابنوا من النظريات والحقائق الجزئية.

فالفقهاء أخذوا ماورد فى القرآن من أحكام الحلال والحرام ففرعوا عليها وبسطوا القول فيها، فكان نتيجة ذلك ظهور علم الفقه.

والأصوليون نظروا إلى مافيه من أدلة وبراهين والفاظ عامة وخاصة وظاهرة ومجملة، ومحكمة ومتشابهه، وأدلة واقيسه فبنوا على ذلك علمى أصول الفقة، والمنطق الإسلامى.

والفلاسفة المنصفون نظروا إلى مافيه من حقائق إلهية وكونية وإنسانية فكان من ذلك علم الفلسفة الإسلامية الذى هدم كل الفلسفات السابقة التى اعتمدت على مجرد العقل غير المعصوم.

وعلماء الأخلاق نظروا إلى مافيه من أصول الفضائل والمقاييس الخلقية، فبنوا على ذلك علم الأخلاق.

وعلماء النفس نظروا إلى مافيه من أحاديث عن النفس الإنسانية وغرائزها وقواها، فكانت النتيجة ظهور علم نفس إسلامى أصيل.

وعلماء الإقتصاد نظروا إلى مافيه من القوانين الكلية التى تحكم نشاط الإنسان الإقتصادى ومعاملاته فوضعوا بناء على ذلك علم الإقتصاد الإسلامى.

وعلماء السياسة أيضاً استنبطوا مما ورد فى القرآن عن أصول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، النظرية السياسية الإسلامية.

وكذلك قل عن علوم التوحيد والاجتماع وعلوم اللغة وغيرها .

واليوم ينظر علماء الأجنة والفلك، والطبيعة وغيرهم فى القرآن فيستنبطون مافيه من الحقائق العلمية ولاشك أن اتساع مجالات الإعجاز العلمى فى القرآن إنما شكل برهاناً آخر على أن هذا القرآن لايمكن إلا أن يكون من عند الله رب العالمين، إذ أن أصول هذه العلوم قد وردت على لسان رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ولم ينشأ فى بلد اشتهر بالعلم أو التشريع. بل إنه كان بعيدا كل البعد عن هذه المجالات، فقد قضى ثلثى عمره بين الرعى والتجارة «ولم يتعلم البتة شيئاً من هذه العلوم. إذا فلامناص أمام العقل المنصف إلا أن يسلم بأن ذلك وحى الذى لاحدود لعلمه[١].

ثانيا : فصل القرآن بين طبائع العلوم ومناهجها:

- ففيما يتعلق بعلوم العقيدة التى ترتبط بالغيبيات التى لامجال للعقل فيها، حسم القرآن قضاياها حتى لايضل العقل فيها.

- وأما علوم الشريعة فقد أشار إلى كلياتها وترك للعلماء الاجتهاد فى الأحكام الكلية وتطبيقها على ما يستجد من الحالات الجزئية.

- وأما العلوم العملية والتجريبية، فقد كشف القرآن عن بعض حقائقها العلمية ولكنه لم يحدد قوانينها الجزئية ولا كيفية الوصول إليها، بل ترك الأمر كاملا للإنسان وأطلق فيه العنان لعقله وفكره ونظره يبدع ويستنتج كما يشاء، وقد أشار ﷺ إلى هذا فى حادثة تأبير النخل حين قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وبهذا يطلق الرسول العنان لعقل الإنسان وعلمه وتجاربه فى المجالات العلمية.

ثالثا : العطاء المتجدد لكل عصر ولكل عقل فآيات القرآن الكريم لاينتهى عطاؤها أبدا، فلقد أخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن زيادة قال «قيل لموسى عليه السلام ياموسى إنما مثل كتاب أحمد فى الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن كلما مخضته أخرجت زبدته».

---

(١) تفسير المنار جـ ١ صـ ٢٠٧.

فطبيعة المعجزة فى القرآن الكريم متجددة، لأنه خاتم الكتب الذى سيقيم الحجة على كل من بلغه من العقلاء، ذلك أن معجزة القرآن معجزة عقلية، يقول الله تعالى: «الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه»[١] أى أنزله وفيه علمه.

ولاشك أن موضوع العلم واهتمامات العقل تختلف من عصر إلى عصر على حسب حاجات الناس وظروفها، ففى عصور البلاغة والفصاحة والبيان كان القرآن هو المعجزة البيانية التى أفحمت أساطين البيان كما سبق أن بينا.

وفى العصر الحديث، عصر العلوم التجريبية والنظريات العلمية، وجه العلماء أنظارهم إلى القرآن الكريم فوجدوا فيه الكثير من الحقائق العلمية التى وصل إليها العلماء المتخصصون من خلال التجارب والأبحاث والمختبرات.

وليس هذا أمرا غريبا، إنما هى طبيعة القرآن الذى يحمل بين طياته دليل صدقه لأهل العصور على مر الدهور.

فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال: «وقل الحمد سيريكم آياته فتعرفونها»[٢].

وقال: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[٣].

وقال: «ولتعلمن نبأه بعد حين»[٤] وقال: «لكل نبأ مستقر سوف تعلمون»[٥].

فكل هذه إشارات تؤكد على طبيعة القرآن المعطاء الملزم للعقل الإنسانى أيا كانت ثقافته وأيا كان زمانه.

واليوم والعصر هو عصر العلم نجد القرآن الكريم يواكب العلم موضوعا، كما يواكبه منهجا، وهذا ما سوف نتناوله فيما يلى:

---

(١) النساء ١٦٦.
(٢) النمل ٩٣.
(٣) فصلت ٥٣.
(٤) ص ٨٨.
(٥) الأنعام ٦٧.

القرآن والعلم منهجاً وموضوعاً :

أفسح القرآن مجالا واسعا لحقائق العلم التجريبى وجعله أحد البراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ.

ولأمر ما أقسم الله فى سورة يس بالقرآن الحكيم على صدق رسالة محمد ، تلك السورة التى حوت كثيراً من الحقائق الكونية ومنها سير الأفلاك والكواكب، ومنازل القمر وجرى الشمس ودوران الأرض والتى أشار إليها بقوله «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون».

«والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم».

«والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم».

«لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون»[١].

وغير ذلك من الآيات التى كشفت عن الحقائق العلمية[٢] مما يؤكد على إهتمام القرآن بالعلوم الكونية.

والواقع أن القرآن إهتم بالعلم بمفهومه العام، فقد ذكره فى نحو سبعمائة وخمسين موضعا، دعا الإنسان من خلالها إلى البحث فى الكون من أصغر وحدة موجودة فيه وهى الذره إلى أكبر وحدة وهى المجرة فدعاهم إلى البحث فى الأنفس والآفاق، وإلى التفكير فى تكوينهم وتشريحهم وأصلهم وتطور خلقهم ونشأتهم، وفى الفلك والشمس والنجوم، وفى الحساب والتوقيت والموازين، وفى الفصول والأيام والسنين.

وفى الأرض، والنبات، والمطر، وحسبنا فى ذلك أن نذكر بعض الآيات الجامعة ومنها قوله تعالى «قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض»[٣].

(١) يس (٣٧ - ٤٠).

(٢) وراجع الآيات ٣٦ - ٨٠ من نفس السوره.

(٣) يونس (من ١٠١).

وقوله «وهو الذى مد الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»(١).

والواقع أن هناك آيات عديدة وجهت الأنظار إلى استكناه كل مظاهر الوجود من أجل معرفة القوانين التى تحكمها، بل اهتم القرآن بمنهج العلم ووجه إلى قواعد وأصول البحث العلمى، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما يأتى:

القرآن والعلم منهجا :

المقصود بالمنهج أى الطريقة التى يعتمد عليها العلم فى الوصول إلى حقائقه(٢).

والعلم إنما يعتمد على منهج البحث التجريبى الذى يقوم على أساس من الملاحظة وفرض الفروض واختبار صحة الفروض والتجارب ثم الوصول إلى القانون الذى يحكم الظاهرة «موضوع الملاحظة».

وهذا ما يسمى بالإستقراء العلمى.

ويقول العلماء إن هذا الإستقراء يقوم على أصلين.

الأصل الأول: هو قانون التعليل أو الحتمية الذى يقول: إن لكل ظاهرة فى الوجود علة توجب حدوثها، وأن نفس السبب يؤدى إلى نفس المسبب.

والثانى : هو قانون الاضطراد الذى يقول: إن العلل المتشابهه تحدث عنها معلولات متشابهة(٣).

وهذا ما سماه بعض العلماء بأصل اضطراد الفطرة واستقلالها فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائماً حقاً.

---

(١) الرعد (٣، ٤).

(٢) راجع كتاب العقيدة الإسلامية للمؤلف ص ٥٢.

(٣) راجع ص ٢٢٣ من كتاب المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصرة للمؤلف.

ويضع العلماء التجريبيون للمنهج العلمى مبادىء منها:

- الاعتماد على البرهان اليقينى فى إثبات الحقائق ورفض الظن والتخمين.

- الموضوعية وعدم التأثر بالأشخاص مهما كانت مكانتهم.

- البعد عن الأهواء والأغراض الذاتية أثناء البحث العلمى.

هذا هو منهج العلم بمراحله وأصوله ومبادئه كما نص عليه أصحابه، والغريب أن القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك فى آيات صريحة وواضحة، أما عن الملاحظة للظواهر من أجل الوصول إلى القانون الذى يحكمها، فقد أشار إليها القرآن فى آيات كثيرة منها: قوله تعالى «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»[١] وقوله «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت»[٢].

وقد أمر القرآن الكريم بملاحظة كل مظاهر الوجود ملاحظة حسية تجريبية فقال: «فارجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير»[٣].

واقرأ قول الله تعالى «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»[٤].

ففيها أمر صريح بالملاحظة والتدقيق فى ظواهر الكون وأحواله، فما دام الله ينعى علينا أن نعرض عن مظاهر الكون، إذاً فهو يريدنا أن ننظر ونتدبر ونقف على كل ظاهره كونية وقفة نستنبط منها شيئاً نفيد منه. وكل الظواهر الكونية التى استنبط العلماء منها فوائد للناس، كان الناس يمرون عليها وهم عنها معرضون، إذاً فالقرآن يلفت العقل إلى المنهج العلمى التجريبى بالنظر والمشاهدة

---

(١) العنكبوت ٢٠.

(٢) الغاشية ١٧ - ١٨.

(٣) الملك - ٣، ٤.

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٥.

والسير في الأرض بحثاً عن أسرار الكون والحياة ومظاهر عظمة الله في الآفاق[١].

وفي فرض الفروض واختبار صحتها نقرأ محاورة إبراهيم عليه السلام لعباد الأصنام في سورة الأنعام الآيات ٧٤ - ٨١ وفي الأصول التي يقوم عليها المنهج العلمي نجد قول الله تعالى «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون» إشارة واضحة إلى قانون التعليل فكل مخلوق لابد له من خالق وكل سبب لابد له من مسبب.

- أما قانون الأطراد فقد كشف عنه القرآن الكريم في آيات كثيرة منها: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم»[٢] فهذه الآية صريحة في اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها من غير تبديل للحقائق، والمقصود بالفطرة هنا الخلق والسنن الكونية سواء منها ما يتعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان أو مايتعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح[٣].

وهذا القانون هو أساس المعرفة والعلم. والشك فيه معناه فوضى التفكير وهدم العلم[٤].

- وأما عن مبادىء البحث العلمي فقد نص عليها القرآن الكريم في كثير من آياته.

- فمبدأ الإعتماد على البرهنة اليقينية ورفض الظن والتخمين يشير إليه القرآن بقوله «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه» «إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً».

---

(١) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى - الطريق إلى الله ص ٣

(٢) الروم ٣٠.

(٣) الغمراوى - الإسلام في عصر العلم ص ٦٣.

(٤) الواثق بالله عبد المنعم أحمد - المنطق ومناهج البحث العلمى ص ٥١.

- وأما مبدأ الاتساق فى الفكر وعدم الوقوع فى التناقض، فقد أشار إليه القرآن بقوله «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» فقد أشار جمهور المفسرين إلى أن المراد بالاختلاف هنا التناقض[١] وهو الذى وصف الله به كلام الكافرين فى قوله تعالى «إنكم لفى قول مختلف» أى متناقض.

- وكذلك يشير القرآن الكريم إلى مبدأ الموضوعية فى البحث العلمى وعدم التأثر بالأشخاص فيقول «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون».

«ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً».

ويقول القرآن الكريم على ألسنة المقلدين بغير تمحيص «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً»[٢].

- وأما مبدأ البعد عن الأهواء والنزعات الشخصية فى أثناء البحث العلمى حتى لايكون لهذه الأهواء تأثير على الحقيقة، فقد أشار إليه الكتاب الكريم فقال: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»[٣].

«ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون»[٤].

فهل من الممكن أن يكون ماقاله العلماء المحدثون عن المنهج العلمى أوفى مما ذكره القرآن؟

---

(١) راجع مفاتيح الغيب للرازى جـ ٦ صـ ٦١ وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا جـ ٥ ص ٢٣٤.
(٢) الأحزاب ٦٧، ٦٨.
(٣) الجاثية ٢٣.
(٤) الجاثية ١٨.

كلا!! فلقد فصل القرآن الكريم أسس المنهج العلمى قبل أن يعرفه العلماء التجريبيون بقرون عديدة وإننى لأعد هذا السبق نوعاً من الإعجاز العلمى الذى ينبغى أن يضاف إلى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم[١].

القرآن والعلم موضوعا :

وكما دعا القرآن الكريم إلى روح العلم ومنهجه فقد بشر بكثير من الحقائق العلمية التى لم يكشف عنها النقاب إلا فى العصر الحديث ومنها حقائق عن بداية الكون ونهايته وحقائق عن نظام الكون وحركة أفلاكه، وإشارات إلى سنن الكون ونواميسه.

وحقائق أخرى متعلقة بالإنسان خلقا وتطورا، وسوف نفصل الحديث حول طائفة من الحقائق الإنسانية ثم نعقب عليها بطائفة أخرى من الحقائق الكونية والطبيعية :

الحقائق الإنسانية :

احتوى القرآن الكريم على كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الإنسان ومراحله وعلم وظائف الأعضاء وغير ذلك بل لقد دعا القرآن الكريم ووجه العقول والأنظار إلى البحث عن الإنسان وخلقه وتكوينه فقال: «فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق»[٢].

وأمر القرآن بالنظر ليس معناه النظرة العابره، وإنما النظرة المتأنية التى تخترق الحجب، وتستنتج النتائج الدالة على وجود الخالق الحكيم.

كما وجه القرآن إلى النظر فى النفس فقال : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»[٣].

---

(١) راجع بالتفصيل «البحث العلمى ومناهجه النظرية» للمؤلف.

(٢) الطارق ٥، ٦.

(٣) الذاريات ٢١.

ولقد سبقنا علماء الغرب وبحثوا فى خلق الإنسان وتكوينه، وأثبتوا حقائق علمية أصبحت من المسلمات واليقينيات ولكن العلماء المسلمين حينما قارنوا بين ماوصل إليه هؤلاء وبين ماورد فى القرآن الكريم من حقائق إنسانية اكتشفوا أن القرآن الكريم قد سبق الأبحاث العلمية الحديثة بألف وأربعمائة سنة، ذلك أن علم الأجنة لم يقف على قدميه إلا فى بداية القرن العشرين. ومع ذلك فله أصول فى القرآن الكريم.

وسوف نشير إلى بعض الحقائق المتعلقة بخلق الإنسان ونوضح السبق القرآني لها.

١ - حقيقة خلق الإنسان من علق:

وقد وردت هذه الحقيقة فى أول ما نزل من القرآن الكريم وهو قول الله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق» والعلق هو الحيوانات المنوية التى تسبب الحمل أو التلقيح، إذ هو الذى يسعى لدخول الرحم ثم يسعى لبويضة المرأة فيعلق بها.

وقال تعالى: «فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق».

وهذا الماء الدافق وهو المنى يسبح فيه ملايين من العلق ولولا العلق ماكان هناك حمل ولا ولادة.

ولقد وضع العلماء التجريبيون ماء الرجل تحت المجهر فشاهدوا فعلا هذا العلق وحركته السوطية بمساعدة ذنبه ورأسه، ولكن كيف رآه الرسول ﷺ ولم يكن حينذاك مجهر ولا آلات علمية؟ ذلك أن أول مجهر صنع فى ١٦٨٣ ميلادية أى بعد ألف سنة من نزول القرآن الكريم[1]. فسبحانك ربى لم يكن أحد على الإطلاق يعلم أن فى المنى علقاً يخلق منه الإنسان إلا أنت. وإذاً فالقرآن كلامك حقاً لا كلام البشر، فلم يكتشف العلماء هذه الحقيقة إلى بعد إختراع المجهر وبعد أبحاث طويلة ورسائل دكتوراه تتساءل عن العلاقة بين هذا العلق الذى

(١) نعمت صدقى - معجزة القرآن صـ ١٣٢.

يجرى فى المنى وبين نشأة الإنسان، وكانت هذه الرسائل تهدف إلى إثبات هل خلق الإنسان من هذه الكائنات؟ ولكن لم يفطن هؤلاء إلى أن الجواب على هذه الأسئلة قد نزل على رسول الله ﷺ من عند خالق الإنسان قبل ألف سنة من أبحاثهم «خلق الإنسان من علق».

٢ - حقيقة مراحل خلق الإنسان :

يقول الله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»[1].

وضعت هذه الآية موضع دراسة استغرقت فى الغرب النصرانى عشرات السنين، قام بها علماء «علم الأجنة».

ذلك أنه بعد اكتشاف المجهر والآلات الحديثة فى مجال الطب استطاع العلماء أن يتابعوا كيفية خلق الإنسان، فشاهدوا عملية الإخصاب التى تتم بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة فى أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم. فيبدأ الإنسان خلية واحدة ثم تنحدر فى إتجاه الرحم مستغرقة فى رحلتها ما يقارب الأسبوع تكون خلالها قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق بجدار الرحم كأنها قطعة من اللحم المضغوغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادى هو الغضروف الذى تترسب حوله مادة العظام فيما بعد ثم تنشطر الخلايا فى كافة أجزاء المضغة فتكون الأنسجة والأجهزة التى تكسو العظام المتكونة لحما.

فى كل المراحل السابقة لاتوجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما أن يوشك الشهر الثانى على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر.

---

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤.

كل هذا يتم فى القرار المكين الذى هو الرحم، وقد أثبت علم التشريح أنه فعلاً قرار مكين فهو فى أسفل بطن المرأة عبارة عن وعاء له جدار عريض سميك، وله أربطة عرضية ومستديرة، وهناك أجزاء من البريتون تشده إلى المثانة والمستقيم، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط، فتطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل وتقصر إلى طولها الطبيعي تدريجياً بعد الولادة، وبعد كل هذا فهو محاط بحاجز متين من عظام الحوض تمنعه من الأخطار المفاجئة(١).

وفى آية أخرى يشير الله تعالى إلى تطور الخلق فى ظلمات ثلاث فيقول «يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث»(٢).

وقد اكتشف علم التشريح منذ أربعين سنة فقط أن الظلمات الثلاث هى:

١ - غشاء الأمنيون.

٢ - الغشاء المشيمى.

٣ - الغشاء الساقط(٣).

بل ويشير العالم الغربى «مارشال جونسون» وهو أحد كبار علم الأجنة فى جامعات أوربا إلى أن القرآن الكريم قد تعدى مرحلة الحديث عن الوصف العام لمراحل خلق الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى مرحلة أكثر دقة وهى مرحلة وصف مستويات الخلق حيث تحدث عن مستوى الأنسجة والخلايا والوظائف التركيبية لمراحل خلق الإنسان.

وتوضيح ذلك أن علماء الأجنة قد اكتشفوا مستويات أربعة للخلق وكلها تحدث عنها القرآن الكريم وهى:

المستوى الأول : هو مستوى التقدير الذى يمر به الإنسان من خلال مرحلة النطفة، والنطفة تكون مجرد برنامج للإنسان. فيها كل ماسيكون عليه الإنسان

---

(١) سعيد حوى - الرسول ﷺ ص ٢٧٢.

(٢) الزمر ٦.

(٣) الإنسان فى الكون ص ٧.

من صفات مثل الذكورة والأنوثة ولون العين والشعر وغير ذلك من الصفات، إلا أنها تكون فى صورة (جينات) أو ما يسمى بحاملات الوراثة، فهذه المرحلة هى مرحلة الشفرة الكيميائية التى سيسير عليها خلق الإنسان وتفاصيل ما سيكون عليه.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المستوى فقال: «قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره»(١)، إذاً فالنطفة مقدرة كما قال العلماء وكما أخبر الله فى القرآن منذ قرون عديدة.

المستوى الثانى : مستوى التخليق، ففى مرحلة المضغة اكتشف العلماء أن النطفة تتكاثر وتتوالد وتكبر حتى تصير كأنها قطعة من اللحم الممضوغ بها مرتفعات ومنخفضات ووديان، وفى هذه المرحلة تتحول المواد الكيميائية بأمر الله إلى أجسام مادية حيث تظهر الأعضاء والأجهزة ولكن فى صورة براعم صغيرة وخطوط غير مجسدة إلا أنهم لاحظوا أن هناك جزءاً آخر من المضغة يظل فى صورة غير مخلقة وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال: «يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة»(٢).

أى أن الإنسان مخلوق من هذه المضغة التى تجمع بين صفتى التخليق وعدم التخليق، وهذا ما اكتشفه العلماء من خلال الصور حيث أن المضغة تخلق فيها كل أجهزة الجسم كاملة ولكنها فى صورة بدائية مجرد خطوط ومعالم غير بارزة، ثم يبقى جزء آخر هلامى غير مخلق ومهمته مد الأجزاء الأخرى بما تحتاج.

وهنا تبدو لنا دقة الوصف القرآنى الذى يدل على أنه من عند الخلاق العليم.

المستوى الثالث : مستوى اكتمال الخلق والتصوير.

اكتشف العلماء أن الجنين فى نهاية الأسبوع السادس يدخل فى مرحلة الخلق والتكوين، فبعد أن كانت الأعضاء فى مرحلة التخليق مجرد خطوط وبراعم

---

(١) سورة عبس : ١٧ - ١٩.

(٢) الحج: من ٥.

تتحول إلى أعضاء واضحة المعالم حيث يظهر العظم فى صورة غضاريف لينة ثم يظهر اللحم والدم وتتجسد الأعضاء والأجهزة والسمع والبصر والجلد وغير ذلك، وهذا ما يشير إليه حديث رسول الله ﷺ «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وعظامها ولحمها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى»[١].

المستوى الرابع: هو مستوى التنشئة

فى المرحلة السابقة نجد أن الأعضاء قد ظهرت ولكن ليس فى صورتها النهائية، حيث نجد اللحم شفافا، والدماء فى صورة ساذجة ليست هى الدماء الحقيقية، العظام لينة فى صورة غضاريف، الجسم والصورة والشكل ليست فى وضعها النهائى، والرئة لاتعمل وكذلك كثير من الأعضاء.

أما فى هذه المرحلة فتتحول الأعضاء إلى صورتها النهائية، فتصبح العظام صلبة، واللحم والدم وغير ذلك فى صورته الطبيعية، أو كما قال القرآن الكريم «ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» ولم يتحدث هذا العالم عن مرحلة أخرى وهى مرحلة نفخ الروح التى تتم بعد مائة وعشرين يوما كما أخبر الرسول فى حديثه الشريف، لأن العلم أعجز من أن يحدد طبيعة هذه المرحلة أو أن يكتشف خصائصها، لقول الله تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[٢].

إلا أن ما يلفت النظر هنا هو أن الذى قدم هذا الشرح السابق هو عالم غربى درس آيات القرآن بإمعان فوصل إلى ماوصل إليه، وبعد أن ألقى هذا التقرير السابق فى المؤتمر السعودى الطبى الثامن وقف رئيس قسم التشريح بجامعة «شانجهاى وقال آن الأوان لكى أعلن «أنه لا إله إلا الله».

وعن السبق فى مجال أصل الإنسان وعلم الأجنة، يقول موريس بوكاى «إن ما جاء به القرآن من بيان أصل الإنسان يثير دهشة كثير من الناس لاريب،

---

(١) رواه مسلم فى باب القدر عن حذيفة بن أسيد الغفارى.

(٢) الإسراء ٨٥.

تماماً كما أدهشني أنا أيضاً حين اكتشفته لأول مرة وفوق ذلك فإن مقارنة النصوص القرآنية والتوراتية والإنجيلية - تكشف عن ذلك بصورة أوضح، فكلاهما يتحدث عن الله الخالق، إلا أن التفصيلات التى أوردتها التوراة فى وصف الخلق - وهى غير مقبولة علميا - لا وجود لها فى القرآن، أما القرآن فيحتوى حقاً على آيات بينات عن خلق الإنسان تدعوا إلى العجب وإعمال العقل، ويستحيل تفسير وجود هذه الآيات البينات بالمنطق البشرى - إذا وضعنا فى إعتبارنا مستوى المعارف السائدة وقت نزول القرآن، أما بالنسبة إلى الغرب فلم يسبق له أن تناول هذه الآيات البينات التناول العلمى حتى التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٦ وذلك حين قدمت إلى الأكاديمية الطبية الفرنسية بحثا عن المعطيات فى كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التى عرض لها القرآن منذ أربعة عشر قرنا سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة(١).

وهكذا يعترف هذا الباحث الغربى المنصف بسبق القرآن لنظريات العلم الحديث فى موضوع خلق الإنسان من جهة، ويصدق نظرياته فى مواجهة كذب نظريات التوراة من جهة ثانية.

وأخيراً وهو المهم اعترافه بأن القرآن من عند الله، إذ لايمكن تفسير هذه النظريات بالمنطق البشرى، وخصوصاً إن وضعنا فى اعتبارنا مستوى المعارف التى كانت سائدة فى صحراء الجزيرة العربية وقت نزول القرآن، وكأن بوكاى يريد أن يقول: كل هذا أثبته العلم فى العصر الحديث، فمن الذى علمه للنبى الأمى الذى نشأ فى صحراء الجزيرة العربية منذ هذه القرون المتطاولة؟

وقد يعترض بعض العلماء هنا بأن علم مافى الأرحام هو مفاتيح الغيب التى استأثر الله بعلمها لقوله تعالى: «ويعلم مافى الأرحام» فكيف يعلمه البشر؟

والجواب أن علم الله هو علم شامل بكل ما يتعلق بما فى الأرحام، فهو يعلم مستقبله وهل سيستمر فى خلقه أم سيسقط من الرحم، ويعلم أجله، ورزقه وعمله وأشقى هو أم سعيد ويعلم كل صغيرة وكبيرة تحدث له.

---

(١) راجع ص ٢١ من كتاب (ما أصل الإنسان) لموريس بوكاى - ط الرياض.

أما ما وصل إليه الإنسان فهو علم محدود جزئي لايتعدى وصف المشاهدات في مرحلة تحقق الحمل؛ وأما قبل ذلك وبعد ذلك فهو من اختصاص علم الله الذي لا يعلمه إلا هو.

٣ - حقيقة أن الجلد مركز الإحساس :

وصل علم الطب أخيراً إلى أن مركز الإحساس في الإنسان هو الجلد وأن الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية ليست هي المركز الإساسي لذلك، بل إن الإحساس فيها ضعيف لدرجة أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد، يحدث ألما شديداً بينما الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد بعدما تأكله النار لايحدث ألما كثيراً على الرغم من خطورته(١).

يقول الكسيس كاريل «إن الجلد الذي يغطي السطح الخارجي للجسم غير قابل للاحتراق بواسطة الماء، والغازات».

كما أنه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم (...) وعن طريق سطحه الخارجي يتصل الجسم بالعالم الكوني، وحقيقة الأمر أن الجلد هو مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال، يسجل كل منها تبعا لتكوينه الخاص التغييرات التي تحدث في البيئة، فالخلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم، والحرارة والبرودة(٢).

وهذه الحقيقة العلمية كشف عنها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان حين قال: «إن الذين كفروا بأياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً»(٣).

هكذا تشير هذه الآية إلى أن النار كلما أكلت جلود الكافرين بدلهم الله بجلد غيره حتى يستمر الألم بلا انقطاع إذ الجلد هو مركز الخلايا الحسية عند

---

(١) د. عبد العزيز إسماعيل - الإسلام والطب الحديث ص ٦٦.

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص ٨٢.

(٣) النساء ٥٦.

الإنسان، ولم يكن أحد يعلم بهذه الحقيقة العلمية يوم نزل القرآن إلا منزل القرآن وخالق الإنسان وهو الله سبحانه وتعالى.

علم البصمات:

انتهى خبراء البصمات وتحقيق الشخصية إلى أن بصمة الأصبع أدل على الإنسان من أى جزء آخر فيه فالوجه قد تحدث له عمليات تجميل تغيره، ولكن جلد الأصبع لو احترق وتكون مكانه جلد جديد، فإنه يظهر وبه نفس الخطوط والأشكال التى كانت فى جلده القديم، ويقول العلماء إن لبصمة الأصبع مائة من الخصائص من حيث أشكالها ومن حيث مواضعها، ولكى نعثر على رجلين يشتركان فى عشر من هذه الخصائص لابد من امتحان ألف مليون رجل.

وعلماء البصمات يبنون حسابهم على امتحان اثنتى عشرة خصيصة، اتفق عليها رجال الضبط والأمن بكل البلاد، ولن نجد اثنين يشتركان فى هذه الخصائص الاثنتى عشرة إلا مرة واحدة فى كل أربعة وعشرين (بليونا) من الرجال.

وهذه الحقيقة يكشف عنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، حيث يقول «أيحسب الأنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه»[1].

فهذه الآية الكريمة برهان قاطع على أن القرآن من عند الله، إذ من المحال أن يعرف الرسول ﷺ الأمى الذى نشأ بين جبال مكة أن لكل بنان من البشر رسوما تختلف عن الآخرين، وكيف يعرف هذا السر والمجهر لم يكن موجودا فى ذلك الوقت، إذا فالقرآن من عند الذى يعلم السر وأخفى - سبحانه وتعالى[2].

والجدير بالذكر هنا أن هذه الآية كانت سبباً فى إسلام عالم ألمانى، حيث قال إن هذه الآية من عند الله تعالى وليست من قول بشر لأنها تشمل أسراراً

---

(١) القيامة ٣، ٤.

(٢) راجع ص ١٨٠ ومابعدها - كتاب معجزة القرآن - نعمت صدقى.

علمية لم تكن معروفة فى زمن محمد ﷺ ولم تكتشف إلا فى القرن العشرين وهى طبعات الأصابع ومظاهر التوقيع(١).

٦- الحقائق الكونيـة :

وكما اشتمل القرآن الكريم على هذه الحقائق الإنسانية، فقد اشتمل على كثير من الحقائق الكونية التى كشفت عن آيات الله فى مجال الفلك، والطبيعة، وبداية الكون ونهايته - فضلاً عن إشارته إلى كثير من القوانين العلمية التى تحكم الكون.

وسوف نشير فيما يأتى إلى بعض الحقائق الكونية التى سبق القرآن فى تقريرها قبل أن يصل إليها العلماء بألف وأربعمائة سنة.

١ - بين بداية الكون ونهايته :

أثبت العلم الحديث أن الأجرام السماوية كانت كتلة واحدة ملتهبة، وأن السماء والأرض كانت متماسكة مع هذه الكتلة الكبيرة التى كانت تسير بين سحب غازية من الدخان يقول أينشتاين: «إن الدخان هو الضباب السحابى الذى تتكون عن زوابعه الأولى أول السديمات الوجودية وأكبرها(٢). ثم حدث انفجار ضخم ترتب عليه انفصال الكواكب والمجرات واندفاعها بعيداً عن بعضها ثم بعد ذلك برزت الأرض وأصبحت مهيأة لحياة الإنسان.

كما أثبت أيضاً أن نهاية الكون سوف تكون كبدايته بانفجار ضخم يقع بين الأجرام السماوية ويعود الدخان كما كان عليه فى البداية(٣).

إلا أن القرآن الكريم قد كشف عن هذه الحقائق منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

---

(١) قارن ص ٣٢ من كتاب «كلمة الإنسان العليا» - حسين هادى الشربينى.

(٢) راجع ص ٤٨ ومابعدها من كتاب مقالات فى العلم - البرت - اينتشتين.

(٣) راجع ص ١٦٥ ومابعدها - كتب «من الآيات العلمية» د/ عبد الرازق نوفل.

ففى الإشارة إلى الذرات الدخانية الموجودة قبل خلق السموات والأرض يقول الله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين»[١].

وفى الإشارة إلى تماسك السموات والأرض ككتلة واحدة يقول الله تعالى «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما»[٢].

وأما عن نهاية الكون فقد أشار القرآن الكريم إلى انفراط عقد كل مافى السموات والأرض حيث تنشق السماء وتنتشر الكواكب، وتنفجر مياه البحار وتتحول إلى نار، يقول الله تعالى: «يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب»[٣] «فإذا برق البصر، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر»[٤] ويقول: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»[٥].

ويقول تعالى: «إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت»[٦] وقد ظل المفسرون طويلا يقولون إن هذه الآيات تعبيرات مجازية تشير إلى أهوال يوم القيامة وأخيراً اكتشف عالم الفيزياء (يورى) إمكانية انفجار البحار وتحولها إلى نار ملتهبة، حيث اكتشف نوعين من الماء يختلفان فى خواصهما باختلاف طبيعة تكوينهما، فالمعروف أن الماء مكون من اتحاد ذرتين من الأيدروجين وذرة أكسجين، وقد وجد أن الأيدروجين منه ذرات خفيفة تبلغ كثافته نصف كثافة الذرات الثقيلة وهى باتحادها مع الأوكسجين تكون ماء الشرب»[٧]، أما الذرات الثقيلة إذا اتحدت مع الأوكسجين كونت مايسمى بالماء الثقيل وهو سام، ومميت للكائنات الحية، وقد اكتشف أن هناك ذرات أيدروجين، (وهى عبارة عن غاز مشتعل) غير مستقرة فى جوف البحار وأنها إذا تعرضت

---

(١) سورة فصلت الآية ١١.
(٢) الأنبياء ٣٠.
(٣) الأنبياء/ ١٠٤.
(٤) سورة القيامة (٧ - ٩).
(٥) الفرقان/ ٢٥.
(٦) سورة الانفطار (١ - ٣).
(٧) عبد الرازق نوفل - الله والعلم الحديث ص ١٩٤ ط الشعب.

لأى ضغط كهربائى أو إشعاعى كصاعقة كبيرة من السماء فسوف تشتعل كل بحار الدنيا»(١).

وهنا يسبق القرآن الكريم نظريات العلم الحديث حين يقول «وإذ البحار سجرت» أى تحولت إلى نار مشتعلة.

كذلك يشير القرآن الكريم إلى وجود الدخان كعلامة من علامات الساعة فيقول: «فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم».

وفى ذكر الدخان كعلامة من علامات قرب قيام الساعة روى أبو مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»(٢).

وإذا كان القرآن الكريم قد أكد على نهاية الكون مثبتا أنه ليس أزليا ولا أبديا، فإن العلم الحديث فى أحدث قوانينه يؤكد ذلك، فقد أثبت قانون الطاقة المتاحة - أن طاقة الكون فى تناقض مستمر وأنها لابد أن تصل إلى نهايتها حيث تنتهى الحياة، يقول (فرانك ألن) عالم الطبيعة البيلوجيه «إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة»(٣).

وهنا نصل إلى معنى قوله تعالى «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» وقوله «كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون».

---

(١) الإنسان فى الكون ص ٣٧٨.

(٢) قارن ص ٣٨٩ من الإنسان والكون.

(٣) راجع ص ٦ من كتاب الله يتجلى فى عصر العلم.

النسبية فى الزمن:

أثبت اينشتاين أخيراً أن الزمن نسبي، وتختلف مقاييسه، من كوكب إلى كوكب، ذلك أنه مرتبط بدوران الكواكب حول نفسها وحول الشمس، وبما أن حركات الكواكب ودوراتها مختلفة[1] فلابد من إختلاف الزمان من كوكب إلى كوكب على حسب سرعة هذا الكوكب أو بطئه.

ويضرب اينتشتاين مثلا افتراضيا فيقول لو أن الإنسان استطاع أن يتحرر من جاذبية الأرض وقوانينها الخاصة وانطلق فى الفضاء الكونى فى مركبة فضائية تسير بسرعة الضوء (وهى أكبر سرعة أمكن للعلم قياسها حتى الآن وتستلزم تحول الجسم إلى شعاع غير مرئى، والدقيقة الضوئية تساوى ١١ مليون ميل فى الساعة، والساعة الضوئية تبلغ ٧٠٠ مليون ميل تقريبا، وأما السنة الضوئية فهى تبلغ ستة ملايين مليون ميل أى الرقم ٦ وعلى يمينه ١٢ صفر) لمدة سنتين ثم يعود إلى الأرض بعد عامين فقط من الرحلة الكونية، فيجد كل الأصدقاء من جيله قد ماتوا، ويجد سكاناً جدداً وحضارات فهذه المدة تساوى قرنين بحساب زمن الأرض[2].

وهكذا ربط اينشتاين بين الأجرام[3] فاستنتج نسبية الزمن.

---

(١) يدور كوكب «عطارد حول الشمس فى ٨٨ يوما وحول نفسه فى نفس المدة ويدور (الزهرة) حول الشمس ٢٢٤ يوما بينما تدور الأرض حول الشمس فى ٣٦٥ يوما تقريبا وحول نفسها فى ٥٦ دقيقة و٢٣ ساعة (والمريخ) يدور حول الشمس فى ٦٨٧ يوما وحول نفسه فى ٣٧ دقيقة و٢٤ ساعة (والمشترى) يدور حول الشمس فى إحدى عشرة سنة وستة وثمانين يوما، وحول نفسه فى عشر ساعات تقريبا.

أما (زحل) فيدور حول الشمس فى ٢٩ سنة وحول نفسه فى ١٠ ساعات، «وأورانوس» يدور حول الشمس فى ٨٤ سنة وحول نفسه فى إحدى عشرة ساعة تقريبا، (نبتون) يدور حول الشمس فى ١٦٤ سنة وحول نفسه فى ١٦ ساعة تقريباً.

أما بلوتو فيدور حول الشمس فى ٢٤٧ سنة، راجع كتاب (ظواهر جغرافية فى ضوء القرآن الكريم)، د. ابراهيم حسن النصيرات.

(٢) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، اينتشتين والنظرية النسبية صـ ٨٠ دار القلم بيروت سنة ١٩٧٤.

(٣) النسبية من النظريات العلمية المعقدة التى تحتاج إلى عقول راقية وتعمق فى النظريات =

وحينما نعود إلى القرآن الكريم نجد كثيراً من الإشارات الواضحة إلى إمكان نسبية الزمن، وخذ على سبيل المثال قول الله تعالي «الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش»[١].

وقوله: «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين»[٢].

فما مفهوم هذه الأيام ياترى؟ هل هى الأيام بحسابنا المعروف؟

كلا، لأن العلم الحديث يقول إن تكوين الأرض قد استمر مئات الآلاف من السنين.

كما أن القرآن يشير فى آيات أخرى إلى أن أيام الله غير أيام الناس فيقول: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون»[٣].

= الرياضية وخلاصتها باختصار أنها أدخلت بعدا رابعا فى دراسة الكون والإنسان وهو الزمان وقد كان العلماء سابقا ينظرون فى الجرم إلى أبعاده الثالثة وهى الطول والعرض والعمق فهى تساوى الكتلة أو الحجم، إلا أن اينشتاين أثبت أن الأجسام مكونة من ذرات فى حركة دائمة وبما أن الزمن مرتبط بالحركة (إذ هو كما قال الفلاسفة الفاصل بين حركتين) إذا لابد أن يحسب حسابه عند دراسة الأجسام، فلانكتفى بالطول والعرض والعمق، بل لابد من إدخال عنصر الزمن أى عنصر السرعة التى تتحكم فى طول المادة وكتلتها وفى طاقتها وبالتالى فى مدة بقائها).

ونضرب مثالا بسيطا على هذا فنقول: إن أبعاد الإنسان المعروفة هى الطول والعرض والعمق ولكن إذا افترضنا أن هذه الإبعاد قد ثبتت فلم تتغير لمدة أسبوع من الزمان، فهل يمكن أن نصدق أن الشخص لم يتغير فيه شىء خلال هذا الأسبوع أم أنه قد تغير عمره وزادت أيامه مثلاً، وهذا المنزل الذى نراه منذ سنة هل هو حقيقة على ما هو عليه أم أن مرور الزمن قد غير فيه بعض الشىء، إذاً فالزمن شىء جوهرى يضاف إلى الكتلة إذا أردنا دراستها دراسة علمية صحيحة، وأى شىء موجود لابد أن يكون موجودا فى زمان ومالا دخل للزمن فيه من الحوادث لا وجود له، فلانستطيع أن نقول عن شىء ما حادث أنه موجود فقط، بل نقول موجود فى زمان كذا، وهذا ما سماه اينشتاين بالمتصل (الزمكانى) وبما أن الزمن مرتبط بدورة الأفلاك وحركتها إذا فهو نسبى.

راجع صـ ١١٤ من كتاب شواهد العلم فى هدى القرآن وصـ ٨٨ من كتاب اينشتاين والنظرية النسبية وصـ ٣٥٨ من كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر.

(١) الفرقان: ٥٩.

(٢) فصلت : ٩.

(٣) الحج : ٤٧.

ويقول: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»[١].

كما يقول: «تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[٢].

إذاً فوحدات الزمن نسبية ويختلف قياسها، ومع أن الله سبحانه وتعالى فوق الزمان لأنه خالقه إلا أنه يخاطب الناس على مقدار عقولهم، مما يجعل كلام اينشتاين عن نسبية الزمان ليس جديداً ولاغريبا على عقولنا مادام مرتبطا بدورات الأفلاك حول نفسها وحول الشمس[٣] ومدى سرعة أو بطء هذه الدورات[٤].

٣- حقيقة الحاجز الموضوع بين البحار:

أعلن (جاك أوسترى) - وهو كبير علماء فرنسا فى علوم البحار - أعلن إسلامه أخيرا والسبب فى ذلك أنه كان يبحث فى خصائص مياه البحار وعندما وصل بأسطوله العلمى إلى مضيق جبل طارق الذى تلتقى عنده مياه البحر الأبيض بمياه المحيط الأطلنطى، وجد أن لمياه البحر الأبيض خصائص تختلف عن خصائص مياه المحيط الأطلنطى من ناحية الكثافة والملوحة والحرارة مع أنهما يلتقيان فراحوا يبحثون عن سر إختلاف هذه الخصائص فوجدوا أن هناك حاجزاً يفصل بين البحرين هو عبارة عن منطقة مائية تحمل شحنات كهربائية معينة تمنع من اختلاط أحد البحرين بالآخر، وتحفظ على كل بحر خصائصه

---

(١) السجدة: ٥.

(٢) المعارج: ٤.

(٣) راجع صـ ٤٧٦ وصـ ٧٠٧ من «المنتخب من تفسير القرآن الكريم».

(٤) تدور الأرض حول محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة وهناك كواكب أخرى تسير بسرعة أقل أو أكثر من هذه السرعة مما يترتب عليه اختلاف الزمن من كوكب إلى آخر، راجع كتاب - القرآن وبناء الإنسان - صلاح عبد القادر صـ ١٥ جدة سنة ١٩٨٢.

فتعجب من هذا الاكتشاف إلا أن أحد الباحثين المسلمين أخبره بأن هذه الحقيقة العلمية مذكورة فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وتلى عليه قول الله تعالى:

«مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان»(١)، وقوله «أمن جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى، وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون»(٢).

وما أن سمع (جاك أوستري) هذه الآيات حتى أعلن إسلامه.

وفى عام ١٩٦٢ جاءت بعثة ألمانية إلى باب المندب لدراسة خصائص ماء البحر الأحمر وبحر العرب فوجدوا خلافا واضحا فى التركيب الكيمائى بين البحرين واكتشفوا المنطقة العازلة التى تمنع كل بحر منهما من أن يختلط بالآخر.

وهكذا أصبح هذا الحاجز حقيقة علمية اكتشفت فى هذا القرن ولكن كتاب الله قد كشف عنها قبل ألف وأربعمائة سنة(٣).

٤ - حقيقة كمون النار فى الشجر الأخضر:

أخبر القرآن الكريم أن النار كامنة فى الشجر الأخضر فقال:

«أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم»(٤).

وقال: «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون»(٥).

---

(١) الرحمن (١٩، ٢٠).

(٢) النمل ٦١.

(٣) نقلا عن محاضرة للشيخ الزندانى بجامعة الملك عبد العزيز.

(٤) الواقعة: ٧١ - ٧٤.

(٥) يس: ٨٠.

وكان الناظر فى كتاب الله قديما حينما يمر على هذه الآيات، يفسرها تفسيراً مجازياً فيقول إن الشجر الأخضر بعد أن يجف ماؤه من الممكن أن يكون وقوداً للنار، فهو نار باعتبار ماسيكون، أو أنه شجر أخضر باعتبار ما كان - من باب المجاز المرسل.

ولكن يأتى العلم الحديث اليوم لكي يكشف عن السر الحقيقى فى تعبير القرآن فيقول: إن الاحتراق الذى يولد الحرارة والنار إنما يحصل من اتحاد «الأوكسجين مع الكربون» والكربون موجود بصفة عامة فى أجسام كثيرة ولكنه يوجد بصفة خاصة وأساسية فى النباتات التى تتكون أنسجتها من الكربون الذى يشكل الغذاء الوحيد للنباتات والأشجار[1]، وهكذا فالنار كامنة فى الشجر الأخضر الطرى المائى الذى لم يكن يتوقع أحد أن النار كامنة فيه، إذ النار ضد للماء فى نظرنا وكيف يخرج الضد من الضد؟ ولكن ليس لنا إلا أن نهتف بكل مشاعرنا ونقول: «تبارك الله أحسن الخالقين».

٥ - حقيقة أن التراب عامل من عوامل الطهارة والنظافة:

يقول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون»[2].

لقد أثارت هذه الآية فى الماضى كثيراً من الجدل، فقال أعداء الإسلام كيف يستخدم التراب فى التطهير وهو الذى يحمل مختلف أنواع الجراثيم والأمراض الفتاكة، وقالوا إن القرآن لم ينزل إلا بما يتفق مع البيئة العربية الصحراوية الخالية من البحار.

---

(١) راجع صـ ٣٦٠ من قصة الإيمان - نديم الجسر.

(٢) المائدة آية ٦.

وإذا بالعلم الحديث يأتى مصدقا لأحكام القرآن الكريم وهادما لشبه الجاحدين والمعاندين، حيث يكتشف العلماء أخيراً أن التراب قاتل للجراثيم ومبيد لها، وأنه يستحيل أن تعيش الجراثيم فى التراب.

بل بدأ العلماء يستخلصون العقاقير الطبيه من التراب ومنها:

«الستريبتومايسين» و «التراميسين» و «الاورميسين» و «الكلورديستين».

كما اكتشفوا أن مستخلصات التراب هى أنجح علاج لأمراض «الإلتهاب الرئوى» و «التيفود» و «الكوليرا» و «الأميبا».

وقال الدكتور «وطسمان» الروسى الأصل: إن التراب هو أعظم مطهر من الجراثيم[١].

ومن هنا نفهم مغزى حديث الرسول ﷺ «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبع مرات احداهن بالتراب» حيث اكتشف العلماء أن فى لعاب الكلب جرثومة خطيرة لاتموت إلا بالتراب.

فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه الحقائق العلمية؟

إن أى عاقل يحترم فكره ووعيه لايملك إلا التسليم بأن محمدا ﷺ هو رسول الله حقا وإلا فليعطنا المنكرون تبريراً واحدا يناقض ما أثبتنا.

٦ - حقيقة الإتساع المستمر فى الكون:

لقد اثبتت نظريات نيوتن واينشتاين من خلال نظرية النسبية أن الكون فى حركة دائمة تؤدى إلى ازدياد حجمه باستمرار، وكلما زاد حجم الكون ازدادت المسافة بين أجرامه[٢]، وتباعدت المجرات بعضها عن بعض وزادت سرعتها حتى تحتفظ بتوازنها ولا تخرج عن مدارها المرسوم «وكل فى فلك يسبحون».

(١) محمد سعدى المقدم - شواهد العلم فى هدى القرآن صـ ١٣٨.

(٢) راجع ص ١٦٥ من كتاب «قوانين الله وليست قوانين الطبيعة» محمود عفيفى - دار الفكر العربى.

وقد أثبت اينشتاين أن كل المجرات تبتعد عن بعضها بسرعة تتناسب مع أبعادها عنا وعن بعضها بعضا، وقد حسب العلماء معدل الإبتعاد بين المجرات وقد وصلوا أيضاً إلي أن كل هذه المجرات كانت مكدسة فى منطقة معينة من الفضاء منذ حوالي سبعة آلاف مليون سنة والكون فى اتساع مستمر تبعاً لحركة ابتعادها عن بعضها.

وقد استشهد العلماء على ذلك بظاهرة تعاقب الليل والنهار، فمعروف أن الليل والنهار يأتى من دوران الأرض حول الشمس فيصير الوجه الذى يقابل الشمس من الأرض نهارا والذى لايقابلها ليلا وكان من المفروض أن تظل الأرض نهاراً دائماً بحكم مايصل إليها من الشموس الكثيرة المنتشرة بين المجرات كالغابة الكثيفة والأرض بينها فكيف لم يحدث ذلك؟

هنا تجيب نظرية التمدد الكونى فهذه الشموس فى ابتعاد مستمر مما يعطى الفرصة لسيادة ضوء شمسنا على غيرها.

كذلك وصل العلم الحديث بمراصده إلى أن هناك عمليات ميلاد مستمرة لنجوم ومجرات، وهذا يدفع الكون إلى التمدد، لأن خلق المادة يؤدي بالتالى إلى مط الفضاء مطا كالبالون، وهذا يؤدى بالتالى إلى تباعد تجمعات المجرات بعضها عن بعض واتساع الفضاء باستمرار.

كما أثبت العلم أن الشمس تجرى فى الفضاء الكونى بمعدل (١٠٣.٦٧٠٠) ميل فى اليوم الواحد فى اتجاه كوكب «النسر الواقع» وذلك مصداقا لقوله تعالى «والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»(١).

وقوله «وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى»(٢).

ولا تجرى الشمس وحدها وإنما يجرى معها مجموعتها التى تحيط بها وهى كواكبها التسعة بما فيها الأرض حتى لايلحق أحدها بالآخر ويؤدى ذلك إلى

---

(١) يس : ٣٨.

(٢) الرعد : ٢.

صدام كونى(١)، قال تعالى «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون».

وإذا كان العلماء قد اكتشفوا هذه النظرية فى بداية القرن العشرين على يد اينشتاين ومساعده العالم العربى المسلم «مصطفى مشرفه» إذا غضضنا النظر عن ارهاصات (نيوتن).

أقول إذا كان العلماء قد اكتشفوا هذه الحقيقة فإن القرآن الكريم قد أشار إليها إشارة لطيفة بقوله تعالى «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون» نطق بها محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وما قرأ فى حياته حرفا واحداً من علم الفلك، وما عرف حتى كل العلماء والفلاسفة السابقين شيئا عن نظرية تمدد الكون» فمن أين لمحمد بهذه الحقائق؟ لايمكن أن يكون ذلك إلا من عند الله خالق الكون، إن أى عالم طبيعى منصف حين يقرأ هذه الآية وما ورد حول النظرية من آيات أخرى تؤيدها وتشرحها لايملك إلا أن يؤمن بحق بأن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز، وأن محمدا ﷺ هو النبى الخاتم.

حقيقة تعدد العوالم والافلاك:

وقد وردت هذه النظرية فى أول آية من آيات الكتاب الكريم «الحمد لله رب العالمين» والإعجاز هو فى كلمة (العالمين) التى فاجأت العرب من ناحية جمعها وهم لا يعلمون إلا عالما واحداً هو الذى كانوا يعيشيون فيه وقد حاول المفسرون القدامى حل هذه الأشكال فقالوا هى عوالم الإنس والجن والملائكة وقالوا هى عوالم الحيوان والنبات والجماد.

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراصده وتحليلاته الرياضية فاكتشف أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ليست فى هذا العالم المجرى شيئاً مذكورا، وبين أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية الأبعاد تعد بالملايين(٢).

(١) راجع كتاب الإنسان فى الكون صـ ٣٤٧ ومابعدها صـ ٣٦٠.

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ٢٦٠ وقارن صـ ٧٩ من كتاب «شواهد» العلم فى هدى القران للأستاذ محمد سعدى المقدم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق بلفظة واحدة هى «العالمين» وجدير بالذكر أن نسجل هنا لفخر الدين الرازى ارهاصاته فى التفسير العلمى للقرآن الكريم فقد قال عند تفسيره لجملة (رب العالمين»: ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لانهاية له وثبت بالدليل أنه تعالى قادر على جميع الممكنات، فهو قادر على أن يخلق ألف ألف عالم خارج العالم، بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم، ويحصل فى كل واحد منها ماحصل فى هذا العالم من العرش والكرسى والسموات والأرض والشمس والقمر.

بل يحاول الرازى أن يدحض آراء المعارضين فى إثبات هذه الحقيقة فيقول: ودلائل الفلاسفة فى إثبات أن العالم واحد دلائل ضعيفة ركيكة مبنية على مقدمات واهية ثم يستشهد بقول أبى العلاء المعرى.

يا أيهـــــا النـاس كم لله من فلك

تجـرى النجـوم به والشـمس والقـمـر

هين على الله مـــاضـــينا وغـــايرنا

فـمــالنا فى نواحى غـيــره[١] خـطــر[٢]

قانون الجاذبية:

لقد تساءل الإنسان قديما عن الأرض كيف تدور فى الهواء مع مجموعة الأفلاك التى تدور معها، وماهى القوة التى تمسكها عن السقوط والانحدار، وكان الجواب قديما أن هذه الأرض محمولة على قرن ثور هو الذى يمسكها وأما فى العصر الحديث فقد وصل نيوتن بعد أبحاث وتجارب عديدة إلى أن هناك قوة خفية موجودة فى هذا الوجود هى التى تمسكه من السقوط والاصطدام وهذه القوة سماها «بالجاذبية» هى التى تجعل الشمس تمسك بالأرض وسائر الكواكب

---

(١) أى غير الله من أنواع الموجودات. ومعنى ذلك أننا لسنا شيئاً مذكورا بالإضافة إلى مخلوقات الله.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ صـ ١٥.

وتجعلها تدور فى مدارات محددة وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا القانون بقوله «خلق السموات بغير عمد ترونها»(١).

وقوله: «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها».

ويعجب الإنسان من إعجاز الأسلوب والمعنى فى هذه الآيات، فلو أنها قالت «من غير عمد» فحسب لكان ذلك نفيا مطلقا للعمد مرئية وغير مرئية والنفى مطلقا يخالف الواقع الذى علم الله أنه سيهدى إليه عباده بعد نحو ألف وخمسين عاما من نزول القرآن الكريم.

كذلك نلاحظ الإشارة إلى قانون الجاذبية فى قوله تعالى «ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسي شامخات»(٢).

ففى كلمة كفاتا إشارة إلى أن هذا القانون إذ معناها (الجذب والضم).

ومنه قول الشاعر:

كـــــرام حين تنكفت الأفـــاعى ... إلى أحـــجـــارهن من الصـــقـــيع

ولقد مر العرب الأولون على هذه الآية ففهموا منها مايمكن فهمه على قدر عقولهم، فقد أدركوا أن الأرض للإنسان كالوعاء تحفظ مافيها وتحميه وتحرسه، ثم مر علماء الفلك وعلماء الأرض على هذه الآية فاستنبطوا منها قانون الجاذبية حيث قالوا إن الإنسان إنما يستقر على الأرض بقوة خفية تجذبه إليها وإلا لما أمكنه الاستقرار.

والجدير بالذكر أن العالم الطبيعى ابن قره المتوفى ٢٢٨ هـ قد أشار إلى هذه المعانى قبل أن يكتشفها نيوتن بقرون عديدة.

وقد أشار الشيخ محمد عبده فى تفسيره لقول الله تعالى «أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها» إلى هذا القانون فقال: «إن الله سبحانه وتعالى جعل كل كوكب

---

(١) لقمان : ١٠

(٢) المرسلات الآية ٢٧.

من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة وشد هذه الكواكب برباط الجاذبية العامة»[١].

غير أن الفرق بين فكرة نيوتن عن قانون الجاذبية وبين معالجة القرآن لهذا القانون (فرق شاسع)؛ ذلك أن نيوتن وأتباعه يدعون أن هذا القانون موجود بذاته ويعمل بذاته بلاموجد ولاصانع ومن هنا فالكون أزلى أبدى.

أما القرآن الكريم فقد كان منطقيا حين أشار إلى أن هذا القانون له واضع وله موجد هو الله سبحانه وتعالى فهو الذى يمسك به السموات والأرض أن تزولا وهو القادر على سلبه من الوجود فتتزلزل الأرض وتتشقق السماء وهنا تكون الساعة والحساب يقول الله تعالى:

«ألم تر أن الله سخر لكم مافي الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم»[٢].

والاستثناء فى الآية يشير إلى أن السماء ستقع على الأرض عندما يأذن الله بذلك يوم القيامه التى ستكون بنسف الجبال وانفطار السماء وطمس النجوم «إذا السماء انشقت» «إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت» «إذا زلزلت الأرض زلزالها» نعم كل ذلك سوف يكون حين يسلب الله تعالى هذا القانون من الوجود فينفرط عقده.

حقيقة كروية الأرض ودورانها :

كان الناس قديما يظنون أن الأرض مبسوطة وممتدة وثابتة ولكن لم يخطر لأحد على بال أن هذه الأرض كروية وأنها تتحرك، وجاء العلماء المحدثون واكتشفوا عن طريق المراصد والمجاهر والآلات العلمية الحديثة أن هذه الأرض كروية تشبه بيضة النعام.

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٦٥. وقارن ص ١٣٤ من كتاب «من الآيات العلمية» د. عبد الرازق نوفل.

(٢) الحج : ٦٥.

وقد أعلنت بعض الجهات العلمية أن الأرض أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب الأشكال إليها هى البيضة فلاهى بالمفرطحة كثيراً ولاهى بالمكورة تكويراً تاما[١].

كما اكتشفوا أن هذه الأرض فى حركة مستمرة تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، ومرة حول الشمس فى كل عام.

ومافطن أحد إلى أن القرآن الكريم قد أثبت هذه الحقائق قبل أن يكتشفها العلماء المحدثون بقرون عدة، غير أن الكتاب الكريم ليس كتابا فى الفلك أو فى أى علم جزئى آخر حتى يفصل النظريات العلمية، فالقرآن كتاب جامع، حوى كل شىء ومن هنا اكتفى بالإشارة دون العبارة وبالتلميح دون التصريح.

وفيما يأتى من آيات نجد إشارات وتلميحات إلى هذه الحقيقة العلمية.

يقول الله تعالى «يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا»[٢] «ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل»[٣] «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل»[٤].

إن هذه الآيات الثلاث تؤكد لنا أن الأرض تدور حول نفسها فينتج من ذلك الليل والنهار، لأن نصف الأرض يكون تارة مواجها للشمس وتارة أخرى فى ظلام الكون.

وكلما كان نصفها مواجها للشمس مستمتعا بضوئها أى فى نهار كان النصف الآخر فى ظلام أى فى ليل وهكذا دواليك، ينقلب الوضع بدوران الأرض حول نفسها فيتراوح سطحها بين ليل ونهار، أى بين ظلام ونور يتعاقبان وقد دل على ذلك القرآن الكريم بهذه الإشارة اللطيفة «يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا» فهما يتبادلان المكان لدوران الأرض حثيثا حول نفسها.

---

(١) عبد الرازق نوفل - الله والعلم الحديث صـ ١٢٨.
(٢) الأعراف : ٥٤.
(٣) الحج : ٦١.
(٤) الزمر : ٥.

وقد بين سبحانه أن الأرض كروية وأنها كذلك تدور حول نفسها في قوله «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» والكور هو إدارة العمامة على الرأس أي لفها[١].

وهذا صريح في أن الأرض كروية، لأن كل من الليل والنهار يلتف على الأرض مستديرا كما تلتف العمامة حول الرأس مستديرة وهكذا يلتف الظلام على مكان النور حينما يلتف النور على مكان الظلام ويدور كلاهما على سطح الأرض ويجرى كلاهما وراء الآخر بحركة دائرية هي حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس.

وهناك آية أخرى تشير إلى هذه الحقيقة فتقول «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا»[٢].

جعل الله تعالى ضوء الشمس دليلاً على دوران الأرض حول نفسها ولذا ترى الظل يمتد من شرق لغرب ثم يمتد من غرب لشرق فيطول ثم يقصر ويقصر ثم يطول لأن الأرض تدور ولو كفت الأرض عن الدوران على محورها لكف الظل عن الامتداد وظل ثابتا فما حركة الظل إلا من حركة الأرض[٣].

وإذا كان علم الفلك قد أثبت للشمس حركة سريعة قدرها بنحو اثنى عشر ميلا في الساعة. فإن القرآن قد أشار إلى ذلك حين قال: «والشمس تجري لمستقر لها» فالجرى أدل على السرعة من المشي أو السير وكل هذا إعجاز علمي للقرآن الكريم إذ لم يكن الرسول ولا أحد غيره وقت نزول القرآن على علم بهذه الحقائق إذاً فالقرآن من عند العزيز العليم الذي وسع علمه كل شيء.

حقيقة نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا:

اكتشف العلماء حديثا وبعد اختراع الطائرات أن طبقات الجو العليا خالية من الأوكسجين إذ يشعر الصاعد لهذه الطبقات بصعوبة في التنفس وضيق في

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١ صـ ٢١١.
(٢) الفرقان: ٤٥.
(٣) راجع ص ٤٢ من كتاب «من الآيات العلمية» د/ عبد الرزاق نوفل - مطبعة الأنجلو القاهرة.

الصدر ولذلك استخدموا أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة وكل هذا يشير إليه القرآن الكريم اشارة لطيفة فيقول «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام؛ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء»(١).

حقيقة الزوجية فى كل شىء:

ظاهرة الزوجية بين الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات أمر معروف مشاهد ولاغرابة فيه ولكن حين يقول القرآن الكريم: «ومن كل شىء خلقنا زوجين». ومن المتعارف عليه أن كل إذا أضيفت إلى نكره عمت كل أفرادها - أقول حين يشير القرآن إلى حقيقة الزوجية فى كل شىء ويدخل الجمادات هنا تكون الغرابة. ولكن بعد التقدم العلمى فى العصر الحديث اكتشفوا فعلا أن كل ذرة فى الوجود حتى الجمادات مكونة من جزئين، أحدهما موجب والآخر سالب وبالتجاذب الكهربى تتكون الذرة.

يقول الشيخ سيد قطب عليه رحمة الله ورضوانه: «التعبير - فى هذه الآية يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية، وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية فى كل شىء حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير»(٢).

ألا فليخبرنا هؤلاء الملحدون من الذى أدرى محمداً - صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق؟ ومن الذى جعله يعبر هذا التعبير الدقيق «ومن كل شىء»؟

إنه الله الخالق لكل شىء والعالم بكل شىء سبحانه وتعالى عما يشركون.

هذه بعض الحقائق العلمية التى أشار إليها القرآن الكريم ولو أردنا أن نستقصيها لاحتجنا إلى كتابة مجلدات ولكننا نكتفى بما ذكرنا ونحيل من يريد

---

(١) الانعام : ١٢٥.

(٢) فى ظلال القرآن الجزء السادس صـ ٣٣٨٥.

الإستزادة إلى الكتب القيمة التى تخصصت فى هذه المجالات ومنها الكتب التى أشرنا إليها فيما سبق.

ولكن قبل أن ننتهى من هذا الفصل ننبه إلى أن معالجة القرآن للمسائل العلمية الكونية لم تكن مقصودة لذاتها فالقرآن ليس من مهمته عقد فصول أو أبوبا لشرح مسائل كيميائية أو معادلات جبرية أو نظريات هندسية إنما المقصد الأساسى للقرآن هو هداية الناس إلى طريق الحق وماذكره من الكونيات والحقائق العلمية إنما كان على طريق الهداية ودلالة ظواهر الكون على وجود موجدها.

ولذلك رأينا فيما سبق أن الأسلوب الذى اختاره القرآن للتعبير عن هذه الحقائق العلمية كان أسلوبا بارعا جمع بين إعجاز البيان وإعجاز العلم فى آن واحد بحيث يمر النظم القرآنى على سامعيه فى كل عصر فيفهم منه الناس مايناسب عصرهم وحياتهم باختلاف مالديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون.

مرت الآيات على المفسرين القدامى ففهموا منها مايناسب عصرهم وفكرهم ومرت على العلماء المحدثين ففهموا منها مايناسب فكرهم وثقافتهم وهذا سر من أسرار القرآن الكريم فهو عطاء لاينتهى أو كما أخبرنا المصطفى ﷺ «لايخلق على كثرة الرد ولاتنقضى عجائبه».

وسوف يظل القرآن الكريم ملائماً للعلم فى تطوره والحياة فى تقدمها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل السابع

الإعجاز العقدى والتشريعى

هذا هو المقصد الأساسى من كل ماسبق ذكره من وجوه الإعجاز، على الرغم من أنه هو ذاته وجه آخر من هذه الوجوه.

وإذا كان العلم الحديث قد اكتشف أخيرا سبق القرآن وعظمته فى تقرير الحقائق العلمية، وأقر كثير من العلماء المحدثين بصدق القرآن الكريم فإن ذلك برهان واضح على صحة العقيدة والشريعة الإسلامية، لأن الذى قرر الحقائق العلمية فى هذا الكتاب هو الذى أخبرنا بما أخبر به من الأمور العقدية والتشريعية وقرر أنهما طريق النجاة فى الدينا والآخرة.

«ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين»(١).

إذا فلابد لكل عاقل أن يسلم بصدق العقيدة الإسلامية وبطلان ماعداها من العقائد المحرفة فلا انفصال بين يقين الحقائق العلمية وبين يقين العقيدة الإسلامية فصاحبهما والمخبر بهما واحد وهو الله رب العالمين.

ومع أن الوهم عند بعض المفكرين الغربيين يجعلهم يفصلون بين هذا وذاك لأسباب نفسية ورواسب وراثية، إلا أننا نعتقد إن الجولة القادمة هى فى صالح الإسلام فى أوربا، لأن الوهم سرعان مايتبدد، وتبقى حقائق العقل ولوازم المنطق واليقين.

فما هو وجه الإعجاز فى عقيدة الإسلام وشريعته؟

أولا - أما إعجازه العقدى فيتمثل فى أنه جاء بعقيدة جديدة لا وجود لها فى البيئة التى يعيش فيها ولاوجود لها حتى عند أصحاب الأديان السماوية السابقة

---

(١) آل عمران ٨٥.

فقد كان الإله المعبود عند النصارى واليهود - بعد التحريف - إلها موصوفا بصفات البشر من البنوة والجسمية والتعدد.

وكان الفرس يعبدون النار، والهنود يعبدون البقر وبوذا وبراهما، وما كان في العالم كله إنسان واحد يوحد الله أو يعرف حقيقة الإله الذى يستحق العباده، وإذا بالقرآن الكريم يأتي بهذه العقيدة السامية التي ردت الألوهية للإله الحق وعبدت الناس لمن يستحق العبادة.

جاء القرآن بعقيدة التوحيد بيضاء نقية، تصف الإله بكل مايستحق أن يتصف به من صفات الكمال والجلال وتنزهه عن النقص والمعايب، وتنص على وحدانيته في ألوهيته ووحدانيته في ربوبيته، ولم يقف القرآن عند هذا الحد بل فصل حدود الإيمان وأثبت عقيدة البعث الروحاني والجسماني وفصل مراحل مابعد الموت تفصيلا لم يكن أحد يعرفه في العالم كله حتى أنه لينصف الجنة ونعيمها وأبوابها، والنار والوان عذابها كأنهما رأى العين(١).

وفي هذا يقول أبو منصور الماتريدي وهو بصدد بيان إعجاز القرآن: «ثم مافيه من المحاجة في توحيد الرب وأدلة البعث مما لم يكن يومئذ على وجه الأرض من يدعي ذلك»(٢).

ووجه الإعجاز في هذا الوجه أن هذه المسائل التي فصلها القرآن الكريم عن قضية الألوهية والبعث لامجال للعقل فيها، ولايمكن أن تأتي بمجرد الفكر البشرى ومن هنا فلامناص من الاعتراف بأن القرآن الكريم كتاب الله المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

ثانياً - وأما إعجازه التشريعي فيتمثل فيما ورد فيه من تشريعات تنظم المعاملة بين الإنسان وأخيه الإنسان على مختلف المستويات بين المسلم والمسلم وبين المسلم وغير المسلم، بين الإنسان وأخيه في البيت وفي المجتمع المحلي والمجتمع الدولي. والتشريعات المنظمة في حد ذاتها لاجديد فيها، فقد وضع

---

(١) قارن صـ ٤٠ من النبأ العظيم.

(٢) راجع ص ٢٠٤ من كتاب «التوحيد» لأبي منصور الماتريدي.

الرومان واليونان قوانين ونظم. ولكن المعجز في تشريعات الإسلام إنها تستطيع أن تحقق العدل بين الإنسان وأخيه الإنسان بصرف النظر عن جنسيته ولونه أو حتى دينه، وهذا ما عجزت عنه القوانين السابقة والتى وضعت لكى تحقق مصلحة قوم أو جنس على حساب باقى الناس، أما تشريعات القرآن فهى تشريعات عادلة لأنها تشريعات رب الناس دون محاباة لجنس على آخر وهذه تشريعات يعجز أى إنسان مهما كان موضوعياً ومهما تغلب على نوازع نفسه وميولها أو يقنن لها، وإذاً فهى تشريعات الله المنزلة على محمد ﷺ .

ولقد اعترف الغرب النصرانى بعظمة التشريعات الإسلامية فقد أقيمت مؤتمرات للفقه الإسلامي في فرنسا وكثير من دول أوربا، وأجمعت كلمة رجال الفقه والقانون على اختلاف نحلهم ومذاهبهم على مدى أهمية الفقه الإسلامى وروعته وضرورة الإقبال على دراسته.

وإذا عرفنا أن الفقه الإسلامى الذى يقال عنه هذا الكلام إنما يرتد إلى ماقبل أربعة عشر قرنا من الزمان، وأنه ظهر بين أقوام بدائية يحتكمون فى مختلف شئونهم إلى الأعراف القبلية، ليست لهم ثقافة تؤلف منهم تركيباً اجتماعياً يحتاج إلى نظام أو قانون - أقول إذا تأملت فى هذا كله، أدركت أن التشريع القرآنى من أجل مظاهر الإعجاز فى هذا الكتاب العظيم.

ذلك أنه من الأمور البدهية عند علماء القانون والاجتماع أن آخر مايتوج به تقدم أى أمة من الأمم هو تكامل البنية القانونية والتشريعية فى حياتها.

إذاً فظهور قانون متكامل في أمة من الأمم هو الثمرة العليا لتقدمها الحضارى، وليس العكس، إذ أن الأمة التى لم تتقدم حضارياً، أو التى ما تزال تعيش فى طور البداوة، ليس فى حياتها من التعقيد الإجتماعي مايشعر بالحاجة إلى وضع قانون عام، ولكنها تشعر بذلك كلما تقدمت حضارياً وإزداد تركيبها الاجتماعى تعقيداً.

إلا أن الذى ظهر فى الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا من الزمان كان عكس هذا القانون البدهى تماماً، فقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات البدائية

قانون متكامل يتناول الحقوق المدنية والأحوال الشخصية، ويرسم صورة للعلاقات الدولية، ويضع نظام الحرب والسلم، ويضع نظاماً للمعاملات المالية، والسياسية، وهكذا تشريع متكامل لايترك من أمور الحياة صغيرة ولاكبيرة إلا عالجها وقنن لها هذا فى الوقت الذى كان فيه عرب الجزيرة العربية، لايعرفون شيئاً عن معنى المجتمع الذى يحتاج إلى قانون، فلم يأخذوا بنصيب من العلم أو الحضارة، مما يعد خطوات أساسية لابد من اجتيازها قبل وضع القانون العام.

فهل يستطيع الإنسان العاقل أن يجد حلا لهذا اللغز العجيب إلا فى اليقين بأن الكتاب الذى حوى هذا التشريع إنما أنزل وحيا من الله العليم الخبير(١).

وهكذا يبدو لنا الإعجاز التشريعى فى القرآن الكريم من ناحيتين:

الأولى : فى قدرة تشريعات القرآن على تحقيق العدل المطلق والمساواة الحقة بين الناس دون نظر إلى جنسهم أو لغتهم، فهى تنطلق من منطلقات إنسانية بحتة: وهذا مايعجز أن يحققه أى مشرع بشرى.

الثانية : فى تكامل هذه التشريعات ومعالجتها لشتى أمور الحياة مع ظهورها فى وقت ماكان يسمح بظهورها بين العرب فى بداوتهم، لولا أن الله قد رحم الإنسانية بهذه التشريعات المعجزة القادرة على تحقيق السعادة للإنسان.

والواقع أن المسلمين اليوم قبل غيرهم، فى أمس الحاجة إلى معرفة هذا الوجه والاقتناع به اقتناعا يدفعهم إلى العودة إلى تشريعات القرآن وتطبيقها على حياتهم، بعد أن ينفضوا عن أنفسهم غبار القوانين الوضعية التى يحتكمون إليها اليوم.

وإذا كان الغربيون اليوم قد أدركوا صحة القرآن الكريم من خلال كشفهم إعجازه العلمى فأنه أولى بنا أن نعترف اليوم بأنه لاسعادة لنا ولا رقى إلا بالعودة إلى تشريعات القرآن كما أخبر بذلك من وضع فيه هذه الحقائق العلمية وأنزله هداية للناس «قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم

---

(١) راجع ص ١٥٩ ومابعدها من كتاب «من روائع القرآن» د. رمضان البوطى.

منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى»[1].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين شعوبا وحكاما إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) طه ١٢٣ ، ١٢٤.

المصادر والمراجع

أولاً القرآن الكريم

ثانياً المؤلفات البشرية

١ – إحياء علوم الدين – حجة الإسلام الإمام الغزالى

٢ – أسرار ترتيب القرآن – السيوطى

٣ – إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلانى

٤ – إعجازالقرآن – مصطفى صادق الرافعى

٥ – إنجيل متى

٦ – الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن – د. عبد الرؤف مخلوف

٧ – البيان والتبيين – الجاحظ.

٨ – البحث العلمى – مناهجه وتقنياته د. محمد زيان عمر

٩ – التصوير الفنى فى القرآن الكريم – الأستاذ سيد قطب.

١٠– التمهيد – أبو بكر الباقلانى.

١١– التفسير البيانى د. عائشة عبد الرحمن.

١٢– الرسول ﷺ– الأستاذ سعيد حوى.

١٣– الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح – ابن تيمية.

١٤– الدين والعلم – أحمد عزت.

١٥– الصناعتين – أبو هلال العسكرى.

١٦– الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى.

١٧– العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية – د. سعد الدين السيد صالح.

١٨– العقيدة الإسلامية – رؤية جديدة فى أسلوب الدراسة – د. سعد الدين السيد صالح.

١٩– العقيدة الإسلامية وأسسها – عبد الرحمن حبنكة.

٢٠ – العلم والمنطق والإيمان – كمال مطر.

٢١- العقائد النسفية - سعد الدين التفتازانى.
٢٢- الفصل - ابن حزم الظاهرى.
٢٣- القرآن يتحدى - أحمد عز الدين خلف الله.
٢٤- القرآن محاولة لفهم عصرى - د: مصطفى محمود
٢٥- القرآ وقضايا الإنسان - د. عائشة عبد الرحمن
٢٦- القرآن وبناء الإنسان - صلاح عبد القادر.
٢٧- المغنى - القاضى عبد الجبار
٢٨- النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز
٢٩- النبوات - ابن تيمية
٣٠- النظم القرآنى فى سورة الرعد د. محمد سعيد الدبل
٣١- المعجزة وكرامات الأولياء - ابن تيمية
٣٢- المقاصد - سعد الدين التفتازانى
٣٣- المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصرة - د. سعد الدين صالح
٣٤- المنطق ومناهج البحث العلمى - الواثق بالله عبد المنعم
٣٥- المجموعة الكاملة - العقاد
٣٦- الإتقان فى علوم القرآن - السيوطى
٣٧- المنتخب من تفسير القرآن الكريم - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٣٨- الإسلام والفكر العلمى - د. محمد المبارك
٣٩- الإعجاز البيانى - د. عائشة عبد الرحمن
٤٠- الإعجاز البلاغى - د. صباح دراز
٤١- الإعجاز القرآنى من الوجهة التاريخية د. محمد العزب
٤٢- الإنسان فى الكون - د. عبد العليم خضر
٤٣- الإسلام فى عصر العلم - د. محمد أحمد الغمراوى
٤٤- الإسلام فى عصر العلم - محمد فريد وجدى
٤٥- الأصول الخمسة - القاضى عبد الجبار

٤٦- الإرشاد - إمام الحرمين الجوينى
٤٧- الإيضاح فى علوم البلاغة - الخطيب القزينى
٤٨- اينشتاين والنظرية النسبية - د. محمد عبد الرحمن مرحبا
٤٩- تاريخ آداب اللغة العربية - مصطفى صادق الرافعى
٥٠- تأثير الفكر الدينى فى البلاغة - مهدى صالح
٥١- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة
٥٢- تبسيط العقائد الإسلامية - حسن أيوب
٥٣- تفسير الكشاف - جار الله الزمخشرى
٥٤- تفسير الآيات الكونية د. عبد الله شحاتة
٥٥- تفسير المنار - الأستاذ رشيد رضا
٥٦- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - تحقيق د. زغلول سلام وزميله.
٥٧- حياة محمد - محمد حسين هيكل
٥٨- دراسات فى العقيدة الإسلامية - د: فؤاد العقلى
٥٩- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى
٦٠- روائع القرآن - د. محمد سعيد رمضان البوطى
٦١- روح المعانى - الألوسى
٦٢- شرح العقيدة الطحاوية - على بن على بن محمد بن أبى العز
٦٣- شواهد العلم فى هدى القرآن - محمد سعدى المقدم
٦٤- ظواهر جغرافية فى ضوء القرآن د. إبراهيم حسن النصيرات
٦٥- شمائل الرسول ودلائل نبوته - للإمام أبى الفدا إسماعيل بن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد بيروت.
٦٦- فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه - د. مدكور
٦٧- فى الشعر الجاهلى. طه حسين.
٦٨- فى ظلال القرآن - الأستاذ سيد قطب
٦٩- قصة الإيمان - نديم الجسر
٧٠- قضايا النبوات - د. محمود عبد المعطى بركات

٧١- قوانين الله وليست قوانين الطبيعة - محمود سراج الدين عفيفى
٧٢- كتاب التوحيد - أبو منصور الماتريدى
٧٣- كلمة الإنسانية العليا - حسين هادى الشربينى
٧٤- لسان الميزان - ابن منظور
٧٥- ما أصل الإنسان - موريس بوكاى
٧٦- مباحث فى علوم القرآن - د. صبحى الصالح
٧٧- مشاهد القيامة فى القرآن - الأستاذ سيد قطب
٧٨- مشكلات العقيدة النصرانية - د. سعد الدين صالح
٧٩- من الآيات العلميه د. عبد الرزاق نوفل
٨٠- مناهل العرفان - عبد الوهاب الزرقانى
٨١- منهج ابن تيمية فى تفسير القرآن - صبرى المتولى
٨٢- مفاتيح الغيب - الإمام الرازى
٨٣- معجزة القرآن - الشيخ محمد متولى الشعراوى
٨٤- معجزة القرآن - نعمت صدقى
٨٥- مقالات الإسلاميين - أبو الحسن الأشعرى
٨٦- مقدمة ابن خلدون
٨٧- معترك الأقران - السيوطى
٨٨- معجزات قلب القرآن - هاشم دفتر دار
٨٩- مختار الصحاح - محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى
٩٠- مناهج التأليف عند العلماء العرب د. مصطفى الشكعة
٩١- نهاية الإقدام فى علم الكلام - الشهرستانى - تحقيق الفردجيوم
٩٢- ناقة صالح - محمد عبد الغنى حسن
٩٣- نظرات فى القرآن - الشيخ محمد الغزالى
٩٤- نحو القرآن د. محمد البهى
هذا عدا كثير من المراجع التى اكتفينا بذكرها فى الهوامش

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد	١٠

الباب الأول
فى المعجزة

الفصل الأول

طرق إثبات النبوات	١٩

الفصل الثانى

ضرورة المعجزات وطبيعتها	٢٥

الفصل الثالث

مفهوم المعجزات وحكمها	٣١
الكرامة	٣٥
السحر	٣٩
الفراسه	٤٣
شروط المعجزة	٤٥
وجه دلالة المعجزة	٥٠
المنكرون للمعجزات	٥٢
المعجزة والعلم الحديث	٥٣

الباب الثانى
وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم

الفصل الأول

بيان إعجاز القرآن	٥٩

وجه التحدى بالقرآن الكريم ٦٩
حدود التحدى بالقرآن الكريم ٧١
القرآن يتحدى محمد (ﷺ) ٧٤
القرآن يتحدى الجن ٧٧
قدر المتحدى به من القرآن الكريم ٨٠

الفصل الثانى

الإعجاز البيانى ٨٣
آراء العلماء فى الإعجاز البيانى ٨٨
صور الإعجاز البيانى ٩٤
الوجه الأول ٩٤
الوجه الثانى ٩٧
القرآن والشعر ١٠٠
القرآن والسجع ١٠٤
الوجه الثالث ١٠٨
الوجه الرابع ١١١
الوجه الخامس ١١٣
الوجه السادس ١١٦
الوجه السابع ١١٧
الوجه الثامن ١١٩
الوجه التاسع ١٢٢

الفصل الثالث

الإخبار عن المغيبات ١٣٣

الفصل الرابع

الإعجاز القلبى ١٤٥

الفصل الخامس

القول بالصرفة ١٥٣

الفصل السادس

الإعجاز العلمي فى القرآن الكريم ١٦٣
قضية الإعجاز العلمى بين المؤيدين والمعارضين ١٦٦
قواعد الإعجاز العلمى فى القرآن ١٦٩
فوائد الإعجاز العلمى ١٧٧
مجالات الإعجاز العلمى ١٨٠
القرآن والعلم منهجاً وموضوعا ١٨٤
إعجاز المنهج العلمى ١٨٥
القرآن والعلم موضوعا ١٨٩
الحقائق الإنسانية ١٨٩
الحقائق الكونية ١٩٨

الفصل السابع

الإعجاز العقدى والتشريعى ٢١٧
المصادر والمراجع ٢٢٢
الفهرست ٢٢٦
كتب للمؤلف ٢٢٩

للمؤلف

{أ} سلسلة المنطق ، مناهج البحث

١ - قصة الصراع بين منطق اليونان ومنطق المسلمين - دار الأرقم بالزقازيق سنة ١٩٩٠.

٢ - قوانين الفكر بين الاعتقاد والإنكار - رسالة ماجستير بكلية أصول الدين - القاهرة.

٣ - المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصره - دار الهدى القاهرة سنة ١٩٨٣.

٤ - البحث العلمي ومناهجه النظرية (رؤية إسلامية) دار الأرقم.

{ب} سلسلة الأديان والملل والنحل:

١ - مدخل لدراسة الأديان والملل والنحل - الزقازيق سنة ١٩٩١.

٢ - مشكلات العقيدة النصرانية - الطبعة الثالثة - دار الأرقم ١٩٩٢.

٣ - العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية - الطبعة الثانية - دار الصفا سنة ١٩٩٠.

{ج} سلسلة العقائد الإسلامية:

١ - العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث - الطبعة الثانية - دار الصفا - القاهرة سنة ١٩٩١.

٢ - المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم - دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٩٣.

٣ - أفعال الله والعباد - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٩٨٩ م.

٤ - أشراط الساعة بين العلم والدين - دار الأرقم سنة ١٩٩٢.

٥ - شفاعة الرسول ﷺ (رد على شبهات المنكرين المعاصرين، حولية كلية أصول الدين بالزقازيق) العدد الثاني.

٦ - مشكلات التصوف المعاصر - الزقازيق سنة ١٩٩١ م.

{د} سلسلة المذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة:

١ - احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام - دار الأرقم سنة ١٩٨٩ م.

٢ - إنهيار الشيوعية أمام الإسلام - دار الأرقم سنة ١٩٨٩.

٣ - نظرية التحليل النفسي عند فرويد في ميزان الإسلام - الزقازيق سنة ١٩٩٠.

٤ - الماسونية في أثوابها المعاصرة - دار الصفا سنة ١٩٩٠.

٥ - الوجودية في ميزان الإسلام - دار الطباعة المحمدية - القاهرة سنة ١٩٨٩م.

٦ - التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية - حولية كلية أصول الدين بالزقازيق - العدد الثالث.

٧ - النظام العالمي الجديد (رؤية إسلامية) دار الأرقم سنة ١٩٩٢.

{هـ} موضوعات متفرقة:

١ - كيف نفهم الإسلام وكيف ندعو إليه - حولية كلية أصول الدين بالزقازيق العدد الرابع سنة ١٩٢٢.

٢ - بين علم الإجتماع الإسلامي وعلم الإجتماع الغربي - دار الأرقم سنة ١٩٨٩م.

٣ - مرتكزات النهضة الإسلامية - دار الأرقم سنة ١٩٨٩.

٤ - أختي المسلمة - دار الأرقم سنة ١٩٨٩.

٥ - قوانين الدعوة إلى الله - دار الأرقم سنة ١٩٩٢.

تحت الطبع

١ - الأخلاق في ضوء الفكر الإسلامي.

٢ - الأخلاق في ضوء الفكر الفلسفى.

٣ - دراسات في الفلسفات الإسلامية.

٤ - التواصل الحضارى والحفاظ على الذاتية.

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٤٨٢٤
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4096 - 6	ISBN

٣ / ٩٢ / ٦
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

مناقشة علمية لأخطر الشبهات الموجهة إلى القرآن الكريم من مختلف معسكرات الأعداء والذين يزعمون أن القرآن قد انتهى عصره بحجة أن العصر هو عصر العلم ولا مكان للقرآن فيه ، ويدعون أن تشريعات القرآن كانت صالحة لعصور مضت ، ولكنها لم تعد صالحة للتطبيق الآن ، ويقولون ، إن القرآن قد أعجز العرب ببلاغته وفصاحته ولكن لا يوجد اليوم من يتذوق القرآن فكيف تحكم بإعجازه .

ومن هنا يعالج هذا الكتاب كثيرًا من القضايا الهامة ومنها :

- قضية إمكان وقوع المعجزات فى ضوء القوانين العلمية .
- قضية الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم منهجا وموضوعا
- حدود التحدى بالقرآن الكريم ، وهل يخص العرب وحدهم أم يشمل العجم وغيرهم ممن انحطت أذواقهم البيانية فى العصر الحاضر .
- قضية الإعجاز التشريعي ومدى ارتباطها بوجوه الإعجاز الأخرى .

